العدد١٨١
السنة العشرون
خريف ٢٠٢٢

**مجلة فكرية ثقافية فصلية، تصدر عن شبكة إعلام الاتحاد الإسلامي الكوردستاني**

**A cultural intellectual magazine issued quarterly By Kurdistan Islamic Union**

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
**د. سعد الزيباري**
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
**إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني**

# المحتويات


| | | |
|---|---|---|
| **دراسات** | | ٤ |
| - جهود علماء منطقة (بالَك) في العلوم الشـرعية العلامة (محمد ابن آدم) نموذجًا | د. عقيل سعيد ويسي | ٥-٢٣ |
| - نظريات المواجهة (كيفية التعامل مع الحاكم الجائر) ج٢ | صالح شيخو الهسنياني | ٢٤-٣٢ |
| - مدينة أربل من خلال المرويات التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت الحموي | د. كامران عبد الرزاق ود. قيس فتحي | ٣٣-٥٠ |
| - ضـرار بن عمرو الغطفاني المُتَكَلِّم المجهول | د. آزاد قزاز | ٥١-٧٤ |
| - أثر الترف والبذخ في سقوط الدول والمجتمعات الدولة العباسية نموذجاً | بشار نافكوندى | ٧٥-٩٣ |
| ـ الطاعات وأثرها في الصلح والإصلاح | د. دحام الهسنياني | ٩٤-١٠٩ |
| **رؤى/ دور الهوية الوطنية في استقرار المجتمعات** | خليل إبراهيم | ١١٠-١١١ |
| **مقالات** | | ١١٢ |
| - عالم اليوم كما أستقرِؤُه..الحاضر والمستقبل | شوان زنكنة | ١١٣-١٣١ |
| - قيادة صلاح الدين الأيوبي النموذجية وضرورة الاستلهـام منها لهذا العصر | د. هادي علي | ١٣٢-١٣٥ |
| - الهاجرة .. الوجه القبيح للاستشراق | د. سعد الديوه‌جي | ١٣٦-١٤٠ |
| - سلطة الانعتاق وآفاق التجاوز | د. سامي محمود | ١٤١-١٤٣ |
| - يوم عاشوراء رمز الاحتفال العظيم باندحار الكفر والظلم | عابدين رشيد | ١٤٤-١٤٨ |
| - السعادة ودفء النعم | بكر أبو بكر | ١٤٩-١٥٢ |
| **مرافىء/ حتى مل منه الانتظار** | د.يحيى عمر ريشاوي | ١٥٣ |

| | | |
|---|---|---|
| **ثقافة** | | ١٥٤ |
| - لم يعد دارا..! | عبد الخالق البرزنجي | ١٥٥-١٦٢ |
| **بصراحة/ عندما أقول أنا من المسلمين** | صلاح سعيد أمين | ١٦٣ |
| **تراجم عراقية/** | | ١٦٤ |
| - الشيخ عبد الحميد عبدالخالق البيزّلي الريكاني سيرة ومواقف | د. فرست مرعي | ١٦٥-١٨٧ |
| **قراءة في كتاب** | | ١٨٨ |
| - قراءات في كتب إسلامية | د. عماد الدين خليل | ١٨٩-١٩٧ |
| **آخر الكلام/ لهاث وراء السراب** | محمد واني | ١٩٨ |

| | |
|---|---|
| - جهود علماء منطقة (بالَك) في العلوم الشـرعية العلامة (محمد ابن آدم) نموذجًا | د. عقيل سعيد ويسي |
| - نظريات المواجهة (كيفية التعامل مع الحاكم الجائر) ج٢ | صالح شيخو الهسنياني |
| - مدينة أربل من خلال المرويات التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت الحموي | د. كامران عبد الرزاق ود. قيس فتحي |
| - ضـرار بن عمرو الغطفاني المُتَكَلِّم المجهول | د. آزاد قزاز |
| - أثر الترف والبذخ في سقوط الدول والمجتمعات الدولة العباسية نموذجاً | بشار نافكوندى |
| ـ الطاعات وأثرها في الصلح والإصلاح | د. دحام الهسنياني |

# جهود علماء منطقة (بالَك) في العلوم الشرعية

## العلامة (محمد ابن آدم) نموذجًا(*)

**د. عقيـل سعيـد ويسـي**

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الهدى محمد وآلة وصحبه، ومن اهتدى بهديه، وسلك سبيله، واتبع سنته، إلى يوم الدين، وبعد: فمع دخول الكورد في الدين الإسلامي في عهد الخليفة عمر الفاروق - رضي الله عنه - أصبح للكُورد دور بارز وفعال في بناء الحضارة الإسلامية، وعرف عنهم الإخلاص والتفاني من أجل العقيدة والدين، وسخّروا طاقاتهم وقابلياتهم في خدمته، وبرز منهم العلماء والقادة ورجال الفكر والعلم الذين أبدعوا في شتى أنواع العلوم النقلية والشرعية، وأغنوا الحضارة الإسلامية بنتاجاتهم ومؤلفاتهم الرصينة في علوم اللغة والشريعة والمنطق الجبر والحساب وغيرها، حتى أصبح تراثًا غنيًا لا يمكن الاستغناء عنه في المكتبة الإسلامية.

وكانت للمدارس الدينية المنتشـــرة في كوردستان دور بارز ومشهود في تخريج الكثير من العلماء والشـيوخ والقادة، والذين برزوا في الحياة الثقافية والاجتماعية للمجتمع الكوردي. ومن المناطق التي كانت غنية بالمدارس الدينية في كوردستان منطقة (بالَـــك)، التي تسمى بالكوردية (باله‌كايه‌تى)، والتابعة لقضـــاء (جومان)، وتبعد حوالي (١٨٠كم) عن مركز محافظة أربيل، وتمتاز بروعة وجمال طبيعتها الخلابة. هذه المنطقة كانت ولفترة طويلة مركزًا للعلم، ومقصـدًا للطلاب في المنطقة بأكملها والمناطق المجاورة؛ لاشـتهارها بمدارسـها وعلمائها الكبار، الذين كان الطلاب يأتون إليهم حتى من تركيا وإيران.

ومن بين العلماء الذين أنجبتهم هذه المنطقة العلامة (محمد ابن آدم الروسـتي البالَكي)، الذي ولد في قرية (روسـت) في منتصـف القرن السـابع عشـــــر الميلادي، وعكف في بداية حياته على دراسـة أصـول الدين والشـــــريعة، حتى أصـبح من أشـهر الفقهاء والعلماء في عصـره، وترك وراءه مؤلفات كثيرة اتصفت بأنها في غاية الدقة والرصانة العلمية.

يقول الشـــيخ عبدالكريم المدرس - مفتي العراق ســـابقًا - في كتابه: (علماؤنا في خدمة العلم والدين): "ألّف ابن آدم أكثر كتبه في قرية روســـت، وكلها في غاية الكمال، وتتجلى فيها أفكاره العالية في قوة فطنته، وتبلغ مؤلفاته زهاء مائة مؤلف في العلوم العقلية والنقلية" [(١)]. لكن أغلب هذه المصنفات فقدت-مع الأسف-، ولم يبقَ منها إلا القليل، وهي موجودة في بعض المكتبات الخاصة.

## منطقة (بالَك) من الناحية الجغرافية

### أولًا: تسمية منطقة (بالَك):

هناك عدة آراء حول معنى وأساس كلمة (بالَك)؛ لكن الأرجح أنها من (بالآ كيَو)، والتي تعني باللغة الكوردية (الجبل العالي)؛ حيث إن المنطقة تحتوي على سلسلة من الجبال العالية، وخاصة جبل (هلكورد)[(٢)] الذي يعتبر أعلى قمة جبلية في العراق[(٣)]. وهناك آراء أخرى حول تسمية المنطقة.

---

١- علماؤنا في خدمة العلم والدين، عبد الكريم المدرس: ٥٠٨.

٢- يبلغ ارتفاع الجبل: ٣٦٠٧م عن مستوى سطح البحر، وتكسو قمته الثلوج على مدار السنة (المصدر: الموقع الرسمي لمجلس محافظة أربيل).

٣- ينظر: **گۆران شاخەوان، چەپکێك له زمان و فەرهەنگی باڵەکایەتی**، مطبعة شهاب، ٢٠١٥: ١٨.

**ثانيًا: الحدود الجغرافية للمنطقة:**

تقع منطقة (بالَك) في شمال العراق وشمال شـرقي محافظة أربيل، وهي منطقة جبلية وعرة، وواسعة، تبدأ من قرية (بةرزيَوة)[٤] وحتى حدود إيران. ومركز المنطقة هو قضاء (جومان)[٥]، ويتألف من أربع نواحٍ، وهي: (قەسرێ، گەلاّلّە، حاجی ئۆمەران، سميلان). ويمكن بيان حدود المنطقة كالتالي: من الجنوب تبدأ من قرية (بەرزێوە)، ومن الغرب يمتد إلى قرية (بيَشـة)، التابعة إلى ناحية سـميلان، ومن الشـرق إلى قرية (كرتك) التابعة أيضا لناحية سـميلان، ومن الشمال تصل حدود منطقة (بالَك) إلى ناحية (حاج عمران) على الحدود الإيرانية، مرورًا بقضاء جومان.

أما من الناحية الطوبوغرافية، فالمنطقة تحتوي على سهول ومنحدرات، وهي منطقة زراعية مشهورة بفواكهها ومنتجاتها، إضافة إلى ذلك فهي منطقة سياحية جميلة تمتاز بمناظرها الخلابة، وخاصة في فصليّ الربيع والصيف. أما شتاؤها فقارص وبارد وتكسوها الثلوج.

**ثالثًا: أقسام منطقة بالَك:**

تنقسم منطقة بالَك إلى مجموعة من الوديان والمناطق، هي:

١ـ شوي زورى، وتشمل قرى (دربند، رايات، ورده، ناوند، ديلزه... إلخ).

٢ـ سكرايتى: وادي سكران، وتشمل قرى (سكران، خوشكان , مران، ئينة، مزدنيان، شيخ ديمان).

٣ـ منطقة قسـره، وتشمل قرى (ناوبردان، ميركه، ولزه، ولاش...).

٤ـ منطقة بالييان، وتشمل قرى (جومساك، وسان، قلات، ماونان، كويله).

٥ـ وادي روست، وتشمل قرى (كرتك، روست، سميلان، شيركاوه، سريشمه، كزنه)[٦].

---

[٤]- قرية تابعة إدارياً لقضاء رواندز، تقع على طريق هاملتون، بين قضاء سوران وجومان(الباحث).

[٥]- (جومان) أحد الأقضية التابعة لأربيل، بالقرب من الحدود الإيرانية، وتبعد عن أربيل/١٦٠كم، أصبح مركز ناحية سنة ١٩٦١ ، ثم أصبح مركز قضاء سنة ١٩٧٠(الباحث).

[٦]- ينظر: **هەندێك لايەنی دەنگ سازی وشێوازی بالّەكايەتی**، د.عاطف عبدالله فرهادي: ١٣٤.

## مكانة منطقة بالَك العلمية والاجتماعية

### أولًا: منطقة بالَك في المصادر التاريخية:

يقول عبدالرزاق الحسني في كتابه تحت عنوان (موجز تاريخ البلدان العربية)، عند وصفه لقضاء رواندوز: الناحية الثانية لهذا القضاء هي بالَك الجبلية، والتي تبعد عن مركز قضاء رواندز ٣٠ ميلًا، ولأهمية المنطقة بنيت القلاع على أسوارها[٧]. وقد ورد اسم منطقة بالَك في مذكرات (دبليو.آر.هي)، وفي كتاب المؤلف (ئي. ر.لج) حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة رواندوز الكوردية[٨].

وهناك آثار مثل المقابر والقلاع في بعض قرى ونواحي منطقة بالَك، مثل قرى وادي روست، التي يعود تاريخها - حسب المختصين - إلى ما قبل الميلاد. وهذا يدل على أن هذه المنطقة كانت مسكونة من قبل، وموطناً لأقوام وحضارات سابقة.

### ثانيًا: عشيرة بالَك:

عشيرة بالَك هي إحدى العشائر الكبيرة والمعروفة الموجودة في المنطقة، والتي تقطنها منذ القدم. يقول عباس العزاوي في كتابه عن العشائر الكوردية: هذه العشيرة تسكن في هذه المنطقة، أي منطقة بالَك، ومنها جاءت التسمية، وتشمل قرابة ٤٠ قرية، وهي تابعة لناحية (كلالة). وورد اسم (بالَك) في (مسالك الأبصار)، الذي يعد من أقدم المصادر في هذا المجال[٩].

وتشتهر عشيرة بالَك بعدد من الخصائص والمميزات منها: قوة ومكانة العلاقات الاجتماعية بين أفراد العشيرة، إضافة إلى أنهم معروفون بكرم الضيافة والعطاء، خاصة تجاه الغرباء والمحتاجين.

### ثالثًا: مكانة منطقة بالَك العلمية:

إلى جانب الموقع الجغرافي الاستراتيجي لمنطقة بالَك، وطبيعتها الخلابة، كان لها دور رائد في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية للمنطقة بأكملها. فالمدارس الدينية المنتشرة في مدنها وقراها كان لها الأثر الكبير في إغناء الحياة الثقافية والعلمية، وتخرّج من هذه المدارس علماء وشعراء ورجال سياسة تبوّؤا مواقع مهمة في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية لكوردستان وباقي المناطق الأخرى. ومن هؤلاء الشاعر الكوردي الكبير (حاجي

٧- موجز تاريخ البلدان العربية عبدالرزاق الحسني: ١٨٠ـ١٨٣.

٨- ينظر: د.عاطف عبدالله فرهادي، مرجع سابق: ١٣٨.

٩- عشائر العراق الكُوردية، عباس العزاوي.

قادر الكويي)[١٠]، الذي أمضى بعضًا من حياته في منطقة بالَك ليتعلم في مدارسها، حيث درس في قرية (شيخ وتمان)[١١] على يد ملا محمد ابن عبد الله، ورافقه في العلم حاج ملا عبدالله جلي زادة[١٢]. وكذلك الشيخ مولانا خالد النقشبندي[١٣]؛ العالم الرباني صاحب الطريقة النقشبندية، الذي درس على يد العلامة ابن آدم البالَكي في قرية روست.

وقد كان لهذه المدارس الدينية في كوردستان نظام خاص في الإدارة والتدريب، فأغلب المساجد كانت تحتوي على مدرسة يتم فيها تدريس العلوم الشرعية، وكانت المدارس تسمى باللغة الكوردية بـ(حوجرة) - أي: الحُجرة - وكان أهل القرى يقومون بتحمّل تكاليف هذه المدارس، ويعتبرونها واجبًا شرعياً وصدقة جارية[١٤].

وينتسب إلى منطقة بالَك جمع من العلماء والمشاهير، حيث يقول العلامة إبراهيم فصيح الحيدري، في كتابه (المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة): عشيرة البالكية، وهي كثيرة، ونشأ منهم علماء أعلام وصلحاء، منهم الشيخ العلامة الفهامة الولي أحمد الكيلاني[١٥].

ومن العلماء البارزين في منطقة بالَك: عز الدين بن شرف البالَكي الكوردي، عبدالله الكلالي الكوردي، أحمد بن علي الكلالي الكوردي، أحمد بن علي الكلالي، محمد البالَكي، علي الرش، محمد بن آدم البالَكي، رحمهم الله جميعًا[١٦].

---

١٠- حاجي قادر الكويي: شاعر كوردي معروف، ولد في قرية كويسنجق سنة ١٨١٥، وتوفي سنة ١٨٩٧، ألّف الشعر باللغات الكُوردية، العربية والفارسية. ينظر: حاجى قادرى كؤيى، مسعود محمد و ملا عبدالرحمن.

١١-قرية تابعة لقضاء جومان.

١٢ - ينظر: حاجى قادرى كؤيى، مرجع سابق: ٣٣٠.

١٣- سيأتي ذكره في ما بعد، في فقرة تلاميذ ابن ادم.

١٤- ينظر: **فەقێ یایەتی لە دەشتی هەولێر، گۆڤاری (ڕۆشنبیری تۆی)**، عزيز ملا ڕەش:١١٠_ ١١٧.

١٥- ينظر: عنوان المجد بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، إبراهيم فصيح الحيدري: ١٢٠_١٢١.

١٦- ينظر: علماء ومدارس أربيل، زبير بلال إسماعيل: ١٠وما بعدها.

## حياة محمد ابن آدم البالَكي ونشأته العلمية

**أولًا: اسـمـه وولادتـه:** هو محمد بن آدم بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن الياس بن حسين الروستايي[١٧]، المشهور بـ(ابن آدم البالَكي)[١٨]، المولود في قرية (روست).

أما بخصـوص تاريخ ولادته، فهناك اختلاف؛ مردّه قلة الاهتمام بتدوين التواريخ في تلك المرحلة، لكن أكثر المصادر تشير إلى أن ولادته كانت في سنة (١١٦٤هـ)، الموافقة لـ(١٧٥٠م)، وهذا هو ما رجحه العلامة عبدالكريم المدرس[١٩]، والأستاذ زبير بلال إسـماعيل[٢٠]؛ لكن الشـيخ محمد الخال[٢١] رجح تاريخ ولادته في حدود سـنة (١١٦٠هـ)، الموافق لسـنة (١٧٤٧م).

**ثانيًا: عصـره**

عاصـر ابن آدم نظام الولايات التابعة للخلافة العثمانية، حيث كان العراق - وفق هذا النظام - مقسـمًا إلى ولايات خمس، هي: بغداد، البصـرة، الإحسـاء، الموصـل، شـهرزور[٢٢]. وكان المركز المتمثل بعاصـمة الخلافة (إسـطنبول) منشـغلاً عن الولايات، بسـبب انشـغال الخلافة العثمانية بالضـغوط الخارجية، فضـلًا عن أمور أخرى؛ فحدثت ثورات وحركات مناوئة لحكم العثمانيين في المنطقة.. فقد تأسـسـت في تلك المنطقة (إمارة سوران)، ومركزها (رواندز)، وكان أميرها محمد الملقب بالأميـر الكبير أو (الأميـر الأعمى)، الذي تسلم الإمارة سنة (١٢٢٩هـ)، واتخذ هذا الأميـر ابن آدم قاضيًا في إمارته، وبنى له مدرسة للعلوم الشـرعية[٢٣]. لكن سـرعان ما نشب الخلاف بين ابن آدم والأمير محمد، بسبب انتقادات ابن آدم للأميـر حول أسلوب إدارة الإمارة. وحين شعر

---

١٧- روست: قرية تابعة لقضاء جومان، ناحية سـميلان، تبعد حوالي ١٣٧كم عن أربيل. وهي قرية قديـمة ومزدحـمة، كانت مركزاً للعلم، ومقصداً للطلاب، وبرز فيها الكثير من الشخصيات العلمية والاجتماعية.

للتفصيل عن تاريخ القرية ومكانتها ينظر: نادر روستي، **گوندی کوردی و گۆرانی لەپیشەدا: گوندی ڕوست وەک نـمونـە. چاپخانەی ئاراس، هەولێر:٢٠٠٧،لا٢٩ دواتر.**

١٨-ينظر: ابن آدم وجهوده النحوية، رشيد أحمد رشيد العمادي: ٥، وكذلك علماؤنا في خدمة العلم و الدين، عبد الكريم المدرس: ٥٠٧.

١٩- علماؤنا في خدمة العلم و الدين، مرجع سابق: ٥٠٧ـ٥٠٨.

٢٠- محمد ابن آدم البالَكي، زبيـر بلال إسـماعيل، مجلة المجمع العلمي الكُوردي، ج٥، ١٩٧٧: ٤٥٨.

٢١- ينظر: الشيخ معروف النودهي، الشيخ محمد الخال: ٩ وما بعدها.

٢٢- ينظر: حكم المماليك في العراق، علاء موسى كاظم: ١٥-١٦، وكذلك حياة إبن آدم، د. لقمان الجامعي: ١٠٣.

٢٣- علماء ومدارس أربيل، موصل، مرجع سابق: ١٠٢.

الأميــر بالخشية من مكانة ابن آدم العلمية والاجتماعية، نفاه إلى قرية (ديلزه)، التابعة لقضاء (جومان). وقيل إنه رجع إلى قريته (روست)، واشتغل بالتدريس والتأليف، حيث كتب فيها معظم مؤلفاته[٢٤].

**ثالثًا: وفاتـه**

هناك اختلاف في تاريخ وفاة ابن آدم، حيث يرى كل من الأســتاذ عباس العزاوي[٢٥]، وزبير بلال إســماعيل[٢٦]، والشيخ محمد الخال[٢٧]، والشيخ عبدالكريم المدرس[٢٨]، وغيرهم؛ أن وفاته كانت في سنة (١٢٦٠هـ).

وهناك رأي آخر حول تاريخ وفاة ابن آدم، وهو أنه: شــهر ربيع الأول، ليلة الإثنين، ســنة ١٢٣٧هـــ الموافق لأحد الأيام المحصورة بين ٢٦ كانون الأول لسنة (١٨٢١م) و ٢٤ كانون الثاني سنة (١٨٢٢م)، بحسب ما تابعه أحد الباحثين. وهذا ما أرجحه، والله أعلم[٢٩].

ويقع مرقده في موقع (كونه خان)، القريب من قرية (ديلزه)، التابعة لناحية (جومان).

**رابعاً: نشأتـه العلمية وثقافتـه:**

نشأ ابن آدم في قرية (روست)، التي أحبها كثيراً، في عائلة ملتزمة بالشـريعة، ومشهورة بالعلم، فقد كان والده عالمًا كبيرًا، له حواشٍ وتعليقات على بعض الكتب. وقد ظهرت على ابن آدم بوادر الموهبة العلمية، منذ دراسته الأولى على يد والده، ثم تتلمذ عند العلامة الملا محمد ابن الملا عبدالله البايزيدي[٣٠]، وهو بدوره تلميذ صبغة الله أفندي الكبير بن إبراهيم الحيدري، الذي تتصل غالب الإجازات العلمية في العراق به وبعائلته[٣١].

وكان ابن آدم واسع الثقافة، طموحًا في كسب العلم؛ حيث درس أكثر العلوم تقريبًا، حتى أصبح من أشهر الفقهاء في زمنه، وتعمق في علوم اللغة، وكذلك درس العلوم الأخرى؛

---

٢٤- ينظر: علماء ومدارس أربيل: ١٠٣.

٢٥- تأريخ علم الفلك في العراق، عباس العزاوي: ٢٦٧.

٢٦- ينظر: مجلة المجمع العلمي الكُوردي: مج ٥: ٤٦٧.

٢٧- الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق: ١٠٣.

٢٨- علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٩.

٢٩- ينظر: تصحيح تاريخ وفاة العلامة إبن آدم الكُوردي، فائز الملا بكر، مجلة كاروان، عدد٨٢، سنة ١٩٩٠: ١٤٠.

٣٠- سنأتي على ذكره في شيوخ ابن آدم.

٣١- ينظر: الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق: ١٠٣، وعلماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق : ٥٠٧.

كعلم الفلك، والحسابات، والهندسة، والبلاغة، والصـرف، والعروض، وفن الخط، وعلم الكلام، والمنطق، وألّف في معظم هذه المجالات تأليفات عظيمة تشهد على عبقريته ومكانته العلمية. وعلى رأي الشيخ إبراهيم فصيح الحيدري، فإن ابن آدم في مرتبة ومقام شيخ الإسلام فخرالدين الرازي[٣٢].

وكان ابن آدم محبًا للأسفار لغرض التعلم وكسب المزيد من المعارف. يقول الشيخ محمد الخال: "كان ابن آدم كثير الأسفار؛ من جملتها سفره إلى (مهاباد) سنة (١١٩٢هـ ـ ١٧٧٨م)؛ لتعلم اللغة الفارسية، وذلك بعد أن كان مدرسًا ومؤلفًا. ثم رجع وسكن في (رواندز)، في عهد الأميـر محمد باشا الرواندزي، ووجد تبجيلًا وتقديرًا من محمد باشا، فاشتغل بالتدريس والتأليف، فدرس عنده جم غفير من العلماء والفضلاء"[٣٣].

وكان ابن آدم مجتهدًا في كتبه، وخاصة في الفقه، فالدارس لمؤلفاته يرى ذلك بوضوح، حيث يعلق برأيه على المسائل الخلافية، ثم يطرح وجهة نظره، فضلًا عن كونه من أئمة التجديد في عصـره، فقد حارب البدع الرائجة باسم الدين والتصوف، وكانت له في هذا المجال الكثير من المواقف الجريئة[٣٤].

إضافة إلى ذلك، فإن ابن آدم كان شاعرًا، حيث كتب الشعر باللغات الكوردية والعربية والفارسية؛ حيث يقول الشيخ محمد علي القرداغي: إنه وجد - قدرًا - مخطوطة باليد بين أناس لا يقدرون قيمتها، فاشتراها، وبعد التفحص والنظر فيها، وإذا هي ديوان (واجم) لابن آدم، ولم يبق منه إلاّ ١١٤ صفحة مكتوبة باللغتين العربية والفارسية، تتناول مواضيع مختلفة من المناجاة والدعاء وحب الرسول والعشق والوصف وغيرها[٣٥].

**خامساً: شيوخه ومعاصـروه وتلامذته:**

**١. شيوخه:**

درس ابن آدم على كوكبة من كبار العلماء، وأخذ عنهم العلم، وتأثر بهم، وهم:

أ. والده آدم بن عبدالله:

---

٣٢- ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٥.

٣٣- الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق: ١٠٣.

٣٤- للتفصيل ينظر: **زانايانى ئيصلاح ونوێ كردنەوەى ئاينى لە كوردستان**، د.ئاراس محمد صالح: ٣٧ ـ ٤٦.

٣٥- ينظر: إحياء تاريخ علماء الأكراد من خلال مخطوطاتهم، محمد علي القرداغي: ٢٢٣.

أول من درس عليه الشيخ هو والده، الذي كان عالمًا كبيرًا في زمانه، وكانت له مدرسة في قرية (روست). يقول الشيخ محمد الخال، بحق آدم بن عبدالله: "كان عالمًا جليلًا، وتجد له حواشٍ وتعليقات متفرقة على بعض الكتب"[٣٦].

ولا تعرف المدة التي بقى فيها عند والده في الدرس، وما هي العلوم التي تلقاها عنه. والمهم هنا بيان أن لوالده أثرًا مهمًا في تنشئته ودفعه للاستزادة من العلم.

ب. الملاّ عبد البايزيدي:

أخذ ابن آدم الإجازة العلمية على يد الشيخ البايزيدي، الذي كان من أشهر علماء عصـره، وهو تلميذ صبغة الله أفندي الكبير بن إبراهيم الحيدري[٣٧].

ج. الملاّ رسول الكوراني، والملاّ عبدالله الشيخاني، والملاّ عبدالله الكراوي[٣٨].

ذكر ابن آدم في حواشيه وتعليقاته على بعض الكتب، أنه درس عند هؤلاء الشيوخ الثلاثة، حيث جاء في هامش كتابه (مطول سيد حسن جلبـي عبدالحكيم): "آه من فراق الأستاذ رسول الكوراني: و آه من فراق الأستاذ مولان عبدالله الشيخاني: و آه من فراق الأساتذة والأخوة الثلاثة في ممي خلان"[٣٩].

ولا شك أن ابن آدم كان له أساتذة آخرون، بحكم كثرة أسفاره وتنقلاته طلبًا للعلم والمعرفة؛ لكن من تقدم ذكرهم هم من أثبتتهم لنا المصادر.

**٢. معاصـروه:**

عاصـر ابن آدم كوكبة من علماء عصـره؛ حيث كان عصـره عصـر العلماء الكبار في تلك المنطقة، ومن هؤلاء العلماء:

أ. الملاّ أبو بكر المير روستمي.

ينتسب الملا أبو بكر إلى قرية (مير روستمة)، التابعة لناحية (باسـرمة)، في حدود قضاء (شقلاوة). يقول إبراهيم فصيح الحيدري، في حقه: "ومن أجلّ من أدركت عصـره العالم الفاضل العلامة أبو بكر الميرروستمي الكوردي، وكان من مشايخ العلماء المتبحرين. أخذ عنه العلامة الخطي، وشيخنا العلامة أحمد الكلالي، وشيخنا العلامة الزاهد إبراهيم الرمكي،

---

٣٦- ينظر: الشيخ معروف النودهي ـ الهامش: ١٠٣، كذلك علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٧.

٣٧- ينظر: الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق: ١٠٣، وعلماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٧، وابن آدم وجهوده النحوية، مرجع سابق: ١٩.

٣٨- لم يُذكر عن حياتهم أي شيء.

٣٩- ينظر: ابن آدم وجهوده النحوية، مرجع سابق: ٢٠. و(ممي خلان) هي قرية تابعة تابعة لقضاء جومان في منطقة بالَك، وكانت فيها مدرسة دينية.

وغيرهم من الفحول. وله حواشٍ دقيقة مفيدة على أكثر كتب المعقول، على حاشية العلامة عبدالكريم الهندي على شرح الشمسية من المنطق، وله اليد الطولى في علم البلاغة، وله رسالة في البيان، ورسالة في علم الوضع، وهما من أحسن الكتب في الفنين المذكورين"[٤٠].

ب. الشيخ محمد فيض الزهاوي:

هو الشيخ محمد بن فيض الزهاوي، ولد سنة ١٧٩٣م، وتوفي سنة ١٨٩٠م في (السليمانية). وكان شاعرًا وعالمًا وخطيبا متمسكًا بالزهد والورع، وأصبح فيما بعد مفتيًا لبغداد. أفنى حياته في العلم والتدريس في كوردستان وبغداد. وله مؤلفات كثيرة؛ من أهمها مخطوطة لها طابع كشكولي؛ إذ تضم بين دفتيها المنظوم والمنثور، بأربع لغات: العربية، والفارسية، والتركية، والكوردية، جمع الزهاوي في صفحاتها رقائق الأشعار، وبدائع المعاني، وطرائف الأقوال[٤١].

ج. الشيخ معروف النودهي:

هو محمد بن مصطفى بن أحمد بن محمد، المشهور بمعروف النودهي. ولد في قرية (نودي)، التابعة لقضاء (جوارتا)، في محافظة السليمانية. وله سجل زاخر بالمؤلفات القيمة في مختلف العلوم والفنون؛ حيث تصل مؤلفاته إلى أكثر من خمسين مؤلفًا، كلها آية في السلالة والبلاغة والبراعة، عدا تخاميسه وتشاطيره لبعض القصائد المشهورة[١].

وكانت تربط النودهي بابن آدم صداقة حميمة، حيث قام ابن آدم بشرح بعض كتبه، منها كتاب (كفاية الطالب نظم كافية ابن الحاجب)، وهي منظومة نظم بها كافية ابن الحاجب في النحو، في ١٦٨٣ بيتًا، في حدود سنة ١٢٢٣هـ. وقد شرح ابن آدم هذه المنظومة في سنة ١٢٣٢هـ وسمى شرحه (مصباح الخافية في شرح نظم الكافية)، ويقع الشرح في ٤٢٣ صفحة، ومنه نسخه بخطه في مكتبة الخال[٤٢].

د. الشيخ عبد الرحمن ابن الملاّ عبدالله الجلي، المعروف بـ(كاكي جلي):

ولد الشيخ عبد الرحمن كاكي جلي، الذي كان واحدًا من أبرز علماء الكورد في عصره، في قرية (جلي) التابعة لقضاء (كويسنجق)[٤٣].

وكان الملا عبد الرحمن والعلامة ابن آدم صديقين حميمين، وبينهما مراسلات. يقول الأستاذ مسعود محمد "وقع بصري في الصفحة الأخيرة من سلسلة: مشكاة المنقول لابن

---

٤٠- ينظر: عنوان المجد، مصدر سابق: ١٤٦.

٤١- ينظر: محمد فيض الزهاوي، محمد علي القرداغي: ٢٠٠٤.

٤٢- ينظر: الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق: ٦.

٤٣- علماء ومدارس أربيل، مرجع سابق: ١٠٣، ومجلة المجمع العلمي الكُوردي: مج٥: ٤٦٨.

آدم، مصادفة هزت مشاعري، وكانت هذه الصفحة في نهاية الكتاب، هي بالأصل رسالة من قبل العالم الديني عبد الرحمن كاكي جلي ابن ملا عبدالله كاكي جلي الجد الأكبر لأسرة جلي زادة، كان قد أرسلها إلى العالم الديني ابن آدم. إن سطور وتوقيع الرسالة كان بخط يد الملا عبد الرحمن، وكانا صديقين حميمين"[٤٤].

**٣- تلامذته:**

اشتغل ابن آدم معظم حياته بالتدريس والتأليف، وتتلمذ عليه مجموعة كبيرة من الطلاب والعلماء، الذين أصبح لبعضهم شأن كبير في الحياة العلمية والاجتماعية. ومن أبرز هؤلاء:

١. ابنه، العالم أحمد ابن محمد ابن آدم:

درس على يد والده، وبلغ مرتبة كبيرة في التحصيل العلمي، وشرح الكثير من مؤلفات والده، ودرس على يده الكثير من العلماء، بعد وفاة والده[٤٥].

٣. مولانا خالد النقشبندي:

هو ضياء الدين خالد بن أحمد بن حسين، من عشيرة (الجاف). يعود نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه -. ولد بناحية (قرداغ) التابعة لمحافظة السليمانية سنة ١٧٧٣م أو ١٧٧٦م، والتي كانت في ذلك الوقت مركزًا للعلم والعلماء. اشتغل مولانا خالد النقشبندي بكسب العلم والعلوم الشرعية على علماء عصره، وكان من بين شيوخه البارزين: ابن آدم[٤٦].

وبعد أخذ الإجازة العلمية سافر إلى الهند لأخذ الطريقة النقشبندية على يد شيخ ومشايخ الديار الهندية الشيخ عبدالله الدهلوي، وقام بفتح مدرسة وتكية في مدينة السليمانية، بتشجيع ودعم من أمراء المدينة؛ لتصبح من أهم المراكز العلمية والثقافي والتربوية على مستوى المنطقة والعالم الإسلامي، وكان الطلاب يقصدونها من أرجاء العالم

---

[٤٤]- مجلة المجمع العلمي الكُوردي: مج٥: ٤٥٦.

[٤٥]- علماء ومدارس أربيل، ص ١٠٣، وكذلك مجلة المجمع الكُوردي: مج ٥: ٤٥٦.

[٤٦]- ينظر: مولانا خالد النقشبندي، عباس العزاوي، مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة الكُوردية، العدد الأول، ١٩٧٣: ٦٩٦، وكذلك الشيخ معروف النودهي: ١٠٣.

الإسلامي طلبًا للعلم وأخذ الطريقة. قام بعدها برحلات إلى بغداد والقدس والشام والحجاز، وتوفي بالطاعون سنة ١٨٢٧م، ودفن في دمشق[٤٧].

٣. عبدالله الكلالي الكوردي:

كان من العلماء الكبار، تتلمذ على يده كبار العلماء؛ حيث يقول إبراهيم فصيح الحيدري، في كتابه (عنوان المجد): "ومن أجلّ من أدركت عصـره: العلامة الفهامة المعمر عبدالله الكلالي الكوردي"[٤٨].

٤. محمد الخطي:

كان من أعظم علماء العراق في عهد المماليك. ولد سنة (١٧٥٠)، وتوفي سنة (١٨٣١)، وينسب إلى قرية (خەتى)، التابعة لقضاء (شقلاوة)، وهو من عشيرة (خوشناو)[٤٩]. له مؤلفات وآثار مهمة في العلم والفقه، وله رسالة عجيبة في مسألة العلم من علم الكلام[٥٠].

يقول عنه الشيخ عبد الكريم المدرس: "هو العالم الفاضل، والجد الكامل، التقي، النقي، نخبة المتقدمين، ومفخرة المتأخرين، ناقد السابقين، وقائد اللاحقين، العالم الرباني، أستاذ العلماء، وقدوة المحققين الأماثل"[٥١].

٥ـ علي الوساني:

يقول إبراهيم فصيح الحيدري في وصفه: "ومن أجلّ من أدركت عصـره: العلامة المرشد علي الوساني الكوردي، أخذ العلم عن العلامة النحرير محمد ابن آدم، وهو من خلفاء مولانا خالد النقشبندي، وله حاشية جيدة على حاشية القرباغي في علم المنطق"[٥٢].

---

٤٧- ينظر: يادى مەردان، بەرگى يەكەم، چاپخانەى كۆرِى زانيارى كورد، مەلا عبدالكريم مودەرِيس: ٧، وكذلك علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ١٨٥ـ ١٨٨.

٤٨- ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٦.

٤٩- عشيرة خوشناو من العشائر الكبيرة في محافظة أربيل، ومركز العشيرة هو في قضاء شقلاوة (الباحث).

٥٠- ينظر: مجلة المجمع العلمي الكُوردي العراقي: مج٥: ٤٥٤.

٥١- ينظر: علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥١٢.

٥٢- ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٦-١٤٧.

## آثار ابن آدم العلمية ومؤلفاته

بحكم مكانته العلمية الرفيعة، فقد ترك العلامة ابن آدم وراءه ثروة علمية زاخرة وقيمة من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون؛ من نحو، ولغة، وفقه، ومنطق، وحساب، وهندسة، وخط. وكلها في غاية الجودة، وتتجلى فيها أفكاره القيمة، وذكاؤه الحاد، كما يقول إبراهيم الحيدري[٥٣].

لكن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع، ولم يصل إلينا إلا القليل منها، وهي بحدود أربعين أو أقل، وهي موجودة في مكتبات أحفاده: (ملا سعيد ملا ويسي)[٥٤]، و(ملا محمد ملا صادق)[٥٥]، أو في بعض المكتبات الخاصة؛ مثل مكتبة الشيخ محمد الخال بالسليمانية، وبعضها في دار المخطوطات ببغداد، أو في مكتبة أوقاف السليمانية[٥٦].

وفي الآونة الأخيرة تم الاعتماد على عدد من مؤلفاته من قبل الباحثين والدارسين لنيل الشهادات العليا[٥٧]. وفيما يلي عرض لأهم مؤلفاته وآثاره العلمية:

**أولًا: مؤلفاته في الفقه:**

١. شرح المنهج في باب الفرائض. ألّف ابن آدم هذا الكتاب سنة: ١٢٠٣هـ وتوجد نسختان من هذا المؤلف؛ إحداهما بخط أحد طلابه، باسم عبدالله، كتبها سنة ١٢١١هـ محفوظة لدى والد الباحث (الشيخ سعيد ملا ويسي)، والأخرى مكتوبة بخط هبة الله المفتي - مفتي عقرة -، مكتوبة في سنة ١٣١٨هـ ومحفوظة في مكتبة الشيخين (ملا طاهر، وملا طيب البحركي، في أربيل)[٥٨]. وقد قام الطالب أكرم بايز بتحقيقها، وقدمها إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، في أطروحة ماجستير.

---

٥٣-ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٥.

٥٤ - هو والد الباحث: الشيخ سعيد ملا ويسي، كان عالماً، ومدرساً، وهو إمام وخطيب جامع ديانا، وقد توفي بتاريخ ١٩٩٧/٣/١٣م.

٥٥ - عالم ومدرس، كان إمام وخطيب جامع الحاج إبراهيم الكردي في أربيل، وتوفي سنة ٢٠١٠ بأربيل.

٥٦- **(محمد ئيبنوئادەم)** ي بالَكي، ئينسكلوبيديای كورد و كوردستان، عقيل سعيد ويسي: ٢٤٣.

٥٧- مثل: أحمد رشيد العمادي: ابن آدم وجهوده النحوية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صلاح الدين، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، سنة ١٩٨٩. ومحمد ابن آدم الروستي البالَكي: نظم الحجج لأخراج منهج المنهج، شرح المنهج، تحقيق ودراسة: أكرم بايز محمد أمين الجاف (رسالة ماجستير)، كلية العلوم الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٦. ومحمد ابن آدم الروستي البالَكي، مصباح الوصول إلى علم الأصول، دراسة وتحقيق: إسماعيل محمد جلال سيداريي (رسالة دكتوراه) كلية العلوم الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٥.

٥٨- ينظر: نظم الحجج: ص١٥.

٢. تلخيص المحرر في الفقه الشافعي. وقد قام لقمان الجامعي بدراسة هذا المؤلف وتحقيقه، وقدمه إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، في رسالة ماجستير سنة ٢٠٠٧م.

**ثانيًا: مؤلفاته في أصول الفقه:**

١. مصباح الوصول إلى تهذيب الأصول، تم تحقيقه على قسمين: (القسم الأول، تحقيق: إسماعيل محمد جلال الإسبينداري، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م) (القسم الثاني، تحقيق: أبو بكر ديوانه حمد البالكي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة صلاح الدين، أربيل، ١٤٢٩هـ_٢٠٠٨م).

٢. شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه. وقد أشار إليه العلامة عبدالكريم المدرس في كتابه (علماؤنا في خدمة العلم والدين)[٥٩].

٣. تهذيب الأصول إلى مدارك العقول. توجد النسخة الأصلية، والوحيدة، بخط المؤلف، في مكتبة الشيخ المرحوم محمد ملا صادق الكرتكي، بأربيل.

٤. حاشية على حاشية ابن قاسم على جمع الجوامع. ذكره العلامة عبدالكريم المدرس في كتابه (علماؤنا في خدمة العلم والدين)[٦٠].

**ثالثًا: مؤلفاته في علم الكلام والمنطق:**

١. شرح (إثبات الواجب)، للمولى المحقق جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدوراني، المتوفى سنة (٩٠٧هـ). يقول إبراهيم فصيح الحيدري، في الكتاب: "شرح إثبات الواجب، الذي هو أرق كتب الكلام، من حِفظه بدون استمداد من كتب الكلام"[٦١].

٢. شرح الرسالة الشمسية في علم المنطق. أشار إليها الأستاذ زبير بلال[٦٢].

٣. حاشية على حاشية السيد على محمود الجرجاني. أشار إليها عبدالكريم المدرس[٦٣].

٤. مرآه المأمول في المعقول في علم المنطق. توجد النسخة الأصلية منه في مكتبة المرحوم محمد ملا صادق بأربيل.

---

[٥٩]- علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٩.

[٦٠] المصدر نفسه، ص٥٠٩ .

[٦١]- ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٥.

[٦٢]- ينظر: مجلة المجمع العراقي: مج٥: ٤٧١.

[٦٣]- ينظر: علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ١٠٦.

٥. ميقات المعقول في شـرح مرآة المأمول في علم الكلام والمنطق، توجد النسخة الأصلية في مكتبة المرحوم الشيخ سعيد ملا ويسي.
٦. شـرح خلاصة الحساب.

**رابعًا: مؤلفاته في النحو[٦٤]:**

١ـ الإيضاح في شـرح المشكاة.
٢ـ تبصـرة الطلاب في النحو.
٣ـ تعليقات على حواشي الفوائد الضيائية، لعصام الدين الأسفراييني.
٤ـ تعليقات على حواشي الفوائد الضيائية، لعبدالغفور اللاري.
٥ـ تعليقات على ديباجة شـرح الأنموذج، للبوردعي[٦٥].
٦ـ تعليقات على شـرح السيوطي على ألفية ابن مالك.
٧ـ مشكاه المنقول المتضمن لست فنون: النحو والصرف والخط والعروض والوضع والمناظرة[٦٦].
٨ـ مصباح الخافية في شـرح نظم الكافية.

**خامسًا: مؤلفاته في علم الصرف:**

١ـ تعليقات على جارالبرودي. ذكره الشيخ عبدالكريم المدرس في كتابه (علماؤنا في خدمة العلم والدين)[٦٧].
٢ـ حاشية على حاشية ابن قاسم العبادي على حاشية الشيخ ناصر الدين المصري على شـرح العلامة التفتازاني[٦٨].
٣ـ كتاب في الصرف، ضمن كتابه الكبير مشكاة المنقول[٦٩].

**سادسًا: مؤلفاته في علم البلاغة:**

١ـ تحرير البلاغة[٧٠].
٢ـ تعليقات على المطول، وعلى حواشيه.

---

٦٤- ينظر: ابن آدم وجهوده النحوية، مرجع سابق: ٥٧ وما بعدها.
٦٥- توجدالنسخة الوحيدة من المخطوط في مكتبة أوقاف السليمانية تحت رقم (١٨٢٥/٤٤٣).
٦٦- توجد نسخة من المخطوط في مكتبة والد الباحث: الشيخ سعيد ملا ويسي.
٦٧- ينظر: علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٩.
٦٨- ينظر: علماء ومدارس أربيل، مرجع سابق: ١٠٧.
٦٩ -توجد نسخة من المخطوط في مكتبة والد الباحث الشيخ سعيد ملا ويسي.
٧٠- توجد النسخة الأصلية وبخط مؤلفه في مكتبة المرحوم الشيخ محمد صادق في أربيل.

٣ـ حاشية على شـرح مقدمة التخليص في البلاغة.
٤ـ شـرح تحرير البلاغة.

**سابعًا: مؤلفاته في الحساب والهندسة:**

١ـ رسالة في الرياضيات، التي تتناول علوم الهندسة والحساب والهيئة[٧١].
٢ـ شـرح أشكال التأسيس في الهندسة، للعلامة شمس الدين محمد بن أشرف السمرقندي[٧٢].
٣ـ شـرح رسالة الحساب، لبهاءالدين محمد حسين العاملي الهمداني، المتوفى سنة(١٠٣١هـ ـ١٦٢٢م)[٧٣].

**ثامنًا: مؤلفاته في علم الفلك[٧٤].**

١ـ تذكرة الأحباب في العمل بالأسطرلاب.
٢ـ تشريح السيارات.
٣ـ تعليقات على الجغميني، للقاضي زادة الرومي.
٤ـ حاشية على أشكال التأسيس.
٥ـ حاشية على شـرح الروزنامة (التقويم) الجديد والقديم.
٦ـ رسالة في الهيئة.
٧ـ روزنامة (تقويم) خاص بحساب الليل والنهار والشهور والسنة وأوقات الصلاة والشروق والغروب، خاص بمنطقة بالَك[٧٥].
٨ـ شـرح زيج (أولوغ بك) في الفلكيات والنجوم، شـرحه ابن آدم[٧٦].
٩ـ مفتاح التنجيم في شرح التقويم.
١٠ـ مفتاح الغيب في العمل بالربع المجيب.

**تاسعًا: مؤلفاته الأخرى:**

١ـ رسالة في فن الخط، من ضمن كتاب مشكاة المنقول.
٢ـ رسالة في العروض، من ضمن كتاب مشكاة المنقول.

---

٧١- توجد نسخة من المحطوط في مكتبة الشيخ محمد ملا صادق في أربيل.
٧٢- ينظر: مجلة المجمع العلمي الكوردي: مج٥: ٤٧٦.
٧٣- ينظر: مجلة المجمع العلمي الكوردي: مج ٥: ٤٧٦.
٧٤- ينظر: عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق،: ٢٦٦ـ٢٦٧.
٧٥- ينظر: ابن آدم وجهوده النحوية: ٦٦.
٧٦- ينظر: المصدر نفسه: ٤٦.

٣ـ رسالة في فن المناظرة، من ضمن كتاب مشكاة المنقول.
٤ـ رسالة في فن الوضع، من ضمن كتاب مشكاة المنقول.
٥ـ حواشي على مطالع الأنظار للأصفهاني، في شـرح طوالع الأنوار للبيضاوي[٧٧].
٦ـ ديوان (الواجم)، وهي مجموعة من الأشعار كتبها المؤلف باللغات العربية والكوردية والفارسية.
٧ـ رسالة في الناسخ والمنسوخ.
٨ـ سلسلة الذهب، وهي كتاب تناول فيه المؤلف تاريخ حياته، وأهم الأحداث التي شاهدها[٧٨].
٩ـ شـرح ذات الشفا بالفارسية حول سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين. إضافة إلى بعض الرسائل الأخرى.

## مكانة ابن آدم العلمية وأقوال العلماء فيه

كما أشـرنا سابقًا، كانت لابن آدم مكانة مرموقة في الساحة العلمية، وكان العلماء يقدرونه، ويثنون عليه. وهذه مجموعة من أقوال العلماء حول مكانة ابن آدم العلمية:

١. يقول عنه فصيح الحيدري، في كتابه (عنوان المجد): "ومن أعظم من أدركت عصـره وأنا صغير، وهو نزيل عند جدي العلامة أسعد الحيدري - طاب ثراه -: علامة الدنيا على الإطلاق، الفائق على جميع مشايخ العراق، صاحب التآليف العديدة، والتقريرات المفيدة، شيخ الكل في الكل، مولانا محمد ابن آدم الكوردي".

ويقول أيضًا، في مكان آخر: "كان مشايخ العراق كافة يعترفون بفضله وتقدمه وعلمه المحيط، وكان بمنزلة الفخر الرازي، له أكثر من مائة تأليف في العلوم النقلية والعقلية"[٧٩].

٢. ويقول عنه مسعود محمد: "إن ابن آدم هو عالم ممن تفخر كل أمة بنبوغ مثلهم بين أبنائها، فإنه قد يبلغ في زمانه أقصى مراتب الدراسة والبراعة في العلوم التي كانت رائجة وشائعة على أيامه، وأنه لواضح لا إشكال في عبقرية وجرأة وتبحر ابن آدم، ولا يبقى بعد ذلك إشكال في أنه كان إنسانًا نادر المثال"[٨٠].

---

٧٧- الرسائل الخمس المذكورة آنفا كلها موجودة ضمن كتاب (مشكاة المنقول، المتضمن لست فنون)، وهذة النسخة من المخطوطة موجودة بخط المؤلف - كما أسلفنا - في مكتبة والد الباحث الشيخ سعيد ملا ويسي.
٧٨- وقد كانت نسخة من المخطوط موجودة عند الأستاذ عباس العزاوي، وقد أهدى نسخة منها إلى المجمع العلمي العراقي، لكن عند المتابعة لم نجد لها أثراً.
٧٩- ينظر: عنوان المجد، مرجع سابق: ١٤٥.
٨٠-ينظر: الحاج قادر الكويي، مرجع سابق، ١٠٢/٢ـ١٠٣.

٣. أما العلامة الشيخ عبدالكريم المدرس، مفتي الديار العراقية، فيقول في وصف ابن آدم: "الشيخ العلامة نابغة الدهر، ونادرة العصـر، محمد ابن آدم بن عبدالله البالَكي"[٨١].

٤. ووصفه الشيخ معروف النودهي، في أبيات شعر، بـ "بحر العلوم اللوذعي الألمعي"[٨٢].

**وختاماً:**

فإن العلامة ابن آدم البالكي الروستايي، الذي ولد بحدود سنة ( ١١٦٤هـ - ١٨٢١ هـ) في قرية (روست)، التابعة لمنطقة (بالك) في كوردستان العراق، واحد من العلماء الكبار الذين أنجبتهم الأمة الكوردية. فقد كان عالماً موسوعياً، أبدع في شتى العلوم الإسلامية، وترك وراءه مؤلفات في غاية الدقة والرصانة العلمية في مختلف المجالات؛ كعلوم اللغة والفقه والأصول والمنطق والحساب والفلك والتاريخ والخط وغيرها .

ندعو الدارسين وطلاب العلم إلى محاولة دراسة وتحقيق مؤلفات هذا العالم الجليل، لتستفيد منها أمتنا الإسلامية والأجيال اللاحقة❐

*** المقال في الأصل بحث مقدم إلى مؤتمر (الحركتان العلمية والفكرية في العراق في العصـر الحديث) بتاريخ ١٣-٢٠١٩/٤/١٥ في عمان عاصمة المملكة الأردنية .**

## المصادر والمراجع

### أولًا: المصادر العربية:


١. أحمد رشيد العمادي، ابن آدم وجهوده النحوية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة صلاح الدين، أربيل، ١٤٠٩هـ.

٢. عنوان المجد بيان أحوال بغداد والبصـرة ونجد، إبراهيم فصيح الحيدري، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٢٨٦هـ.

٣. علماء ومدارس أربيل، زبير بلال إسماعيل، مطبعة الزهراء الحرفية، موصل، ١٢٨٦هـ.

٤. مجلة المجمع العلمي الكوردي، ج٥، بغداد، ١٩٧٧م.

٥. مصباح الوصول إلى تهذيب الأصول لابن آدم، دراسة وتحقيق: إسماعيل محمد جلال، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، قسم الشـريعة، ١٤٢٦هـ.

٦. نظم الحجج لإخراج منهج المنهج، شـرح المنهج لابن آدم، أكرم بايز محمد أمين الجاف، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة العلوم الإسلامية، كلية الشـريعة، بغداد، ٢٠٠٦م.


[٨١]- ينظر: عبدالكريم المدرس، علماؤنا في خدمة العلم والدين، مرجع سابق: ٥٠٧.

[٨٢]- ينظر: الشيخ معروف النودهي، مرجع سابق، ص١٠٣.

٧. تأريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهود التالية لأيام العباسيين سنة (٦٥٦هـ ـ١٢٥٨م) إلى سنة (١٣٣٥هـ ـ١٩١٧م)، عباس العزاوي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٨هـ.
٨. عشائر العراق الكوردية، عباس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد، د.ت.
٩. مولانا خالد النقشبندي، عباس العزاوي، مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة الكوردية، العدد الأول، ١٩٧٣م.
١٠. علماؤنا في خدمة العلم والدين، عبدالكريم محمد المدرس، بغداد، عني بنشره: محمد علي القرداغي، دار الحرية للطباعة، ١٤٠٣هـ.
١١. موجز تاريخ البلدان العربية، عبدالرزاق الحسني، مطبعة العرفان، سوريا، ط٢، د.ت.
١٢. حكم المماليك في العراق، علاء موسى كاظم، بغداد، دار الحرية، ١٣٩٥هـ.
١٣. تصحيح وفاة العلامة ابن آدم، فائز الملا بكر، مجلة كاروان، عدد(٨٥)، سنة، ١٩٩٠م.
١٤. حياة العلامة ابن آدم، د.لقمان الجامعي، مطبعة ماردين، أربيل، ٢٠١٦م.
١٥. الشيخ معروف النودهي، محمد الخال، بغداد، مطبعة التمدن، ط ١، د.ت.
١٦. إحياء تاريخ علماء الأكراد من خلال مخطوطاتهم، محمد علي القرداغي، بغداد، شركة الخنساء للطباعة، ١٤٢١هـ.
١٧. محمد علي القرداغي، محمد فيض الزهاوي نبذة عن حياته وشيء من آثاره، منشورات ئاراس للطباعة والنشر، أربيل: ٢٠٠٤م.

## ثانيًا: المصادر الكوردية:

١. زانايانی ئیصلاح و نوێکردنەوەی ئاینی لەکوردستان، د. ئاراس محمد سالّح، سلێمانی، ناوەندی سارا، ٢٠١٨ز.
٢. ئینسکلۆپێدیای کورد و کوردستان، ڕێکخراوی زانست بۆ باس و توێژینەوە، بەرگی یەکەم، ٢٠١٨ز.
٣. هەندێ لایەنی دەنگ سازی شێوەزاری باڵەکایەتی لەسەر بنچینەی (Praat)، د.عاتف عبدالله فەرهادی، هەولێر، ٢٠١٣ز.
٤. یادی مەردان، بەرگی یەکەم، مەلا عبدالکریم مودەرپیس، چاپخانەی کۆڕی زانیاری کورد، بەغدا، ١٩٧٠ز.
٥. عزیز ملا ڕەش، فەقێ یایەتی لە دەشتی هەولێر، گۆڤاری (ڕۆشنبیری نوێ) ژ: ١١٠، ١٩٨٦.
٦. گۆران شاخەوان، چەپکێك لە زمان و فەرهەنگی باڵەکایەتی، هەولێر، چاپخانەی شەهاب:٢٠١٥
٧. : حاجی قادری کۆیی، مسعود محمد و ملا عبدالرحمن، بغداد، چ٢، ١٩٧٢ز.
٨. گوندی کوردیی وگۆڕان لە پیشەدا، گوندی ڕوست وەك نمونە، نادر ڕوستی، هەولێر چاپخانەی ئاراس، ٢٠٠٧ز.

# نظريات المواجهة

# ( كيفية التعامل مع الحاكم الجائر )

## من كنوز قلائد الجمان شـرح اللؤلؤ والمرجان

## - الحلقة الثانية -

**فكرة وإعداد وشـرح**
**صالح شيخو الهسنياني**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

**أما بعد:**

كثرت الآراء والأقوال ووجهات النظر في كيفية التعامل مع الحاكم الجائر في القديم والحديث ما بين جواز الخروج عليه خروجاً مسـلحاً؛ أو العصـيان عليه بعدم التعامل معه، أو مع منظومته، وما بين السـكوت والإقرار بحكمه درءاً للفتنة، وما بين منعزل لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

في هذه النظريات (**١٨ نظرية**) التي اسـتنتجناها حول كيفية التعامل مع الحاكم الجائر أو الفاسـق، اسـتنبطنا أسـماءها ونصـها وأفكارها من أحاديث الرسـول ﷺ، ومن مواقف

الصحابة والتابعين حول الأحداث التي واكبت بيعة وتولي يزيد بن معاوية الخلافة، وكذلك الأحداث التي جرت في خلافة عبد الملك بن مروان عند أخذ البيعة لولدين من أولاده (الوليد وسليمان)، وأيضاً قصته مع عبد الله بن الزبير، ومن أقوال العلماء والفقهاء الذين عاشوا المرحلة، أو الذين كتبوا عنها فيما بعد، إلى العصر الحديث.

في الحلقة الأولى تطرقنا إلى النظريات الآتية:

**١- نظرية هجر الظالمين.**
**٢- النظرية العندية.**
**٣- نظرية النصح (النظرية النصحية).**
**٤- نظرية السمع والطاعة.**

**٥- نظرية التقديس:**

تقول النظرية: **السلطان ظل الله في الأرض، وأنهم مفضولون على طبقات البشر؛ تفضيل البشر على سائر أنواع الخلق وأجناسه، فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله.**

عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِذَا عَدَلَ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ، وَإِذَا جَارَ كَانَ عَلَيْهِ الْإِصْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ)**[١].

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ أَكْرَمَه اللَّهَ، وَمَنْ أَهَانَهُ أَهَانَهُ اللَّهُ)**[٢].

قال **الماوردي** في كتابه (نصيحة الملوك): "ومن جلالة شأن الملوك وفضائلهم على الرعايا وطبقات الناس، أن كل من تحت يدي الملك من رعاياه... فإن محلهم منه، في كثير من الجهات، محل المملوكين. لأن (مَلَكَ يَمْلِك) في أصل اللغة من المِلك، لا من المُلْك... فهو يستعمل الرعية حسب ما يريده ويهواه، ويحبه ويراه"[٣].

---

[١] - الأموال، لابن زنجويه: (٧٧/١؛ رقم: ٣٢).

[٢] - السنة، لابن أبي عاصم: (٤٩٢/٢؛ رقم: ١٠٢٤)؛ السلسلة الضعيفة: (رقم: ١٦٦٢).

[٣] - الماوردي، نصيحة الملوك: (ص٥٣)، تحقيق: الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح - الكويت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

أي أن الرعية وعامة الناس، في نظر الماوردي، مجرد مقتنيات مادية لجلالة الملك، لا إرادة لهم ولا حرية، يتلفهم، يستبدلهم وقت ما شاء، حسب مزاجه، فهم عبيد مسلوبي الإرادة، هوى الملك هواهم، وإرادة الملك إرادتهم، وهم لا حول لهم ولا قوة.

وعن واجب المحبة والطاعة، يقول حجة الإسلام **الغزالي،** في كتابه (التبر المسبوك في نصيحة الملوك): "ينبغي أن يُعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك[٤]، وجعله ظله في الأرض، فإنه يجب على الخلق محبته، ويلزمهم متابعته وطاعته، ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته... فينبغي لكل من آتاه الله الدين أن يحب الملوك والسلاطين، وأن يطيعهم فيما يأمرون"[٥].

وانظر إلى قول **ابن المقفع،** وهو يرشد الناس إلى كيفية التعامل مع حكامهم، بنظرة فارسية ساسانية، فيقول: "... تعلمهم، وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتؤدبهم، وكأنهم يؤدبونك،

---

[٤] - يقصد: الملك العادل، والسلطان العادل. "لأن بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد، وتقترف المعاصي والآثام، وتورث دار البوار، وذلك أن السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته، وأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل، فمات الباطل، وذهبت رسوم الجور، وانتعشت قوانين الحق، فأرسلت السماء غياثها، وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم، وزكت زروعهم، وتناسلت أنعامهم، ودرت أرزاقهم، ورخصت أسعارهم، وامتلأت أوعيتهم، فواسى البخيل، وأفضل الكريم، وقضيت الحقوق، وأعيرت المواعين، وتهادوا فضول الأطعمة والتحف، فهان الحطام لكثرته، وذل بعد عزته، وتماسكت على الناس مروآتهم، وانحفظت عليهم أديانهم. وبهذا تبين لك أن الوالي مأجور على ما يتعاطاه من إقامة العدل، ومأجور على ما يتعاطاه الناس بسببه.

وإذا جار السلطان: انتشر الجور في البلاد، وعم العباد، فرَقّت أديانهم، واضمحلت مروآتهم، وفشت فيهم المعاصي، وذهبت أماناتهم، وتضعضعت النفوس، وقنطت القلوب، فمنعوا الحقوق، وتعاطوا الباطل، وبخسوا المكيال والميزان، وجوزوا البهرج، فرفعت منهم البركة، وأمسكت السماء غياثها، ولم تخرج الأرض زرعها أو نباتها، وقل في أيديهم الحطام، وقنطوا، وأمسكوا الفضل الموجود، وتناجزوا على المفقود، فمنعوا الزكوات المفروضة، وبخلوا بالمواساة المسنونة، وقبضوا أيديهم عن المكارم، وتنازعوا المقدار اللطيف، وتجاحدوا القدر الخسيس، ففشت فيهم الأيمان الكاذبة، والحيل، في البيع، والخداع في المعاملة، والمكر والحيلة في القضاء والاقتضاء، ولا يمنعهم من السـرقة إلَّا العار، ومن الزنا إلَّا الحياء، فيظل أحدهم عارياً عن محاسن دينه، متجرداً عن جلباب مروءته، وأكثر همته قوت دنياه، وأعظم مسراته أكله من هذا الحطام. ومن عاش كذلك، فبطن الأرض خير له من ظهرها". الطرطوشي، سـراج الملوك: (ص٤٥)، المطبوعات العربية، مصـر، ١٢٨٩هـ ١٨٧٢م.

[٥] - التبر المسبوك في نصيحة الملوك: (ص٤٣)، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ /١٩٨٨م.

تشكرهم، ولا تكلفهم الشكر، بصيرًا بأهوائهم، مؤثرًا لمنافعهم، ذليلًا إن ظلموك، راضيًا إن أسخطوك..."[٦].

وأما **ابن الطقطقي**، فيقول: "ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعيّة: التّعظيم والتّفخيم لشأنه؛ في الباطن والظاهر[٧]، وتعويد النفس ذلك، ورياضتها، بحيث تصير ملكة مستقرة، وتربية الأولاد على ذلك، وتأديبهم به، ليتربى هذا المعنى معهم"[٨].

وقال **البربهاري**: "إذا رأيت الرجل يدعو على السلطان، فاعلم أنه صاحب هوى. وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح، فاعلم أنه صاحب سنة"[٩].

وقال **محمد العبد الكريم**، معقباً على قول البربهاري: "هذه معايير صاحب الهوى وصاحب السنة، فمن دعا على السلطان فهو صاحب هوى، وقد أصبحت هذه المقولة، وغيرها، تنزل على سلاطين الجور والاستبداد لا فرق، فمن دعا عليهم، فهو صاحب هوى"[١٠].

ومن غير الدعاء، فمن حق الملك على المحكومين، كما يرى **الجاحظ** في كتابه (التاج في أخلاق الملوك)، الذي ألفه للوزير العباسي الفتح بن خاقان[١١]: "أن يقف منه الداخل بالموضع الذي لا ينأى عنه، ولا يقرب منه، وأن يسلم عليه قائماً. فإن استدناه، قرب منه، فأكبّ على أطرافه يقبلها، ثم تنحّى عنه قائماً، حتى يقف في مرتبة مثله. فإن أومأ إليه بالقعود، قعد. فإن كلمه، أجابه بانخفاض صوتٍ، وقلة حركة. وإن سكت، نهض من ساعته"[١٢].

---

٦ - عبد الله بن المقفع (ت: ١٤٢هـ)، الأدب الصغير والأدب الكبير: (ص٩٦)، دار صادر، بيروت.

٧ - أي: استحضار صورته في قلبه، في كل تقلباته، وتعظيمه في الظاهر والباطن.

٨ - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: (ص٣٨)، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

٩ - البربهاري، شرح السنة: (ص٥١)، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

١٠ - تفكيك الاستبداد: (ص١٥٨).

١١ - الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: (ت: ٢٤٧هـ/٨٦١م): أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره، وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه. وكان يقدمه على جميع أهله وولده. واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. وألف كتابا سماه (اختلاف الملوك)، وكتاباً في (الصيد والجوارح)، وكتاب (الروضة والزهر)، وقتل مع المتوكل. أعلام الزركلي: (١٣٣/٥).

١٢ - الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك: (ص٧)، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.

وقال: "فإن كلمه، أجابه بانخفاض صوتٍ، وقلة حركة، وحسن استماع. فإذا قطع الملك كلامه، قام فرجع القهقرى"[١٣].

وعند انصـراف الملك، فعلى من في الحاشية "أن يقوم معه إذا قام، ويدعو بدابته ليركب حيث يراه، ويشيعه ماشياً، قبل ركوبه، خطى يسيرةً، ويأمر حشمه بالسعي بين يديه. على هذا كانت أخلاق آل ساسان من الملوك وأبنائهم"[١٤].

وحول التقرب إلى الملك، يقول: "ولم يتقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع"[١٥].

وحول أخلاق الملك السعيد، يقول: "ومن أخلاق الملك السعيد: البحث عن سـرائر خاصته وحامته، وإذكاء العيون [الجواسيس] عليهم خاصةً، وعلى الرعية عامة"[١٦].

ومن أخلاق الملك السعيد أيضاً: "البحث عن كل خفي ودفين حتى يعرفه معرفة نفسه عند نفسه، وأن لا يكون شيء أهم ولا أكبر في سياسته ونظام ملكه من الفحص"[١٧].

ولم ير ملك قط كان أعجب في هذا الأمر من (أردشير بن بابك)[١٨]. ويقال إنه كان يصبح، فيعلم كل شـيء بات عليه من كان في قصبه دار مملكته من خيرٍ أو شـر، ويمسي فيعلم كل شيءٍ أصبحوا عليه"[١٩].

ومن أخلاق الملك السعيد، إلى سعادة الرعية، يقول: "إن سعادة العامة في تبجيل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابك: سعادة الرعية في طاعة الملوك، وسعادة الملوك في طاعة المالك. والملوك هم الأس، والرعية هم البناء. ومن لا أسَّ له مهدوم"[٢٠].

---

١٣ - نفسه: (ص٨).

١٤ - نفسه: (ص٨-٩).

١٥ - نفسه: (ص٥٧).

١٦ - قال أحمد زكي باشا، حول ما قاله الجاحظ، عند تحقيقه للكتاب: "نتعرف به مقدار التأثير الكبير الذي كان للحضارة الفارسية في الحضارة الإسلامية، على عهد العباسيين. حتى لقد ينسى الجاحظ خطته ومنهاجه، فيسرد بعض عادات الفرس ورسومهم القديمة، كأنها مألوفة في تلك الأيام، وهي مما لا يكون تحت حكم الإسلام". التاج: (ص٢٤).

١٧ - التاج: (ص١٦٧).

١٨ - أردشير بن بابك بن ساسان، أول إمبراطور ساساني، مؤسس الإمبراطورية الساسانية، (ت: ٢٤١م) من الطبقة الرابعة من ملوك الفرس؛ وهم الأكاسـرة الساسانية، وجميع الأكاسـرة؛ الذين كان آخرهم يزدجرد بن شهريار، من ولده. الوافي بالوفيات: (١٠/١)؛ تاريخ أبو الفداء الأيوبي: (٤٧/١).

١٩ - نفسه: (ص١٦٧).

٢٠ - نفسه: (ص٢-٣).

قال الفضيل بن عياض: "لو كان لي دعوة مستجابة، ما جعلتها إلَّا في السلطان.

قيل له يا أبا علي فسر لنا هذا. قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني، وإذا جعلتها في السلطان صلح فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا، لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم[٢١]، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين"[٢٢].

قال **ناصر عبد الكريم العقل،** في تعليقه على (شرح السنة) للبربهاري: "من الأصول الشرعية التي قررها السلف، إقرارهم كلام الفضيل، ونقلوه واستحسنوه، وجعلوه قاعدة من قواعد الدين، وأصلاً من أصول العقيدة، يتناقلونه إلى يومنا هذا؛ لأنه مبني على النصوص الشرعية التي وردت عن النبي ﷺ، فإن من أعظم صور المناصحة: الدعاء لولي الأمر بأن يهديه الله ويصلحه ويوفقه ويسدده ويعينه وييسر له الأعوان الصالحين، هذا من الأمور التي ترجع فائدتها لدين الناس ودنياهم، لا لذات السلطان فقط، مع أنه يجب أن ندعو للمسلم بالصلاح وإن لم يكن سلطاناً، فكيف إذا كان سلطاناً.

إذا تأملت مقتضى النصوص الشرعية والمصالح الدينية والدنيوية، تجد أنه لا يدعو على السلطان إلَّا أحد اثنين: إما صاحب هوى؛ وهو الغالب، بمعنى أن عنده هوى؛ سواء كان هذا الهوى هوى القلب، أو ما يسمى هوى الاتجاه، الذي هو اتباع الفرق.

بعض الناس قد يكون سبب دعائه على السلطان مبني على أمر شذّ به عن جماعة المسلمين؛ إما اتجاه، وإما حزب، وإما فكر، فيكون عنده توجه معين يجعله يقف من السلطان الظالم والفاجر موقفاً يصل إلى الدعاء عليه، فلذلك لا يدعو على السلطان إلَّا متهور جاهل، أو صاحب هوى"[٢٣].

**٦- نظرية الاعتراف:**

قال القانوني والدستوري **عبد الرزاق السنهوري: "الخلافة - الحكومة - المفروضة بالقوة والإكراه، رغم أنها فاسدة شرعاً، إلَّا أنه يجوز اعتبارها قانونية بحكم الواقع، حين تجمع بين عنصرين: عنصر واقعي، وعنصر قانوني"**[٢٤].

---

[٢١] - قال العبد الكريم: "فجورهم وظلمهم - كما يرى الفضيل - على أنفسهم. ومن المعلوم بالبداهة أن ضررهم المتعدي على غيرهم أشد من كل الأضرار مجتمعة، فظلم السلطان يتعدى الطير والهواء، وظلمه سبب مباشر للفقر والمذلة". تفكيك الاستبداد: (ص١٥٨).

[٢٢] - شرح السنة: (ص٥١).

[٢٣] - دروس صوتية مفرغة: (د٩/١٨-١٠).

[٢٤] - فقه الخلافة وتطورها: (ص٢٢٨).

وقال مبيناً: العنصر الواقعي هو فرض السيطرة الفعلية على إقليم الدولة التي يعلن نفسه حاكماً عليها... ويجب أن يفرض النظام والأمن في الإقليم الذي يسيطر عليه، وأن يكون قادراً على المحافظة عليهما.

أما بالنسبة إلى العنصر القانوني، فهو العنصر الذي تكتسب به صفة الشرعية، وهذا العنصر هو عقد البيعة، لأنها هي الاعتراف الرسمي الشكلي من المسلمين بالحكومة المفروضة بالقوة، هذا الاعتراف الذي يتخذ عادة صورة عقد البيعة، الذي يقدمه قادة الأمة مكرهين؛ كلهم أو بعضهم - ليس من الضروري أن يكون أغلبية الناخبين - إنما يعترفون رسمياً بولاية المسيطر المستبد (أو من يخلفه) ويبايعونه، أي يعلنون ولاءهم لحكومته"[٢٥].

**٧- نظرية الدعاء والاستسلام (نظرية الحسن البصري):**

تقول النظرية: "**لا يمكن مواجهة سلطة الحاكم الجائر، أو منافسته، أو إزالته، إلَّا بالدعاء والتسليم لقضاء الله، لأن تسلطه علينا عقوبة من الله جراء فساد العامة. دون الالتفات إلى التخطيط وإعداد العدة لإزالته**".

ظهر دعاة هذه النظرية بعد واقعتي: (الحرة)؛ سنة (٦١هـ/٦٨١م)[٢٦]، و(دير الجماجم)؛ سنة (٨٣هـ/٧٠٢م)[٢٧].

قال الدكتور **حاكم المطيري:** "وقد كان لهذه الهزيمة [هزيمة موقعتي الحرَّة، ودير الجماجم] أثر كبير على الفكر السياسي والعقائدي، حيث شاع القول بالإرجاء والجبر من جهة، ووجوب السمع والطاعة للإمام الجائر، وإن كان كمثل الحجاج، من جهة أخرى؛ إذ إن االله هو الذي يسلطهم، ولا يمكن رفع هذا البلاء إلَّا بالدعاء، وهذا هو القضاء الذي يجب التسليم له والصبر عليه؟"[٢٨].

وقال أيضاً: "كان لهذه الهزيمة آثارها النفسية والفكرية؛ إذ ذهب فيها كثير من علماء المصرين (البصرة، والكوفة)، وعبادهم، على يد الحجاج الطاغية. فلم يكن لهذا من تفسير، عند كثير من الناس، إلَّا أن هذه عقوبة من الله، وأن هذه إرادة الله التي يجب عدم اعتراضها

---

[٢٥] - فقه الخلافة وتطورها: (ص٢٢٨، ٢٢٩).

[٢٦] - وهم الصحابة والعلماء الذين خرجوا بالمدينة على يزيد بن معاوية، فحصل ما حصل من قتل وسلب ونهب واغتصاب...

[٢٧] - وهم القراء الذين خرجوا على عبد الملك بن مروان في العراق.

[٢٨] - الحرية أو الطوفان: (ص١٥٤).

أو مقاومتها، بل الاستسلام لها والرضا بها. ولم يلتفتوا إلى تخلف أسباب النصر بسبب سوء التخطيط، وقدرات الحجاج العسكرية"[٢٩].

**الدنيا للملوك، والحكمة للعلماء:**

عن سفيان بن عيينة قال: قال عيسى بن مريم: يا معشر الحواريين، كما ترك لكم الملوك الحكمة، فكذلك اتركوا لهم الدنيا[٣٠].

وقد كان الحسن البصري هو داعية هذا الفكر، فقد قيل له: ألا تخرج، فتغيّر؟ فكان يقول: إن الله إنما يغير بالتوبة، ولا يغير بالسيف[٣١].

وقد سئل: ما تقول في قتال هذا الطاغية [يعني الحجاج]، الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: " أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله، فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء، فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين"[٣٢].

وكان يقول: "لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا، ما لبثوا أن يفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف، فيوكلون إليه، فوالله ما جاؤوا بيومٍ خيرٍ قط"[٣٣].

وقيل له: ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟ قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه. إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا[٣٤].

ومن أقواله أيضاً: "والله ما سلط الحجاج إلَّا عقوبة، فلا تعترضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع"[٣٥].

- وقال الحسن البصري في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلَّا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن - والله - إن طاعتهم لغيظ، وإن فرقتهم لكفر[٣٦].

---

[٢٩] - الحرية أو الطوفان: (ص١٥٥-١٥٥).
[٣٠] - مختصر تاريخ دمشق: (١١٧/٢٠).
[٣١] - طبقات ابن سعد: (١٢٧/٧).
[٣٢] - طبقات ابن سعد: (١٢٠/٧).
[٣٣] - طبقات ابن سعد: (١٢١/٧).
[٣٤] - طبقات ابن سعد: (١٣١/٧).
[٣٥] - تاريخ الإسلام للذهبي: (٢٥/٣).
[٣٦] - جامع العلوم والحكم: (١١٧/٢).

وقد وجدت هذه الآراء السياسية الفكرية صداها في نفوس أهل البصـرة بعد الهزيمة، وشاعت فيها لوجود الحسن البصري[٣٧].

**قنبلة الدكتور علي الوردي:**

قال **علي الوردي**: "يخيل لي أن الطغاة وجدوا في الواعظين خير معوان لهم على إلهاء رعاياهم وتخديرهم، فقد انشغل الناس بوعظ بعضهم بعضاً، فنسوا بذلك ما حل بهم على أيدي الطغاة من ظلم.

وعندما ينتهز الواعظ الفرصة، يهتف بالناس قائلاً: إنكم أذنبتم أمام الله، فحق عليكم البلاء من عنده. والواعظ بذلك يرفع مسؤولية الظلم الاجتماعي عن عاتق الظالمين، فيضعها على عاتق المظلومين أنفسهم... فيأخذون بالاستغفار وطلب التوبة.

وبهذه الطريقة يستريح الطغاة. فقد أزاحوا عن كواهلهم مسؤولية تلك المظالم التي يقومون بها، ووضعوها على كاهل ذلك البائس المسكين الذي يركض وراء لقمة العيش صباح مساء – ثم يلاحقه الواعظون بعد هذا بعقاب الله الذي لا مرد له.

إن مشكلة الوعاظ أنهم يأخذون جانب الحاكم، ويحاربون المحكوم. فتجدهم يعترفون بنقائص الطبيعة البشـرية، حين يستعرضون أعمال الحكام؛ فإذا ظلم الحاكم رعيته، أو ألقى بها في مهاوي السوء، قالوا: إنه اجتهد فأخطأ، وكل إنسان يخطئ، والعصمة لله وحده.

أما حين يستعرضون أعمال المحكومين، فتراهم يرعدون ويزمجرون وينذرونهم بعقاب الله الذي لا مرد له، وينسبون إليهم سبب كل بلاء ينزل بهم"[٣٨]❐

[٣٧] - الحرية أو الطوفان: (ص١٥٥).

[٣٨] - وعاظ السلاطين: (ص: ١١، ١٢)، دار كوفان - لندن، ط٢، ١٩٩٥م.

# مدينة أربل
# من خلال المرويات التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت الحموي

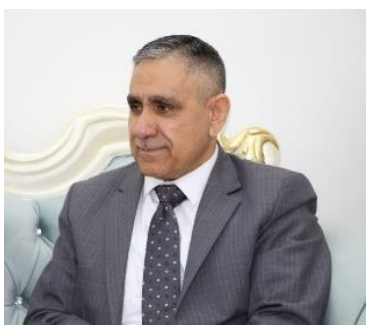

**د.كامران عبدالرزاق محمود**

**د. قيس فتحي أحمد**

✍ يعد كتاب (معجم البلدان)، الذي صـــنفه ياقوت الحموي، من أهم المصـــادر والمعاجم البلدانية وأكثرها شـهرة، حيث أنجزه في القرن السـابع الهجري/ الثالث عشـــــر الميلادي، في حقبة الغزو المغولي. ضـــم معجم ياقوت الحموي بين جنباته ألواناً مختلفة من الفنون الجغرافية والأدبية والتاريخية والاقتصادية، شجعه وساعده في إتمامه كثرة الارتحال، التي اكتسب من خلالها المعرفة والاطلاع الكبيرين على أحوال العالم والبلدان التي شاهدها ومرّ بها، وهذا ما فتح أمامه آفاقاً واســـعة، وأعطاه دفعاً قوياً لتوســـيع مداركه في ميادين المعرفة المختلفة بعامة، وميدان الجغرافيا بخاصة .

فكان أن سـافر إلى أصـقاع كثيرة؛ براً وبحراً، مثل مناطق الخليج العربي وبلاد الشـام ومصـر وآذربيجان وخراسان وخوارزم، ومناطق كثيرة من العراق، ومن بينها مدينة أربل.

كل تلك المشـــاهدات والرحلات، وما ســـجل خلالها من الأحداث، جعلت من كتابه (معجم البلدان) مرجعاً لكثير من الباحثين في التراث الإســلامي، فمجلداته المتعددة تتســع لقيام العديد من الدراسـات التاريخية، نظراً لما ضـم من المعلومات الغنية التي تناولـــت مختلف جوانب الحضــارة الإنســانية في معجمه، حيث حصــل ياقوت الحموي على هذه المعلومات عن طريق أســفاره ومشــاهداته الشــخصــية. وقد اخترنا جانب ما أورده من المعلومات عن مشاهداته في مدينة أربل، واقتصـــرنا على ما ورد عن مدينة أربيل ومدنها وقراها، حيث نجد اهتماماً واضــحاً بهذه المدينة التي زارها ومرّ بكثير من مدنها وقراها ومواضعها، وهيأ له ذلك التعرف على عدد من أعلام مدينة أربل.

## نبذة مختصـرة عن حياة ياقوت الحموي

**١- اســـمه ونشـــأته:** هو (ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي، يكنى بأبي عبدالله)[١]، ويلقب بشــهاب الدين[٢]. وقد عرف باســم ياقوت الحموي . ولد ياقوت، فيما حكاه عن نفسـه: سـنة أربع أو خمس وسـبعين وخمسـمائة (٥٧٤هـــ/١١٧٨م)، أو (٥٧٥ هـــ/١١٧٩م)، ببلاد الروم[٣]. حيث أُســـر صغيراً، ومن ثم حمل إلى بغداد[٤]، وكان عمره آنذاك خمس أو ست سنوات[٥]، ثم بيع في أحد أسواق النخاسة ببغداد، إذ اشتراه عسكر

(١) ابن المستوفي، شــرف الدين أبو البركات مبارك بن أحمد اللخمي(ت:٦٣٧هـ/ ١٢٣٩ م)، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، المعروف بـــ(تاريخ إربل)، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشـر، (العراق:١٩٨٠م)، ٣١٩/١ ؛ ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ( بيروت، دار إحياء التراث العربي ، مؤسـسـة التاريخ العربي: د. ت) ،١٠/١ ؛ الذهبي، شـمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـــ/ ١٣٤٧م)، ســير أعلام النبلاء، (بيروت، المكتبة العصـرية: ٢٠٠٧م) ، ٢٢/ ٣١٢.

(٢) ابن المســتوفي، المصــدر نفســه، ٣١٩/١ ؛ ابن خلكان، أبو العباس شــمس الدين أحمد بن أبي بكر (٦٠٨هـ/ ١٢٨٢ م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار صادر: د. ت )، /١٢٧.

(٣) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة ومحمد أديب جمران، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق: ١٩٨٨ م) ، ١/ ٨.

(٤) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ٣١٩/١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٢٧/٦.

(٥) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ٣١٩/١.

بن إبراهيم بن أبي نصـــر حموي، الذي كان تاجراً على سعة من العيش، لا يعرف شيئاً غير مهنة التجارة[٦]، حيث تعلم فنون التجارة وشؤونها، وأتقنها، وهو ابن خمس عشرة سنة[٧].

**٢- طلبه للعلم:**

حرص ياقوت الحموي على طلب العلم، وهذا ما يظهر من النصوص التي تناولت حياته، حيث كان قد تلقى تعليمه منذ صـغره. وقد بنى ياقوت ثقافته من خلال الكتب أكثر مما كانت على يد الشيوخ، لأنه قد عاش حياته متنقلاً في الحل والترحال بين البلدان، ولم يتفرغ للجلوس إلى الشـيوخ والأخذ منهم. وقد لاحظنا، من خلال اطلاعنا على كتبه، أن ياقوت قد ذكر شيوخه في كتبه، ولا سيما في كتابيه (معجم البلدان) و(معجم الأدباء)، معترفاً بفضلهم عليه. وعلى الرغم من انشـــغال ياقوت بالتجارة، إلا أن ذلك لم يمنعه من مقابلة العلماء والأدباء، والاستفادة مما لديهم، فها هو في رحلته إلى مدينة (آمد)[٨] سنة (٥٩٤هـ/١١٥٨م)، يسارع للالتقاء بالأديب علي بن الحسين، المعروف بشميم الحلي[٩]، ويجالسه ليناقشه في الأدب، ويسأله عن بعض مؤلفاته الأدبية[١٠].

**٣- رحلته، ووفاته:**

لم يســـتقر ياقوت الحموي في مكان واحد، وإنما تنقل بين أكثر من مدينة إســـلامية، حيث كانت حياته سـلسـلة متواصـلة من الرحلات، التي تنقل من خلالها في أرجاء العالم الإسلامي، فكانت أولى رحلاته إلى (جزيرة كيش)[١١]، ثم عاد إلى مدينة بغداد، حيث واصل

---

(٦) ابن المستوفي، نفسه، ٣١٩/١.

(٧) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، مقدمة معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس،(بيروت، دار الكتب العلمية : ١٩٩٣م)، ١١/١.

(٨) مدينة حصـــينة بناؤها من الحجارة الســـود، على مســـافة من نهر دجلة، يحيط بها من أكثر من جانب، مسـتديرة به كالهلال. ينظر : المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشـاري (ت نحو ٣٨٠ هـــــ / ٩٩٠ م)، أحســـن التقـاســـيم في معرفـة الأقـاليم، ط٣، مكتبـة مـدبولي، (القاهرة:١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص١٤٠؛ البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شـــمائل القطيعي (ت٧٣٩هـــــ/١٣٣٨م)، مراصـد الاطلاع على أسـماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، ط١ (بيروت:١٤١٢ هـ)،١/ ٦.

(٩) شـــميم الحلي: هو علي بن الحســـين بن عنتر بن ثابت، المعروف بشـــميم الحلي، اللغوي، النحوي. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ١٦٨٩/٤.

(١٠) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء، ١٢٨٦/٤.

(١١) كيش: جزيرة في بحر عمان، مربعة، طولها اثنا عشـــر ميلاً، في عرض اثني عشـــر ميلاً، وفيها مدينة كيش. وليها عامل من اليمن فحصنها، وتسمى قيس، بها مدينة جيدة ذات بساتين وعمارات، وهي مرفأ

عمله في الجمع بين التجارة ونسخ الكتب وبيعها، وبين مجالسة العلماء والأدباء[١٢]. ثم توجه شطر بلاد الشام (٦٠٧هـ/١٢٠٩م) للتجارة، وفي سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١١م) قصد مدينة حلب[١٣]، والتقى بالوزير جمال الدين القفطي[١٤]، ثم قصد مدينة تبريز[١٥] سنة (٦١٠هـ/١٢١٢م)[١٦]. وفي سنة(٦١٢هـ/١٢١٤م) رحل ياقوت إلى دمشق، ومنها إلى بغداد[١٧]، ثم إلى مرو[١٨] سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، حيث استقر بها ثلاث سنوات[١٩]. وقد استفاد ياقوت أثناء وجوده في (مرو) من خزائن الكتب التي كانت موجودة فيها يومئذٍ، وكانت غنية بالمؤلفات المفيدة، التي اعتمد عليها بشكل كبير في تأليف كتابه (معجم البلدان)، ومؤلفاته الأخرى.

---

مراكب الهند، وبرّ فارس، وبها مغاص اللؤلؤ. ينظر: الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني(٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١،عالم الكتب، (بيروت:١٤٠٩ هـ)،١/ ١٥٦؛ البغدادي، مراصد الاطلاع ،٣/ ١١٣٩.

(١٢) الحميدي، يوسف بن عبدالعزيز بن محمد، ياقوت الحموي مؤرخاً من خلال كتاب معجم البلدان، (الرياض :١٩٩٨) ، ص٥٨.

(١٣) حلب: مدينة مشهورة ببلاد الشام، واسعة، كثيرة الخيرات، طيّبة الهواء، وبجانب منها قلعة كبيرة محكمة، بها جامع وكنيستان، وميدان ودور كثيرة، وبها مقام لإبراهيم الخليل. قيل: سميّت حلب، لأن إبراهيم عليه السلام كان نازلاً بها يحلب غنمه في الجمعات، ويتصدّق به. ينظر: البغدادي، مراصد الاطلاع ،١/ ٤١٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٥.

(١٤) وهو جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي، استوزره العزيز صاحب حلب سنة ( ٦٢٣هـ/١٢٣٥م)، صاحب كتاب (إنباه الرواة على أنباه النحاة)، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٦٨/٣.

(١٥) تبريز: أشهر مدن أذربيجان، مدينة عامرة حسناء، ذات أسوار، وأهلها أيسر أهل البلاد وأكثرهم مالاً، وهي مشهورة. ينظر: البغدادي، مراصد الاطلاع ،١/ ٢٥٢.

(١٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان ،١١٦/١.

(١٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٥٣/١.

(١٨) مرو: مدينة كبيرة، كانت مقر ولاة خراسان؛ أول من نزلها المأمون، ثم من ولي خراسان بعده. أهلها أشراف من دهاقين العجم، وبها قوم من العرب من الأزد وتميم وغيرهم، ويشرب أهلها من عيون تجري وأودية. ينظر: اليعقوبي، أبي يعقوب أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (توفي بعد ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، البلدان، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت:١٤٢٢ هـ )، ص٩٨، ٩٩.

(١٩) المصدر نفسه ،٢٥٤/٤.

بعد ذلـــك الاستقرار الذي لم يدم طويلاً، ارتحل مرة ثانية، وكانت وجهته مدينة (أربل)، حيث دخلها سنة (٦١٧هـــ/١٢١٩م)، ثم انتقل إلى مدينة الموصل[٢٠] في السنة ذاتها[٢١]، وبعدها عاد ياقوت مرة أخرى إلى حلب، وأقام بها، وهناك تمكن من أن يكمل كتابيه (معجم البلدان) و(معجم الأدباء)، فأهدى نسخة من كتابه (معجم البلدان) إلى جمال الدين القفطي، سنة (٦٢٥هـــ/١٢٢٧م)[٢٢]. وأقام ياقوت بالخان[٢٣]، في ظاهر مدينة حلب، ومرض مرضاً شديداً مات فيه، في العشرين من شهر رمضان سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) - رحمه الله[٢٤].

إن رحلات ياقوت الكثيرة إلى المشرق، وإلى بلاد الشام ومصر، تبين لنا مدى حرص ياقوت على الرحلات وحبه لها، وعزمه وحزمه وهمته العالية في التعرف على البلدان بهمة عالية حتى ترك لنا مؤلفات عدة؛ أشهرها (معجم البلدان) الذي نحن بصدد دراسته، فضلاً عن كتابه الآخر (معجم الأدباء).

**٤- مؤلفاته:**

ترك ياقوت الحموي كتباً نافعة في مجالات عديدة، وكل كتاب منها يعتبر موسوعة علمية ومنهلا عذباً ينهل منها أهل العلم والمعرفة[٢٥]، في الأدب والتاريخ والأنساب والبلدان، ومن مؤلفاته في اللغة كتاب (أوزان الأسماع والأفعال الحاصرة لكلام العرب)، لم يذكره سوى القفطي[٢٦]، وكتاب (مجموع كلام أبي علي النحوي)، وقد تم ذكره عند عدد

(٢٠) الموصل: مدينة كبيرة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كبراً وعظماً، وكثرة خلق، واسعة الرقعة، باب العراق ومفتاح خراسان، منها تقصد أذربيجان.جيدة البناء، طيّبة الهواء، صحيحة الماء، حسنة الأسواق والفنادق، لا تخلو المدينة من إسناد عال، وفقيه مذكور، منها ميرة بغداد، وإليه قوافل الرّحاب، وله منازه وخصائص وثمار حسنة وحمّامات سريّة ودور بهيّة ولحوم جيّدة وأمور جامعة، البلد شبه طيلسان. وسميّت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. ينظر: المقدسي ،أحسن التقاسيم ،ص١٣٨؛ البغدادي، مراصد الاطلاع ،٣/ ١٣٣٣.

(٢١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ،١١٦/١؛ ابن المستوفي: تاريخ إربل ،٣١٩/١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٦/ ١٢٨.

(٢٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،٢٢/١.

(٢٣) الخان: محل نزول المسافرين مع خيلهم ومطاياهم. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤٦/١).

(٢٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤٦/١؛ القفطي ، المصدر السابق ، ٤ /٨٠.

(٢٥) ياقوت الحموي، الخزل و الدال ، ٢٦/١.

(٢٦) القفطي، المصدر السابق، ٨١/٤ .

من المؤرخين[٢٧]. أما مؤلفاته في الأدب والتراجم، فكتابه (معجم الأدباء)[٢٨]، وله كتاب في الشعر وأخبار الشعراء[٢٩]، وكتاب أخبار المتنبي[٣٠]، وكتاب ضرورة الشعر[٣١].

أما مؤلفاته في التاريخ، فله كتاب (المبدأ والمآل)[٣٢]، وكتاب( أخبار أهل الملل وقصص أهل النحل في مقالات أهل الإسلام)[٣٣]، وكتاب (مختصـــــر تاريخ بغداد)[٣٤]. أما أشهر كتبه في الجغرافية، فهو كتاب (معجم البلدان)[٣٥]، حيث يعتبر من أشهر كتب ياقوت وأجلّها، وبه عرف واشـــتهر. ويشـــير ياقوت إلى محتويات هذا الكتاب في مقدمته لهذا الكتاب، حيث يقول: "فهذا كتاب فيه أســـماء البلدان، والجبال، والأودية والقيعان، والقرى والمحال والأوطان، والبحار والأنهار والغدران، والأصنام والأبداد والأوثان" [٣٦].

يحتوي المعجم على(١٥٠٣٨) مادة جغرافية، يتراوح حجم المادة الواحدة منها بين بضعة أسطر وما يزيد على عشـــــرين صفحة، حسب أهمية المادة، وما يتوفر لديه من معلومات عنها. وهي مرتّبة على الحروف الهجائية، حيث قسّـــم ياقوت المعجم إلى (٢٨) باباً، على عدد حروف المعجم، وقســـم كل كتاب على (حرف) إلى ٢٨ بابًا – على عدد الحروف أيضـــاً – ورتب مواد المعجم داخل كل باب ترتيبًا ألفبائياً على ترتيب حروف الكلمة؛ الحرف الأول ثم الذي يليه ثم الذي يليه...إلخ، بحيث راعى جميع حروف الكلمة وليس أول حرف منها فقط، وذلك لتســـهيل المراجعة والاســـتفادة منها، كما هو الحال في المعاجم الحديثة.

وقد أشـــار ياقوت إلى منهجيته في تأليف كتابه هذا في مقدمته، حيث قال: "وألتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحروف وثانيه وثالثه ورابعه، وإلى أي غاية بلغ، فأقدّم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب (ا ب ت ث ) على صورته الموضوعة له، من غير نظر إلى أصول

(٢٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٢٧/٦.
(٢٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ٢٤٦، ٢٦١، ٣٨٨/٣ ، ١٥٤/٤.
(٢٩) المصدر نفسه ، ٦٤/٢، ٤٢٢/٢، ٣١٩/١.
(٣٠) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ٢٤٩/٣.
(٣١) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ٢٤٩/٣.
(٣٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ١٢٨/٦.
(٣٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ٢٩٣/١.
(٣٤) ابن الشعار، قلائد الجمان ، ٩/ ٣٤١.
(٣٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان،١٧/١.
(٣٦) المصدر نفسه، ١٧/١.

الكلمة وزوائدها، لأن جميع ما يرد إنما هي أعلام لمسميات مفردة، وأكثرها أعجمية ومرتجلة لا مساغ لاشتقاق فيها. والغرض من هذا الترتيب تسهيل طرق الفائدة من غير مشقة، والله المعين" [٣٧].

وتلي المقدمة خمسة أبواب[٣٨]. ووضع مقدمة تمهيدية (موجزة)، جعلها مدخلاً للتعريف بالمعجم ومنهجه فيه، وذكر فيها دواعي وبواعث تأليفه، وأخرى (مفصلة) تقع في خمسة أبواب، عرض فيها آراء وأقوال المتقدمين عن (الأرض)؛ هيئتها، وأقاليمها، ومساحتها ...إلخ، وأورد بعد ذلك ثبتاً بالمصطلحات التي يتكرر ذكرها في المعجم؛ كالمصطلحات الخاصة بالتقسيمات الجغرافية والإدارية للبلدان، مثل: (الإقليم، والمخلاف، والكورة، والرستاق..)، وكذلك المصطلحات الخاصة بالمسافات؛ كالفرسخ والبريد والميل..إلخ.

كما ضم المعجم بين دفتيه نحو خمسة آلاف شاهد ومقطوعة شعرية، تتراوح بين بيت واحد أو قصيدة بكاملها، يزيد مجموع أبياتها عن أربعة عشر ألف بيت. وقد تجاوز عدد الأعلام (أسماء الرجال والنساء) في المعجم الـ(١٢) ألف عَلَم، ترجم لعدد كبير منهم.

## روايات ومشاهدات ياقوت الحموي لمدينة أربل

لقد شكلت المعلومات التي ضمها كتاب معجم البلدان مصدراً مهماً من مصادر المعرفة، التي أغنت - بما حوته من مادة علمية - شغف الباحثين بالمعلومات المفيدة، لما ضمته من جوانب حضارية مختلفة. فقد أسهمت إسهاماً فعالاً في إذكاء جذوة العلم، من خلال ما قدمته من معلومات مهمة عن مدينة (أربل)، فوصفت وصفاً دقيقاً آثار المدينة، وما حوته من العمران، وما كانت عليه في أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وما تميزت به من المظاهر الطبيعية؛ من أنهار وجبال ووديان، فضلاً عن المسافات بين تلك المدن، والطرق السالكة إليها، وغيرها من المعلومات.

ويتضح من خلال دراسة كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي، ومتابعة بلداته التي أوردها في معجمه عن مدينة أربل، عمق الصلة التي ربطته بكثير من تلك البلدان، وذلك من خلال زيارته لمدينة أربل وريفها، ومروره بها، واللقاء بكبار شخصياتها، والتعرف على أحوالها الاقتصادية والاجتماعية. لذلك جاءت مادته عن أربل وريفها، جامعة بين ملاحظات متنوعة في معجمه، وجملة ما أفرده لبلدانية أربل وريفها، يربو على (٦٢) مادة بلدانية متنوعة. فقد ذكر اسم (أربل) في معجمه (٦٢) مرة؛ بين مدينة وبلدة وناحية

(٣٧) معجم البلدان، ٢٣/١

(٣٨) المصدر نفسه، ٢٣/١ – ٢٩.

وقرية ودير وجبل ونهر وعين ماء، وغير ذلك، وهو عدد كبير إذا علمنا أن غيره من البلدانيين أو المؤرخين لم يقدّم مثله من قبل[٣٩].

ومن خلال تقصينا ومراجعتنا للمعجم، تمكنّا من الوقوف على هذه المواد البلدانية التي وردت فيه، وقد ارتأينا توزيعها على النحو الآتي:

١- **المدن والبلدان:** أورد ياقوت في معجمه ثلاثة بهذا المعنى، وهي: مدينة أربل[٤٠]، وشهرزور[٤١]، وهرور[٤٢].

٢- **بليدة:** كما ذكر صيغة بليدة أربع مرات، وهي: خانيجار [٤٣]، حزة [٤٤]، تل هفتون [٤٥]، دةشت [٤٦] .

---

(٣٩) تم حصر المواد البلدانية المذكورة أعلاه، والمتعلقة بأربل، من قبل الباحث.

(٤٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ١١٧/١.

(٤١) **شهر** كلمة فارسية تعني مدينة، **وشهرزور**: هي مدينة صغيرة في الجبال بين إربل وهمذان، تحيط بها الجبال، لا يكاد يوجد فيها فضاء كبير لا يرى منه جبل، يحيط بها سور يبلغ سمكه ثمانية أذرع، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد، وأكثر أمرائهم منهم، ولهم به مزارع كثيرة. فتحت شهرزور سنة (٢٢هـ /٦٤٢م)،على يد القائد عتبة بْن فرقد السلمي (ت بحدود ٥٠هـ /٦٧٠م)، في خلافة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه-، حيث كتب إِلَى عُمَر: (أني قَدْ بلغت بفتوحي أذربيجان)، فولاه إياها. ولم تزل شهرزور، وأعمالها، مضمومة إِلَى الموصل، حَتَّى فرقت في آخر خلافة هارون الرشيد(ت١٩٣هـ /٨٠٨م)،حيث جعلت ولاية مستقلة. ينظر: البلاذري، أحمد بن يحيى البغدادي (٢٧٩هـ /٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد ، (القاهرة : ١٩٥٦م)، ص٣٢٥؛ الاصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، المسالك والممالك، دار صادر، (بيروت: ٢٠٠٤م)، ص ٢٠٠- ٢٠٢؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية،(بيروت : ١٤١٥هـ) ، ط١،٢/ ٣٣٣، ٤١٨/٢.

(٤٢) هرور: حصن من أعمال إربل، في جبالها من جهة الشمال. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٧٦/٤ .

(٤٣) خانيجار : بليدة قرب أربل، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ..

(٤٤) حزة: بليدة قرب إربل، ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،٢١١/٢.

(٤٥) تل هفتون : ممر القوافل بين إربل وإذربيجان، وهي في وسط الجبال، وفيها سوق حسنة، وخيرات واسعة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٤٦/٢ .

(٤٦) دشت: بليدة في وسط الجبال، رأيتها عامرة كثيرة الخير، أهلها كلهم أكراد . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣٠١/٢.

٣- **القرى:** ذكر ياقوت الحموي أربعة بلدانية بصيغة (قرية كبيرة)، وهي : ممدود آباذ[٤٧] ، شقلاباذ[٤٨]، شاقرد[٤٩]، زرفامية[٥٠].

٤- **قرية:** كما ذكر ياقوت صيغة القرية ستة مرات، وهي: كفر عزا[٥١]، تل خوسا[٥٢]، ترجلة[٥٣]، بيت انار[٥٤] ، بلاسكرد[٥٥]، باكلبا[٥٦].

٥- **دير:** ذكر ياقوت ديرا واحداً ضمن منطقة أربل، وهو: دير الجب[٥٧].

٦- **القلاع والحصون:** وورد في المعجم اسم ثلاث قلاع، في هذه المنطقة، وهي: كرخين[٥٨] ، خفتيان[٥٩]، تل هفتون[٦٠]، وكذلك اسم حصنين، وهما: هرور[٦١]، وطفر[٦٢].

---

(٤٧) ممدود آباذ: قرية كبيرة، قرب الزاب الأعلى، بين إربل والموصل، وهي من أعمال إربل. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣١٩/٤ .

(٤٨) شقلاباذ : قرية كبيرة مليحة في لحف الجبل المطل على إربل (تبعد عن أربيل ٥١ كيلومتر). ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،١٥٠/٣ .

(٤٩) شاقرد: قرية كبيرة بين دقوقاء وإربل، فيها قليعة. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١١٥/٣.

(٥٠) زرفامية: قرية كبيرة، وهي الآن خراب. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٧٢/٢.

(٥١) كفر عزا: قرية من قرى إربل، بينها وبين الزاب الأسفل. ينسب إليها قاضي إربل. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،١٤٥/٤ .

(٥٢) ترجلة: قرية مشهورة بين إربل والموصل. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ٤٥٢/١ .

(٥٣) تل خوسا:. قرية قرب الزاب بين إربل والموصل. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،٤٣٧/١ .

(٥٤) بيت النار: قرية كبيرة من قرى إربل من جهة الموصل، بينها وبين إربل ثمانية أميال. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤١١/١

(٥٥) بلاسكرد: ويروى بالزاي مكان السين، قرية بين أربل وأذربيجان. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٥٧/١.

(٥٦) باكلبا: قرية من قرى إربل. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٦٢/١ .

(٥٧) دير الجب: دير في شرقي الموصل، قرب إربل، مشهور يقصده الناس لأجل الصرع، فيبرأ منه بذلك كثير. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ٣٣٧/٢ .

(٥٨) كرخيني: هي قلعة في وطاء من الأرض، حسنة، حصينة، بين دقوقا وإربل، رأيتها، وهي على تل عال، ولها ربض صغير. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ١٢٩/١

(٥٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ٢٤٠/٢- ٢٤١

(٦٠) نفسه، ٤٥٥/١.

(٦١) نفسه، ٤٧٦/٤ .

(٦٢) نفسه، ٣٦٢/٣

٧- **المواضع والجبال والأودية والأنهار:** ذكر ياقوت موضعاً واحداً ضمن مناطق أربل، وهو: طفر، وأورد أيضاً خمسة مواد بلدانية بصيغة ( نهر)، هي: زابيان[٦٣]، زاب[٦٤]، خازر[٦٥]، بريشوا [٦٦]، تل هفتون[٦٧].

**١- التسمية:**

(أربل): بكسر الألف وسكون الراء وكسر الباء الموحدة، وفي آخرها اللام. هذه النسبة إلى أربل، وهي قلعة على مرحلة من الموصل[٦٨]. اشتقت الكلمة من كلمة الربل، والربل ضرب من الشجر، يورق أخضر من غير مطر[٦٩]. ويقال: تربلت الأرض: اخضرّت بعد اليبس في موسم الخريف[٧٠]. وقيل: الريبال: النبات الكثير الملتف الطويل. ولكثرة وجوده في أربل، بسبب خصوبة الأرض المعروفة بها، وسعة النبات، ما دعاهم إلى تسميتها بذلك، أي أربل، ولزمها ذلك الاسم[٧١].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن اسم أربل يعود إلى فترات زمنية بعيدة، واستمرت تعرف به عبر مراحلها التاريخية المتعاقبة. ويعود أقدم ذكر لمدينة أربل إلى سنة (٢٠٠٠ق. م )، إذ ورد ذكر (أربيلم) في مدونات (ولكي) ملك سومر، الذي عاش سنة ٢٠٠٠ق. م[٧٢].

---

(٦٣) زابيان: يقال للنهرين من قرب إربل الزابيان. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٦٣/٢ .

(٦٤) خازر : اسم النهر الذي بين الموصل وأربل. ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢٦٢/٢.

(٦٥) زاب: جمع زابان الزوابي، وهي الزاب الأعلى والأسفل، بين الموصل وإربل. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٢٢/١ .

(٦٦) بريشوا : اسم لنهر خازر الذي بين الموصل وأربل. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٣٧/٢.

(٦٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٥٥/١.

(٦٨) السمعاني ، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، (بيروت: ١٩٩٨م)، ١/ ١٠٥.

(٦٩) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧هـ /١٤١٤م)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨٧م)،١/ ١٢٩٦. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ١٣٧.

(٧٠) ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت٧١١ هـ /١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، (بيروت :١٩٨٩م)، ط١١،١/٢٦٤.

(٧١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ١٣٧.

(٧٢) باقر، طه وفؤاد سفر، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الخامسة، (بغداد: ١٩٦٦)، ص٢١٢-٢١٤.

كما عرفت أربل في النقوش الفارسية المدونة بالخط المسماري باسم (إربرا)[٧٣]، وذكرتها المصادر اليونانية والرومانية بـ(أربليتس)، والتي تعني الأرض الواقعة بين الزابين الصغير والكبير. وأما في كتب التاريخ الإسلامية، وكتب الجغرافيين المسلمين، فقد كانت تعرف بـ(بإربل) أو (أربل)[٧٤]. والجدير بالذكر أن مدينة أربل دخلت تحت الحكم الإسلامي في سنة ( ١٨هـ / ٦٣٩م)، في عهد الخليفة عمر بن خطاب – رضي الله عنه –، على يد القائد عياض بن غنم[٧٥]، الذي فتح إقليم الجزيرة، وبعض قلاع الموصل[٧٦]. أما موقع المدينة، فهي بين الزابين، فيما بين المشرق والجنوب، على مسيرة يومين من مدينة الموصل[٧٧].

**٢- الموقع الجغرافي:**

مدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسعة، تتبعها عدة قلاع وضياع ، وهي بين الزابين. تعد من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين. تبعد عن بغداد مسيرة سبعة أيام. كما

(٧٣) الحيدري، عبدالباقي عبدالجبار أمين: التجديد الحضري لقلعة أربيل، (جامعة الموصل :١٩٨٥)، ص٥٨.

(٧٤) شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري (٧٢٧هـ /١٣٢٧م، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، (بطرس بورغ: ١٨٦٥م) ، ص١٩٠.

(٧٥) **عياض بن غنم** بن زهير الفهري، من قادة الفتح الإسلامي، ومن شجعان الصحابة. أسلم قبل الحديبية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ونزل الشام، وفتح بلاد الجزيرة في أيام عمر بن الخطاب، وهو أول من اجتاز الدرب إلى الروم غازيًا. وكان يقال له زاد الركب لكرمه. توفي بالشام أو بالمدينة وهو في الستين من عمره، وذلك سنة (٢٠هـ / ٦٤١م). ينظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البغدادي (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، (المدينة المنورة: ١٤٠٥ هـ)، ط ٢، ص ٤٠٨؛ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (٨٥٢هـ )، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٤١٥هـ)، ط٤،١/٦٣٠؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، أسد الغابة، دار الفكر،( بيروت :١٩٨٩م )،٤/ ٣١٥.

(٧٦) البلاذري، فتوح البلدان، ١٧٢/١.

(٧٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ١٣٨. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر، (دمشق:١٩٨٧م)، ط٤،١/ ٣٦٧.

ويحدد ياقوت الحموي جغرافية أربل من حيث الطول والعرض، حيث قال: وطول أربل تسع وستون درجة ونصف، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف وثلث[٧٨].

**٣- وصف المدينة:**

أشار إليها في مواقف عدة بأنها غير طيبة المستقر، ولا نعلم سبب حكمه هذا على مدينة أربل. فنجد ياقوت استخدم الشواهد الشعرية لذلك الوصف، من ذلك ما ذكره من شعر أنوشروان البغدادي، المعروف بشيطان العراق الضرير، حيث يصف النزول بها بأنه زلة شيطان، فقال :

تباً لشيطاني وما سولا  لأنه أنزلني أربلا
نزلتها في يوم نحس، فما  شككت أني نازل كربلا
وقلت ما أخطأ الذي مثلا  بأربل، إذ قال بيت الخلا
هذا وفي البازار قوم إذا  عاينتهم عاينت أهل البلا [٧٩]

كما ذكر ياقوت أبيات شعرية بذلك المعنى، عند ذكره بيت النار[٨٠]، حيث قال: أنشدني عبد الرحمن بن المستخف لنفسه فيها، فقال:

أربل دار الفسق حقاً، فلا  يعتمد العاقل تعزيزها
لو لم تكن دار فسوق لما  أصبح بيت النار دهليزها[٨١]

**٤- قلعة أربل:**

يصف ياقوت الحموي قلعة أربل فيقول: "وأربل قلعة حصينة ومدينة كبيرة على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس، لقلعتها خندق عميق، وهي من طرفي المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة. وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية، وجامع للصلاة"[٨٢].

(٧٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١١٦/١-١١٧.
(٧٩) نفسه، ١١٧/١.
(٨٠) قرية كبيرة من قرى إربل من جهة الموصل، بينها وبين إربل ثمانية أميال. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان،٤١١/١.
(٨١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤١١/١ .
(٨٢) نفسه، ١١٦/١-١١٧

ويذكر ياقوت الحموي: وفي ربض هذه القعلة في عصـــــــرنا هذا مدينة كبيرة عريضــة طويلة، قام بعمارتها وبناء سـورها وعمارة أسـواقها وقيسـارياتها الأمير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك علي[٨٣]، فأقام بها، وقامت بمقامه بها لها سوق[٨٤].

**٥- سكان المدينة وأعلامها:**

يصف ياقوت سكان المدينة، وطبائع أهلها، بقوله: "فبنيانها، وطباعها، بالقرى أشبه منها بالمدن، وأكثر أهلها أكراد قد اسـتعربوا، وجميع رسـاتيقها وفلاحيها وما ينضـاف إليها أكراد". ويتكلم عن دور الأمير مظفر الدين كوكبري في بناء المدينة وازدهارها، فيذكر أنه قام بعمارتها، وبناء سورها، وعمارة أسواقها وقيسارياتها، فأقام بها وقامت بمقامه. ويصف في معجمه شـهامة وهيبة الأمير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك علي أمير أربل، فيقول: وصار له هيبة، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثرة تجربته حتى هابوه، فانحفظ بذلك أطرافه، وقصدها الغرباء، وقطنها كثير منهم، حتى صارت مصـراً كبيراً من الأمصار.

وتبرز الدقة والحيوية في مشـــاهدات ووصـــف ياقوت، عندما أبرز الجانب الســـلبي والإيجابي في حكم الأمير مظفر الدين كوكبري أمير أربل، وهذا ما يميزه عن بعض البلدانيين في الحقب السابقة، عندما أبرزوا الجانب الإيجابي في حكمه فقط، حيث يقول: "وطباع هذا

(٨٣) **الملك المعظم** مظفر الدين أبو ســـعيد كوكبري بن علي بن بكتكين بن محمد التركماني، صـــاحب إربل، ولد بإربل سـنة (٥٤٩هـ /١١٥٤م)، توفي والده وهو صـغير السـن، فتولى إمارة إربل أخاه زين الدين يوسـف، تولى رعايته أتابكه: مجاهد الدين قيماز، الذي كان له دور كبير في تنشـئته، اتصـل بخدمة السـلطان صـلاح الدين، وغزا معه، وزوجه بأخته ربيعة، وأظهر مظفر الدين شـجاعة كبيرة يوم حطين، وكان أخوه صـــاحب إربل، قد قدم على صـــلاح الدين للنجدة، فأصـــابه المرض ومات، فأصبح مظفر الـــدين بدلاً عن أخيه حاكماً على إربل وشهرزور، عرف عنه أنه كان محباً للصدقة، بنى داراً للنسـاء، وداراً للأيتام، وداراً للقطاء، ورتب بها المراضع. وكان يدور على مرضى البيمارسـتان، وله دار ينزلها كل وارد، ويعطي كل ما ينبغي له، وبنى مدرسـة للشـافعية والحنفية، وبنى للصـوفية رباطين، وكان يمنع دخول الخمر الى المدينة، وكان في كل سنة يفتّك أسـرى من العدو، ويخرج سبيلاً للحج، ويبعث للمجاورين بخمســـة آلاف دينار، وأجرى الماء إلى عرفات، كانت وفاته ليلة الجمعة، رابع عشـر رمضان، سنة (٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، وحمل مع الحجاج إلى مكة، فاتفق أن الوفد رجعوا تلك السنة لشح الماء، فدفن بالكوفة عن عمر٨٢ سنة. ينظر: الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢٢/ ٣٣٤. ابن العبري، أبو الفرج يوحنا بن هارون بن توما الملطي، (ت ٦٨٥هـــ/ ١٢٨٦م)، تاريخ مختصـــر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، ط٣، دار الشرق، (بيروت: ١٩٩٢ م)،١/ ٢٤٩.

(٨٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ١١٦/١-١١٧

الأمير مختلفة متضـــادة، فإنه كثير الظلم، عســـوف بالرعية، راغب في أخذ الأموال من غير وجهها، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء، كثير الصدقات على الغرباء، يسير الأموال الجمة الوافرة يستفك بها الأسارى من أيدي الكفار"[٨٥].

وعند إشارته إلى قرية (باكلبا)، ذكر الفقيه أبو عبد الله الحسين بن شـرون بن أبي بشـــــر الجلالي الباكلبي: وهو شاب فاضل مناظر، والجلالي نسبة إلى قبيلة من الأكراد[٨٦]، ودخلتها فلم أر فيها من ينسـب إلى فضـل، غير أبي البركات المبارك بن أحمد بن المبارك[٨٧]. ويمدح الرئيس مجد الدين داود بن محمد، وينقل عنه الشعر، ومن ذلك:

قد تاب شيطاني، وقد قال لـي ... لا عدت أهجو بعدها أربلا
كيف وقد عاينت في صدرها ... صدراً رئيساً سيداً مـقـبـلا
مولاي مجد الدين يا مـاجـداً ... شرفـه الـلـه وقـد خـولا
عبدك نوشروان في شـعـره ... ما زال للطيبة مستـعـمـلا
لولاك ما زارت ربـا أربل ... أشـعـاره قـط ولا عـولا
ولو تلقـاك بـهـا لـم يقـل ... تباً لشيطـانـي ومـا سـولا
هذا وفـي بـيتـي سـت، إذا ... أبصـرها غيري انثنى أحـولا [٨٨]

كما قدم ياقوت إشارات إلى مجموعة من علماء أربل، وريفها، منهم: ابن المستوفي[٨٩]، حيث قال: رأيت من أهل الفضـــل بأربل: أبي البركات المبارك بن أحمد بن المبارك بن

(٨٥) نفسه ،١١٦/١-١١٧.
(٨٦) نفسه، ٢٦٢/١ .
(٨٧) نفسه، ١١٦/١-١١٧.
(٨٨) نفسه، ١١٧/١.
(٨٩) ابن المستوفي شـرف الدين أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، الملقب شـــــرف الدين، المعروف بابن المستوفي الإربلي، ولد بإربل في سنة أربع وستين وخمس مئة، كان واسع الكرم، لم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلا وبادر إلى زيارته، وحمل إليه ما يليق بحاله، كان عارفاً بعدّة فنون، منها الحديث وعلومه، وأســـماء رجاله. وكان ماهراً في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان وأشـــعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها، وجمع لإربل تاريخاً في أربع مجلدات، وقد احلت عليه في هذا الكتاب في مواضع عديدة، وله كتاب النظام في شـرح شعر المتنبي، وأبي تمام في عشـر مجلدات، وكتاب إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل في مجلدين، تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشـري في المفصل، وله كتاب سـر الصنعة، وله كتاب سماه أبا قماش، جمع فيه أدباً كثيراً ونوادر وغيرها توفي في خامس

موهوب بن غنيمة بن غالب، يعرف بالمستوفي، فإنه متحقق بالأدب، محب لأهله، مفضل عليهم، وله دين واتصال بالسلطان، وخلة شبيهة بالوزارة، وقد سمع الحديث الكثير ممن تدل عليهم أربل، وألّف كتباً، وقد أنشدني من شعره، وكتب لي بخطه عدة قطع.

كما وذكر مجموعة أخرى من علماء أربل من أهل العلم والحديث، منهم: أبو أحمد القاسم بن المظفر الشهرزوري الشيباني الأربلي[٩٠]، وغيره[٩١].

**٦- مصادر المياه والزراعة:**

أ – مصادر المياه:

يذكر ياقوت أن مدينة أربل لا يوجد بها نهر جارٍ على وجه الأرض، لذا يعتمد سكانها على الآبار المنتشرة كمصدر لشرب الماء، فيقول: وشربهم من آبارهم العذبة الطيبة المريئة، التي لا فرق بين مائها وماء دجلة في العذوبة والخفة"[٩٢].

كما يتحدث عن نهر الزابيان وقوسان، ويقال للنهرين من قرب أربل الزابيان، وقد ذكرهما عبيد الله بن قيس الرقيات[٩٣]، فيصف الزاب الأعلى وصفاً دقيقاً بقوله: ينحدر إلى واد، وهو شديد الحمرة، ويجري في جبال وأودية وحزونة، وكلما جرى صفا قليلاً حتى يصير في ضيعة كانت لزيد بن عمران أخي خالد بن عمران الموصلي. ويذكر وصف الزاب الأسفل: وأما الزاب الأسفل، فمخرجه من جبال السلق ما بين شهرزور وأذربيجان، ثم يمر إلى ما بين دقوقا وأربل، وبينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة، ثم يمتد حتى يفيض في دجلة[٩٤].

---

المحرم سنة سبع وثلاثين وست مئة. ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٤ /١٤٧.الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢٣ /٤٩، ٥٠، ٥٢.

(٩٠) القاسم الشهرزوري: هو أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري الموصلي، ولد سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م)، سكن إربل، وزار بغداد غير مرة، وحدث بها، وكان من أهل العلم والفضل، وسمع الحديث الكثير. توفي ببغداد في جمادى الآخرة من سنة (٥٣٨هـ/١١٤٣م)، ودفن بمقبرة باب بيرز . ينظر: ابن المستوفي، تاريخ إربل، ١ /٢٠١،٢٠٢.

(٩١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/١١٦- ١١٧ .

(٩٢) نفسه، ١/١١٦-١١٧.

(٩٣) نفسه، ٢/٤٦٣.

(٩٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/٢٦١، ٢٦٢.

ب- الزراعة في أربل:

يتكلم ياقوت الحموي عن الزراعة في مدينة أربل، ويشـــير إلى قلة الزراعة بها، فيقول: وليس حولها بســـتان، ولا فيها نهر جار على وجه الأرض، وأكثر زروعها على القنى المستنبطة تحت الأرض، وفواكهها تجلب من جبال تجاورها[٩٥].

**٧- أعمال أربل وقلاعها:**

تتبع مدينة أربل العديد من النواحي والقرى، ذكرها ياقوت الحموي، وهي على النحو الآتي:

١- قرية تل هفتون: بليدة من نواحي أربل، تنزلها القوافل في اليوم الثاني من أربل، لمن يريد أذربيجان، وهي في وسط الجبال، وفيها سوق حسنة، وخيرات واسعة، وإلى جانبها تل عالٍ عليه أكثر بيوت أهلها، يظن أنه قلعة، وبه نهر جار، وأهله كلهم أكراد، رأيته غير مرة[٩٦].

٢- قرية حزة: وحزة أيضاً بليدة قرب أربل. ينسب إليها النصافي الحزية، وهي ثياب قطن رديئة، وهي كانت قصبة كورة أربل قبل[٩٧].

٤- قرية والدشـــت: وصـــفها بأنها بليدة في وســـط الجبال بين أربل وتبريز، رأيتها عامرة، كثيرة الخير، أهلها كلهم أكراد[٩٨].

٥- كرخيني: هي قلعة في وطاء من الأرض، حســـنة، حصـــينة، بين دقوقا وأربل، رأيتها وهي على تل عال، ولها ربض صغير[٩٩].

٦- خفتيان: قلعتان عظيمتان من أعمال أربل. إحداهما على طريق مراغة، يقال لها خفتيان الزرزاري على رأس جبل، من تحتها نهر عظيم جار، وســـوق، وواد عظيم. والأخرى خفتيان ســرخاب بن بدر، في طريق شهرزور من أربل، وهي أعظم من تلك وأفخم[١٠٠].

(٩٥) نفسه، ١١٦/١-١١٧.

(٩٦) نفسه، ٤٥٥/١ .

(٩٧) نفسه، ١٤٦/٢ .

(٩٨) نفسه، ٣٠١/٢ .

(٩٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٢٩/١؛ ابن عبد الحق البغدادي ، مراصد الاطلاع، ٣/ ١١٥٧.

(١٠٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٤١/٢ .

شـــاقرد وتينها: قرية كبيرة بين دقوقاء[١٠١] وأربل، فيها قليعة، وبها تين لا يوجد مثله في غيرها[١٠٢].

ويصـف شـقلاباذ (شـقلاوة حالياً) بقوله: قرية كبيرة، مليحة، في لحف الجبل المطل على أربل، ذات كروم كثيرة، وبســـاتين وافرة، ينقل عنبها إلى أربل العام بطوله، فيكفيهم. بينها وبين أربل ثمانية فراسخ[١٠٣].

وذكر الدشـت أيضـاً، وقال: بليدة في وسـط الجبال قرب أربل، رأيتها عامرة، كثيرة الخير، أهلها كلهم أكراد[١٠٤]. وعند ذكره (تل هفتون)[١٠٥] قال: وأهله كلهم أكراد، رأيته غير مرة.

و ذكر ياقوت (دير الجب)، وقال: دير في شـــــرقي الموصـل، بينها وبين أربل. مشـهور يقصده الناس لأجل الصـرع، فيبرأ منه بذلك كثير[١٠٦].

وأشار إلى (أشنة)، حيث يصفها : بأنها ذات بساتين، وفيها كمثرى يفضل على غيره، يحمل إلى جميع ما يجاورها من النواحي[١٠٧].

وعند إيراده مادة (كفر عزا) قال: قرية من قرى أربل، بينها وبين الزاب الأسـفل. ينسـب إليها قاضي أربل[١٠٨]. وعند حديثه عن (باكلبا)، أشـار إلى أحد علمائها، وقال: منها صـديقنا الفقيه أبو عبد الله الحسين بن شـرون بن أبي بشـر الجلالي الباكلبي، تفقه للشافعي، وأعاد في عدة مدارس في الموصل وحلب، وسمع الحديث من جماعة، وهو شاب فاضل مناظر[١٠٩].

ومن جهة أخرى، فإن ضـــخامة مادة المعجم قد جعلت بعض مواده البلدانية المتعلقة بأربل يتسم بالاقتضاب، وينقصه الوضوح، فضلاً عن أن دقته في مادته المعجمية لم تمنعه من الوقوع في بعض الأخطاء في تحديد بعض البلدايات: فعلى ســـبيل المثال قال عن

(١٠١) دقوقا : مدينة بين إربل وبغداد. ينظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع ، ٢/ ٥٣٠١٠٦.
(١٠٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١١٥/٣.
(١٠٣) نفسه، ١٥٠/٣.
(١٠٤) نفسه، ٣٠١/٢.
(١٠٥) نفسه، ٤٥٥/١.
(١٠٦) نفسه، ٣٧٧/٢.
(١٠٧) نفسه، ١٦٤/١.
(١٠٨) نفسه، ١٤٥/٤.
(١٠٩) نفسه، ٢٦١/١.

كفر عزا : ناحية من أعمال الموصل[١١٠]، وقوله عن حزة: بليدة قرب أربل من أرض الموصل، وهما موضع واحد كان تابعاً لأربل في أيام ياقوت الحموي[١١١].

**الخاتمة:**

- حفظ لنا ياقوت الحموي من خلال معجمه مادة هامة عن مدينة أربل، تناولت العديد من الجوانب الجغرافية والتاريخية والأدبية.

- مما ميز المعلومات التي قدمها لنا ياقوت الحموي عن مدينة أربل، أن معلوماته جاءت من خلال المشاهدة الحية للمدينة التي زارها ووصف معالمها وشاهد قراها وبلداتها، وهذا ما جعل مادتها تتسم بالدقة والوضوح.

- قدم لنا ياقوت الحموي جوانب متعددة لمدينة أربل، من حيث الكلام عن المسافات الجغرافية التي تفصلها عن المدن المجاورة ومواضعها وجبالها وأنهارها وأوديتها، لذا جاءت مادته عن أربل جامعة بين مشاهداته وملاحظاته وسماعاته.

- ترك لنا معلومات مفيدة عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية وأعلامها وعلمائها❐

(١١٠) نفسه، ١٤٥/٤.

(١١١) نفسه، ١٤٦/٢.

# ضـرار بن عمرو الغطفاني
# المتكلِّم المجهول

آزاد قزاز – هولندا

**تمهيد**

ضـــــرار بن عمرو الغطفاني شخصية تعود بنا إلى القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)؛ زمن كان حافلاً بالأفكار المختلفة والآراء الخصـــبة، فترة في تاريخ الفكر الإســـلامي جديرة بالدراسة والقراءة والتأمل فيها. إن قراءة مثل هذه الشخصيات المؤثرة في عصـرها، والمجهولة في عصـرنا، من جديد، بناء على معطيات عصـرنا، أصبحت اليوم أمراً ملحاً، لنعرف ماذا جرى في العصـر الأول من التاريخ الإسلامي.

ضـــــرار الشخصية المنتجة لبعض الأفكار والآراء الخصبة في زمنه، والمؤسس لمذهب كلامي في صـدر العصـــــــر العباسي، حري بنا أن نعود إليه ونداوله بيننا من جديد لمعرفة الحلقة المفقودة من سلسلة الفكر الإسلامي، والتي أثرت على أفكار المتكلمين فيما بعد.

لم يصدر – حسب علمي - أي كتاب، أو حتى بحث مفصل، باللغة العربية، حول ضـرار حتى الآن. جلّ الذين كتبوا عن ضـرار باحثون غربيون؛ مثل (فان أس) و(كورنليا شكاك). كتب (فان أس) عدة مقالات عن ضـرار، وخصص له جزءاً يسيراً من كتابه الضخم المعروف (علم الكلام في المجتمع الإسلامي)، المتكون من ستة مجلدات، باللغة الألمانية. أما (كورنليا شكاك)، فقد كتب مقالة عن ضـرار في (موسوعة علم الكلام الإسلامي)، تحت عنوان (جهم بن صفوان وضـرار بن عمر). أما الكُتاب العرب، أو المسلمون، عموماً، فلم يكتبوا عن ضـرار إلا فقرات

أو فصولاً يسيرة في كتبهم. مثلاً الكاتب العراقي (رشيد الخيون) كتب فصلاً موجزاً في كتابه (معتزلة البصرة وبغداد) عن حياة ضـرار وآرائه الكلامية، والذي قمتُ بترجمته إلى اللغة الإنكليزية.

العثور قبل عدة سنوات، في أحد مساجد (اليمن)، على نسخة من كتاب يعود إلى ضـرار بن عمر، دفع ببعض الكتاب العرب والغربيين إلى كتابة شـروح وتحليلات عن هذا الكتاب المسمى (كتاب التحريش والإغراء)[١]. عدا ذلك لم أعلم إن كان هناك من كتب عن ضـرار وأفكاره وآرائه.

شحة المصادر وقلة المعلومات عن ضـرار، وضياع كل كتبه السبعة والخمسين، إلا كتاباً واحداً (التحريش)، يجعل من الصعوبة بمكان الكتابة عنه.

هذه الدراسة التي بين يديك مستلة بشكل ملخص من بحث للدكتوراه قدم إلى (جامعة لوفن)، في (بلجيكا)، تحت إشـراف الأستاذ الدكتور (جون نواس). دراسة تقدم لمحة سـريعة عن حياة ضـرار، وبيئته التي نشأ فيها، والأفكار التي تبلورت في زمنه، إن كانت فلسفية أو دينية. ولكن بسبب ضياع كتبه، وشحة المصادر - كما قلت آنفاً - من المؤسف أن أقول هنا، إننا لا يمكننا أن نصوغ فكر ضـرار وفلسفته بشكل يفي بالغرض. ولهذا، خصصت هذه الدراسة لجانب من فكر ضـرار ومذهبه، والتي تسببت من ثم في إبعاده عن دائرة المعتزلة، كما قيل.

قبل الخوض في فكر ومذهب ضـرار، نقدم موجزًا حول البيئة الثقافية والسياسية التي وُلد وعاش فيها ضـرار، كي نصل إلى الخلفية التي انبعثت منها أفكاره وآراؤه الدينية والسياسية والفلسفية، والتي أدت بخصومه إلى أن يعتبروه من المجبرة.

### بيئة ضـرار الثقافية والسياسية:

ذكرت سنة ولادة ضـرار، ووفاته، من قبل بعض المؤرخين والكتّاب المسلمين[٢] ولكن بشكل

---

١- يعتبر هذا الكتاب أقدم كتاب في مجال معرفة الطوائف الإسلامية وعقائدهم، والذي يصور لنا فيه صـراع تلك الطوائف فيما بينها، في زمن مبكر جداً في تاريخ الفكر الإسلامي. ومن الأهمية بمكان أن نتطلع فيه، وندرك حجم الكارثة التي كانت الأمة الإسلامية تعاني منها، والتي دفعت بضـرار أن يكتب (التحريش والإغراء) من أجل إنذار المسلمين وإيجاد الحلول اللازمة.

٢- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ت. عبدالمجيد الترحيني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ٨:١٤٠؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ت. عبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف،؟)،٢٤٩؛ الجاحظ، الحيوان، ت .عبدالسلام هارون (مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦)، ٤:١٣٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ,ت. أحمد الأرناؤوط وتركي

متفاوت وغير دقيق، لذا علينا الاستنتاج من خلال قراءة المصادر التي ذكرت ضـراراً، كي نصل إلى معلومات قريبة نسبياً إلى تاريخ ولادة ضـرار أو وفاته. وقد توصلنا بعد قراءة تلك المصادر والتمحيص والتحقيق، إلى استنتاج غير حتمي بأن ضـراراً قد عاش بين ثمانين وتسعين عاماً. يقول ابن عبد ربه إنه عاش سبعين عاماً، فيما يقول وابن حزم والجاحظ إنه عاش تسعين عاماً، أما حسب ما رواه الصفدي فإن ضـراراً قد عاش ١١٨ أو ١٢٠ عاماً، وهو ما يصعب تصديقه. في كل الأحوال، النتيجة التي توصلت إليها بشكل تقريبي، أن ضـراراً ولد في سنة (١١٠ أو ١١٢ هجري) (٧٢٨ أو ٧٣١ ميلادي) في (الكوفة)، ومات ما بين (١٩٠ أو ٢٠٠) هجري (٨٠٥ أو ٨١٥ ميلادي) في (بغداد).

اسمه الكامل أبو عمرو ضـرار بن عمرو الغطفاني الكوفي. سلفه يعود إلى أحد أصحاب الرسول، كان يسمى عبد العزى. بعد أن التقى هذا الصحابي بالرسول، غيّر اسمه من عبد العزى إلى عبد الله. جدّه الأكبر اسمه عقبة بن وهب، الذي شارك الرسول في معاهدة العقبة الثانية. ابن حزم يقول إن عقبة هذا كان أحد أبناء عبد الله بن غطفان، الذي كان يعيش في (المدينة). وضـرار عربي الأصل، ينتمي إلى قبيلة غطفان، الذين استقروا في (الكوفة).

قيل إن ضـرار كان قاضياً، ولكن لم يذكر أيّ من هؤلاء الذين كتبوا عنه أين ومتى كان ضـرار يعمل قاضياً. ويبدو أن أفكاره لم تقبل لا بين القضاة، ولا بين المتكلمين الذين جاءوا من بعده، لذا لم يهتموا به، ولم يذكروه بشكل واف، وأصبح في طيّ النسيان[٣].

كان ضـرار لم يزل بعد شاباً عندما زار مدينة (البصرة)، حوالي عام ١٣١/ ٧٤٩، ليلتقي هناك بـ واصل بن عطاء. وكما قيل، فقد تعلم من واصل الاعتزال، لا سيما مبدأ (المنزلة بين المنزلتين). ولم تدم صلة ضـرار بأستاذه واصل، بسبب وفاة واصل بعد أقل من عام من وصول ضـرار إلى البصـرة.

---

مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ١٦:٢١٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ت. عمر عبدالسلام (بيروت: دار الكتاب العربي،(١٩٩٠، ١٢:١٩٢؛ رشيد خيون، معتزلة البصرة وبغداد (لندن: دار الحكمة،١٩٩٧)، ٣١٠؛

Josef van Ess, *Theology and Society,* ٣: ٣٥; C. Schöck, "Jahm b. Ṣafwān (d. ١٢٨/٧٤٥-٦) and the 'Jahmiyya' and Ḍirār b. ʿAmr (d. ٢٠٠/٨١٥)," *The Oxford Handbook of Islamic Theology,* ed. S. Sabine (Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٦), ٥٥-٨٠.

[٣] Van Ess, *Theology and Society,* ٣:٣٦؛

وكيع، أخبار القضاة، الأجزاء ١،٢،٣، ت. سعيد اللحام (بيروت: عالم الكتب،؟).

أصبح ضـرار مشهوراً في (البصـرة)، وصار يُدرّس علم الكلام، واستمر في التدريس إلى أن أصبح أحد أركان علم الكلام هناك.

في عام ١٧٠/ ٧٨٨ غادر ضـرار البصرة ليسافر إلى بغداد، وترك قيادة علم الكلام لغيره، لينضم إلى هؤلاء العلماء في بغداد الذين تجمعوا في بيت البرامكة، مثل العالم الشيعي (هشام بن الحكم ت ١٧٩/ ٧٩٦)، والزيدي (سليمان بن جرير ت.؟)، و(عبد الله بن يزيد الأباضي ت.؟)، و(إبراهيم النظام ت.٢٢١/ ٨٣٦) المعتزلي، وغيرهم من العلماء والمتكلمين الذين كانوا يلتقون في بيت البرامكة للنقاش والحوار في عديد من القضايا الفكرية والدينية والسياسية[٤].

وكما يبدو، فإن ضـرار قضى حياته بين الكوفة والبصرة وبغداد. ولأجل أن نتعرف على بيئته التي عاش فيها، ونفهم السياق الذي نشأ فيه، وبناءً على خلفيته المعرفية، نفهم لماذا كان يُكفّر ويُزندق، ولماذا لُقّب بالشعوبيّ والناصبيّ، من قبل خصومه.. لأجل هذا الغرض، علينا أن نعود إلى تلك الحقبة من التاريخ، وإبراز بعض الأحداث السياسية والثقافية في تلك الحقبة بإيجاز، ومن ثم نلتقي بضـرار هناك.

أول مدينة نحط فيها رحالنا هي الكوفة التي وُلد فيها ضـرار، ومن ثم نذهب إلى البصرة وبغداد، المدينتان اللتان قضى ضـرار عقوداً من عمره فيهما. مدينتان كانتا مراكز للعلم والثقافة، ومكاناً لتلاقح الأفكار والآراء، ونقطة لانطلاق الحوارات والمناظرات الكلامية والفلسفية والسياسية[٥].

قيل إن ضـرار أصبح متأثراً ببعض أفكار واصل المعتزلي، مثل (المنزلة بين المنزلتين)، حينما كان في (البصرة)، قبل أن تظهر المعتزلة كمدرسة راسخة البنيان. وقيل أيضاً: كما أن الفكر الاعتزالي، في ذلك الوقت، كان منتشـراً تحت اسم واصل (المعروف بالواصلية)، فإن الفكر الضـراري، كان كذلك منتشراً، تحت اسم ضـرار (المعروف بالضـرارية)[٦].

يؤكد الحاكم الجشمي هذه الرواية حين يقول: إن الذين انشقوا عن المعتزلة، مثل ضـرار وحفص الفرد، هما نشآ على فكر الاعتزال، ولكن لأنهم كانوا يتشوقون إلى موقع الريادة

---

٤ Van Ess, *Theology and Society,* ٣:٣٥؛

الذهبي، سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢)، ٨: ٢٠٩-٢١٠.

٥ Van Ess, "Ḍirār b. ʿAmr," *EI*٢; Van Ess, *Theology and Society,* ٣:٣٥.

٦ Van Ess, "Ḍirār b. ʿAmr," *EI*٢;

خيون، معتزلة البصرة و بغداد،٣٠٩ .

والقيادة، صارا من (المجبرة)، التي أدت بهم إلى الانفصال عن المعتزلة. يؤكد الجشمي ذلك قائلاً إن ضـرار وحفص بعد أن طُرِدا من المعتزلة، بنيا مدرستهم الخاصة بهما، لأنهما أرادا أصلاً الريادة والقيادة والحصول على المكانة العالية[٧].

إضافة إلى ذلك، يقول القاضي عبد الجبّار: إن ضـرار لم يكن يوماً أحد أعضاء المعتزلة، بل إن ضـرار في بداية أمره كان جهمياً، وليس معتزلياً:

"ولما كثر (الخوارج)، وطائفة من المرجئة، وقوم غلوا في التشيع، في أيام واصل بن عطاء، أخذ واصل في الرد عليهم، وفي الرد على الجهم بن صفوان، وكان جملة من يختلف إليه ويأخذ عنه ضـرار بن عمرو. ثم خذل من بعد واعتقد الجبر. ومنه نشأ هذا المذهب، وفشا في الناس، فصنف وصنف أصحابه"[٨].

استناداً إلى عناوين كتب ضـرار الست والخمسون الضائعة[٩]، واعتماداً على الكتاب الوحيد المتبقي (التحريش)، ندرك أن ضـرار كان محاطاً بالكثير من الحركات السياسية والثقافية، وحاضـراً بين كثير من القضايا الاجتماعية والدينية، بالإضافة إلى انخراطه في المسائل الكلامية والفلسفية.

يتبين لنا مما سبق أن الظروف التي وجد ضـرار نفسه فيها، دفعته أن يشارك في ذلك الحوار والنقاش حول المسائل والقضايا مع الأفراد الذين كانوا يمثلون تلك الحركات. والطوائف الرئيسية المعروفة في ذلك الوقت كانت: الخوارج، الشيعة، المرجئة، (أصحاب سنة وجماعة)(نكرة)، أصحاب الحديث، والمعتزلة. ولم يواجه ضـرار تلك الجماعات والطوائف الإسلامية فقط، بل هو واجه أيضاً الفلسفة اليونانية، والدين المسيحي، واليهودي، والأديان الأخرى الموجودة في تلك الفترة[١٠].

ومن الجدير بالملاحظة، أن المعتزلة لم يكونوا في ذلك الزمن في الطليعة، كما يبدو من أول وهلة. فظهور المعتزلة كحركة مؤثرة في ذلك الوقت لم يحدث بين ليلة وضحاها، بل استغرق وقتاً لا بأس به. ففي بداية الأمر لم يعتبر الخلفاء العباسيون هؤلاء المعتزلة شيئاً يذكر، بل كانوا ينظرون إليهم ككلاب حراسة ضد الزنادقة. حتى أن هؤلاء المعتزلة لم يكونوا مدعوين إلى حلقات البرامكة للحوار والنقاش بين العلماء والمفكرين آنذاك، في حين كان

٧- عبدالجبار، البلخي، الحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة, ت. فؤاد السيد (تونس: دار التونسية، ؟)، ٣٩١.

٨- نفس المصدر، ١٦٣.

٩- أسماء الكتب ثبتت في المرفق ١.

١٠ Van Ess, *Theology and Society*, ٤:٨١٤-٨١٦.

ضـرار من أبرز الموجودين في تلك الحلقات. وكان البرامكة يرغبون في إحضار المتكلمين والعلماء ذائعيّ الصيت من أهل الكوفة في تلك الحلقات[١١]. وقد برزت أهمية حركة المعتزلة وجدارة أفكارهم، في زمن خلافة هارون الرشيد، وأصبحوا موضه اهتمامه، إلى أن قربهم إلى قصـر خلافته. ولكن ضـرار، في ذلك الوقت، كان إما متوفى، أو شيخاً مريضاً راقداً على فراش الموت.

الثراء الفكري والعلمي في تلك الفترة، والجدل الكلامي الذي كان يدور بين العلماء والمتكلمين، كان فرصة مهمة كي يمارسوا أسلوب الحوار وطرق الجدل، ويتعلموا منها، ويضعوا منهجاً ويلتزموا به[١٢]. وكما قيل، فإن ضـراراً حاور هشام بن الحكم وآخرين في تلك الفترة، وهو كذلك حرر كتابين في هذا الموضوع (كتاب آداب المتكلمين) و(اختلاف الناس وإثبات الحجة)[١٣].

إن لقاء المتكلمين، من مختلف الفصائل، في قاعة المجالس البرمكية، والفضاء الثقافي الجديد الذي تشكل في بغداد، أدى إلى تغيرات الجذرية في مكانة وأهمية المدن الثلاث (الكوفة، البصرة، وبغداد). فبدأ فضاء البصرة والكوفة الثقافي يعاني من الفقر الفكري والعلمي. أما بغداد، فقد بدأت تنتعش لتكون مركزاً بارزاً للحوار الثقافي[١٤]. ويبدو أن هذا التحول في مكانة بغداد الثقافية، كان أحد الأسباب المهمة التي دفعت ضـرار ليذهب إلى بغداد.

في بغداد ظهر اتجاهان بارزان، متضادان تماماً، وهما المحدّثون أو أصحاب الحديث، والمتكلمون أو أصحاب الكلام. التنافس بين الاتجاهين كان يشتدّ يوماً بعد يوم، بحيث بدأ كل من المحدّثين والمتكلّمين يتزاحمون على التقرب والتزلف إلى الخلفاء. بعد عقود من الشد و الجذب، أصبح منهج الكلام مقبولاً ومرغوباً عند بعض الخلفاء العباسيين، وأدى في النهاية إلى نجاح المعتزلة، ونُصِرت عقيدتهم من قبل الخليفة المأمون. وأصبح لسان حال الوضع السياسي والاجتماعي يقول: من لم يؤمن بالله كما آمن به المعتزلة أصابته المحنة، كما حدث لأحمد بن حنبل وغيره من العلماء[١٥].

إذاً، بغداد أصبحت مركزاً مهماً للنقاش والجدال والحوار في كل موضوع كان يمكن أن يأتي على البال. يقول الباحث (باول هيك)، واصفاً الحالة الاجتماعية والسياسية والكلامية في

---

[١١] Van Ess, *Theology and Society,* ٣:٣٤.

[١٢] Ibid., ٣٣.

[١٣] Van Ess, *Theology and Society,* trans. John O'Kane (Leiden: Brill, ٢٠١٧), ١:٤١١.

[١٤] Van Ess, *Theology and Society,* ٣:٣٢.

[١٥] Ibid.

بغداد: إن التحدث حول معنى للحياة كانت مسألة طاغية على الناس في ذلك الحين. الناس في مساجدهم للعبادة، في بيوتهم مع أصدقائهم، في السوق عند شراء حاجاتهم، أو أثناء عملهم، كانوا منشغلين بطرح آرائهم ووجهات نظرهم المتنوعة والمختلفة حول عدد لا يحصى من المواضيع السياسية والدينية، وحتى العرقية[١٦].

بالإضافة إلى ما قيل حول بغداد، يقال كذلك إن العلوم الإغريقية، وفلسفتها، انتشرت في المجتمع الإسلامي، حتى قبل إنشاء الخلافة العباسية، عن طريق ترجمة مصادرهم إلى العربية. كذلك كان تعليم الفلسفة الهيلينية يجري من قبل الساسانيين في العراق، واستمر تعليم تلك الفلسفة حتى تحت إمرة المسلمين في العراق. وإلى جانب الهيلينية، فقد جذبت تعاليم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة المسلمين، لأن تعاليمها قريبة إلى الفكرة الوحدانية التي يدعو إليها القرآن.

ومن أوائل المتكلمين الذين برزوا في فترة خلافة هارون الرشيد (١٩٤/ ٨٠٩) - كما يقول (مونتغمري وات) - هما ضرار بن عمرو، وهشام بن الحكم[١٧]. يقول (وات): كان هناك متكلمون آخرون ينخرطون في المواضيع الكلامية، ولم يكونوا مع هذا لا من الضرارية، ولا من المعتزلة[١٨]، واصفاً إياهم بالمهتمين جداً بالفلسفة الهيلينية[١٩].

مما سلف، نفهم أن النصف الثاني من القرن الثامن، والنصف الأول من القرن التاسع، كان فترة متميزة، حيث برز فيها علماء ومتكلمون كانوا يتداولون في كلامهم طبيعة وجود الله، مستخدمين تصورهم لله دون الرجوع إلى النصوص؛ إن كان نصاً من القرآن أو الحديث. وكما قيل، فإن هذا التحول من الممكن أن يكون قد حدث تحت تأثير الفلسفة الهيلينية، إذ بدأوا يفكرون في المسائل اللاهوتية بصورة أكثر عمقاً من ذي قبل. ويبدو أنهم كانوا يبحثون عن إجابات لأسئلة مثل: هل الإنسان قادر على فعل شيء دون إرادة الله؟ ماذا تعني العبارة التي تقول إن الله وحده هو القادر الفعلي؟ والسؤال الأكثر جدلية كان يدور حول طبيعة وماهية كلام الله. أسئلتهم كانت تتطرق أيضاً إلى: القرآن حين يقرأ ويرتل، ويصبح مقروءاً

[١٦] Paul L. Heck, *Skepticism in Classical Islam: Moments of Confusion* (London: Routledge, Taylor & Francis Group, ٢٠١٤), ٢٤.

[١٧] Montgomery W. Watt, *Islamic Philosophy and Theology* (Edinburgh: University Press, ١٩٨٥), ٤٣.

[١٨] Ibid., ٣٧ ff.

[١٩] Ibid., ٤٣.

ومسموعاً، هل ذلك الصوت المسموع يظل كلاماً لله؟ هل القول بأن (القرآن إلهيٌّ) يعني أنه لم يخلق، وأنه أزلي خالد، أم أنه خُلق مثل خلقِ كل المخلوقات بفعل أمر الله (كن) ثم كان[٢٠]؟

طرح مثل هذه الأسئلة يدل على أن المتكلمين كانوا ميالين إلى استخدام عقولهم بعيداً عن النص. ضـرار كان من بين هؤلاء المتكلمين الأوائل في (البصرة)، والذي كان حاملاً لراية علم الكلام هناك قبل أن تستلم هذه الراية من قبل أبو الهذيل، عندما غادر ضـرار البصرة وسافر إلى بغداد، كما يقول عبد الرحمن الملطي، وأشـرتُ إليه سابقاً[٢١].

يستنتج (وات)، في قراءته لهذه الحقبة من التاريخ، أن مصطلح المعتزلة كان يستخدم بشكل فضفاض في بداية الأمر، وكان يطبق على أشخاص مثل ضـرار، وغيره، الذين استخدموا أفكاراً إغريقية في مناقشاتهم الكلامية. لقد المتكلمون الأوائل مهتمين جدًا بالفلسفة الهيلينية، وكانوا مطلعين على هذه المعرفة. ومع كل هذا فإن من المؤسف أن نقول إن ضـرار الذي شارك في بناء علم كلام يمكن أن يحسب على أهل السنة، لم يحظ باهتمام كبير، ولم تثمن جهوده في هذا المجال من قبل المؤرخين، وكتاب الفرق الإسلامية، لا سيما أهل السنة، بحيث بات في طي النسيان[٢٢].

عندما استقر ضـرار في بغداد، كانت حركة المعتزلة - كما يبدو - منقسمة إلى فرعين، فرع في البصرة، والآخر في بغداد. ولعل ضـرار كان هو حلقة الوصل بين المدرستين في بداية الأمر، كما يشير إلى ذلك (ريجارد)[٢٣]. وفي كل الأحوال، فإن الفكر الاعتزالي كان قد انتشـر في ذلك الزمن، ولكن المعتزلة لم تكن قد تشكلت كمدرسة ذات معالم واضحة، كما قد أسست على المبادئ الخمسة بعد وفاة ضـرار، أو في أواخر أيام حياته، في زمن هارون الرشيد[٢٤].

---

٢٠ Heck, P. L., *Skepticism in Classical Islam,* ٢٥; Watt, *Islamic Philosophy and Theology*, ٤٢.

٢١- ابن عبدالرحمن الملطي، التنبيه والرد على الأهواء والبدع، ت: محمد زينهم محمد عزب (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣)، ٣٢.

٢٢ Watt, *Islamic Philosophy and Theology*, ٤٢-٤٤.

٢٣ Richard C. Martin, Mark R. Woodward, and Dwi S. Atmaja, *Defenders of Reason in Islam: Mu ʿtazilism from Medieval School to Modern Symbol* (Oxford, England: Oneworld Publications, ١٩٩٧), ٢٧.

٢٤ Ibid.

وقد أصبح واضحاً أن معظم الأفكار الثقافية التي نشأت في الكوفة والبصرة، تحولت مع حامليها إلى بغداد، بعد أن أصبحت بغداد عاصمة للخلافة العباسية ومنبعاً لانتشار الفكر والعلم والفلسفة[٢٥].

كذلك استناداً إلى عناوين كتب ضـرار الست والخمسين الضائعة، نعلم أن ضـرار كتب عن مواضيع عدة، مثل: التوحيد الذي يتمحور حول طبيعة وجود الله، وصفاته، إرادته، وعده ووعيده، عدالته، وكيفية خلقه للمخلوقات في الزمن. العلاقة بين الإنسان وبين الله، مثل: عبادة الله، النبوة، المؤمن والكافر، المعصية، الإلحاد، الزنادقة، والمشبهة. كتاباته تتطرق أيضاً إلى الأجسام، وكيفية تركيب الكون والمادة مثل: الجسم، الجزء الذي لا يتجزأ، الجواهر والأعراض. عناوين تلك الكتب توضح لنا أن ضـرار كان ينتقد كثيراً من أفكار معاصـريه؛ سواء من الطوائف الإسلامية الموجودة، أو الأديان والأفكار الفلسفية المنتشـرة في عصـره. الطوائف الإسلامية التي تعرضت لانتقادات ضـرار كانت؛ المرجئة، الحشوية، الرافضة، الواقفية، الجهمية، الغيلانية، الأزارقة، الحداد، الخوارج، لا سيما (الفضيلية، والمحكمة)، الصوفية، المغيرية، والمنصورية. واعتقاد ضـرار بالمساواة بين المسلمين بصـرف النظر عن أصلهم ونسبهم وانتماءاتهم العرقية، جعله يكتب كتاباً سماه (المساواة).

كان ضـرار معروفاً بين المتكلمين الأوائل بأنه كان منتمياً إلى العقيدة الجبرية، وسمي (مجبرة) لإيمانه بأن كل شيء يحدث بأمر الله، حتى فعل الإنسان؛ إن كان خيراً أو شـراً. هناك بعض من المؤرخين والمتكلمين ينسبونه إلى الجبرية المعتدلة، وكذلك هناك من يعتبر أنه لا ينتمي إلى الجبرية أصلاً، لأن ضـرار كان يؤمن بقدرة الإنسان، والذي يجعله مسؤولاً أمام ما يرتكب من الأخطاء والمعاصي. وكي نفهم جبرية ضـرار من عدمها، علينا أن نعود إلى التاريخ قبل ضـرار قليلاً، وعلاقته بأفكار ضـرار ومذهب الجبرية.

لبيان تلك المسألة أقدم هنا قراءتين لهذا التاريخ: إحداهما قُدمت من قبل الشـريف المرتضى، والثانية من قبل الباحِثَيْن: (فان أس)، و (كورنيليا شكاك).

### الطريق إلى الجبرية:

علمنا أن ضـرار قد عاش في السنوات الأخيرة للحكم الأموي (٦٦١-٧٥٠)، وبداية الحكم العباسي (٧٥٠-١٢٥٨). هذه الفترة كانت مشحونة بالحركات السياسية، الاجتماعية، والثقافية، التي تعود جذورهم إلى الأحداث التي ظهرت بعد وفاة الرسول. في تلك الفترة،

٢٥- سامي علي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥)، ٣:٢١٧.

كما يبدو، كان المجتمع الإسلامي يتجاذب بين عقيدتين متناقضتين: عقيدتا الجبر والاختيار اللتان أصبحتا حركتين بارزتين ومؤثرتين في إنتاج مختلف التأويلات حول العلاقة بين إرادة الله وإرادة البشـر. عديد من الأفكار اللاهوتية أنشأت في السنوات اللاحقة على أساس تلك الحركتين، بحيث إن كل متكلم كان يقدم تفسيره الخاص في فهمه للاختيار أو الجبر[٢٦].

البحث عن أسئلة: لماذا نشأت تلك المفاهيم بعد وفاة الرسول؟ كيف تبلورت تلك العقيدتان بين الطوائف الإسلامية؟ لعلها ترشدنا إلى جذور عقيدة ضـرار فيما يتعلق بموضوع البحث.

للإجابة عن هذه الأسئلة، علينا أن نعود بالتاريخ إلى الوراء قبل ولادة ضـرار بما يقارب أكثر من نصف قرن. فبعد وفاة الرسول في عام ٦٣٢/١١، بقيت الأمة الإسلامية متماسكة نوعاً ما سياسياً واجتماعياً خلال حكم الخليفتين أبو بكر وعمر. لكن منذ حكم الخليفة الثالث (عثمان - ت ٦٥٥/٣٥)، لا سيما بعد قتله بيد بعض المسلمين المتمردين على حكمه، صدم المسلمون من هذه الكارثة، ودفعت الناس إلى طرح أسئلة حول العقيدة والإيمان، وعلاقتها بالإمامة الحقيقية[٢٧]. الحروب الأهلية التي حدثت بين المسلمين أنفسهم، واقتتال الحكام فيما بينهم، ومشاركة الصحابة في هذه الحروب، جعل المسلمين يتساءلون: هل إطاعة الإمام أو الخليفة واجب شـرعي، أم عمل سياسي؟

أصبحت الأمة المسلمة منقسمة على نفسها، بعد أن كانت متحدة ومتماسكة قبل قتل عثمان. وراء تلك الأسئلة كانت تبرز دائماً خلافة عثمان، وكيفية تطبيق حكم الإسلام إلى الواجهة بين خصومه والموالين له: هل انزلق عثمان عن جادة الصواب؟ هل كان حكمه صحيحاً شـرعياً؟ هناك من قسم حكمه، (السنوات الاثنا عشـر)، إلى نصفين: النصف الأول من حكمه، وهي ست سنوات، كانت مطابقة للشـرع، والنصف الثاني كانت خروجاً عن الشـرع.

تلك الانقسامات أثرت في تحديد مسار بعض الطوائف التي ظهرت في الفترة المبكرة في تاريخ الإسلام، مثل طائفتي الشيعة والخوارج[٢٨]. وإن كان هناك مؤيدون كثيرون من بين

---

٢٦- رشيد خيون، مذهب المعتزلة من الكلام الى الفلسفة (بيروت: دار النبوغ، ١٩٩٤)، ٢٠.

[٢٧] G. Levi Della Vida, and R.G. Khoury, "ʿUthmān b. ʿAffān," *EI٢.*

[٢٨] Bernard Lewis, "On the Quietist and Activist Traditions in Islamic Political Writing," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* ٤٩, no. ١, (February ١٩٨٦), ١٤١-١٤٧.

عامة المسلمين، ولا سيما من الأمويين بشكل واسع، والذين عرفوا فيما بعد بالعثمانيين - من الممكن أن طائفة المرجئة قد خرجت بعد ذلك من رحمهم - ولكن أول طائفة واضحة المعالم قد تشكلت بعد مقتل عثمان، كانت الخوارج، بعد عام ٤٠/ ٦٥٩، التي انفصلت عن علي ومعسكره في معركة (صفين) ضد معاوية. هذه الطائفة أول من كفّر عثمان وعلي ومعاوية، وكذلك كل خلفاء الأمويين والعباسيين، إلا أبا بكر وعمر. وقيل الخوارج هم من الأوائل الذين أثاروا أسئلة حول طبيعة العقيدة والإيمان والإسلام[٢٩]. وكما لاحظ (فان أس)، فإن وراء أسئلتهم تكمن بعض عناصر لاهوتية، بحيث تطورت بشكل أدت إلى التساؤل حول ذات الله، وصفاته، وطبيعة كلامه. هذه المسائل حينها أثيرت ونوقشت طوال القرنين الثاني والثالث الهجري بقوة، واستمرت خلال عدة قرون تالية. لذا، فإن (فان أس) يعتبر أن الخوارج كانت بيضة فقست في حينها، وخرجت منها العديد من الطوائف الكلامية[٣٠].

أما الشريف المرتضى (ت. ٤٣٦/١٠٤٤)، فيذكر أن أصل المشكلة بدأت حين بدأ المسلمون يتساءلون حول علاقة المعصية بالإيمان، مثلاً: هل المسلم الذي يقترف المعصية يصبح كافراً؟ إذا كان الله خالق كل شيء، فهل هو خالق المعصية أيضاً؟ أين هو مصدر المعصية: هل هو الله أم الإنسان؟ كان هناك من ادعى أن الله هو خالق المعصية، ومنه تأتي. خلافاً لهذا الرأي، كانت هناك جماعة أخرى أنكرت أن يكون الله هو مصدر المعاصي التي يرتكبها الإنسان.

هذا الجدل بين العلماء والمتكلمين، الذي بدأ بصيغته البسيطة، استمر حتى أصبح نظرية معقدة خلال القرون التي تَلَتْ. يشرح لنا المرتضى - وفقاً لتصوره - ظهور العقيدة الجبرية؛ كيف بدأت، وتطورت، وعلاقة ضرار بهذه المسألة.

يقول المرتضى إن ظهور مسألة عقيدة الجبر كان قد بدأ بسبب مجموعة كانوا يعتقدون أن الله يخلق المعاصي التي يرتكبها الإنسان. وهو يقول موضحاً:

"واعلم أن أول حالة ظهر فيها الكلام وشاع بين الناس في هذه الشـــريعة، هو أن جماعة ظهر منهم القول بإضـافة معاصي العباد إلى الله سـبحانه، وكان الحسـن ابن أبي الحسـن البصـــري ممن نفى ذلك، ووافقه في زمانه [جماعة و] خلق كثير من العلماء كلهم ينكرون أن تكون معاصي العباد من الله، منهم معبد الجهني، وأبو الأسود الدؤلي، ومطرف بن عبد الله، ووهب بن منبه، وقتادة، وعمرو بن دينار، ومكحول الشـامي، وغيلان، وجماعة كثيرة

[٢٩] A. J. Wensinck, *The Muslim Creed: its Genesis and Historical Development* (New Delhi: Oriental Books Reprint Corp, ١٩٧٩), ٣٧.

[٣٠] Van Ess, *Theology and Society,* ١:٤٧٣.

لا تحصـــــى. ولم يك ما وقع من الخلاف حينئذ يتجاوز باب إضافة معاصي العباد إلى الله سبحانه، ونفيها عنه، وغيره من هذا الباب، بباب القدرة والمقدور وما أشبهه. فأما الكلام في خلق أفاعيل العباد في الاستطاعة، وفيما اتصل بذلك وشاكله، فإنما حدث بعد دهر طويل".

"ويقال: إن أول من حفظ عنه القول بخلق أفاعيل العباد هو جهم بن صفوان، فإنه زعم أن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله، كما فعل لونه وسمعه وبصـره وحياته، وأنه لا فعل للعبد في شيء من ذلك ولا صنع، والله تعالى صانعه، وأن لله تعالى أن يعذبه من ذلك على ما يشاء، ويثيبه على ما يشاء. وحكى عنه علماء التوحيد أنه كان يقول مع ذلك: إن الله خلق في العبد قوة بها كان فعله، كما خلق له غذاء يكون به قوام بدنه، ولا يجعل العبد كيف تصـرف حاله، فاعلاً لشيء على حقيقته. فاستبشع من قوله أهل العدل، وأنكروه، مع أشياء أخر حكيت عنه.

ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد، قبل ذلك ضـرار بن عمرو، بعد أن كان [ضـرار] يقول بالعدل، وانتفت عنه المعتزلة واطرحته، فخلط عند ذلك تخليطاً كثيراً، وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم، وخرج عما كان عليه واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، بعد ما كان يعتقد فيهما من العلم وصحة الرأي، لأنه كان في الأول على رأيهما، بل صحبهما وأخذ عنهما.

ثم تكلم الناس بعد ذلك في الاستطاعة، فيقال: إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل هو يوسف السمتي، وأنه استزله إلى ذلك بعض الزنادقة، فقبله عنه. ثم قال بذلك حسين النجار، وانتصـر لهذا القول، ووضع فيه الكتب، فصارت مذاهب المجبرة بعد ذلك على ثلاثة أقاويل:

(أحدها) إن الله تعالى خلق فعل العبد، وليس للعبد في ذلك فعل ولا صنع، وإنما يضاف إليه أنه فعله كما يضاف إليه لونه وحياته، وهو قول جهم.

(والثاني) إن الله تعالى خلق فعل العبد، وأن العبد فعله باستطاعة في العبد متقدمة، وهو قول ضـرار ومن وافقه.

(والثالث) إن الله تعالى خلق فعل العبد، وأن العبد فعله باستطاعة حدثت له في حال الفعل، لا يجوز أن تتقدم الفعل، وهو قول النجار، وبشر المريسي، ومحمد ابن غوث، ويحيى بن كامل، وغيرهم من متكلمي المجبرة [وعند هذا أكثر متكلمي المجبرة] نحو الأشاعرة

وغيرهم. ثم تكلم الناس بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام في العدل، واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً"[٣١].

النصوص المختارة للمرتضى هنا، تشير إلى الخطوط العامة لبداية ظهور عقيدة الجبر، وكيف استمرت إلى أن وصلت إلى ضـرار. النصوص تبين لنا أن المسألة بدأت مع إضافة المعصية إلى الله من قبل مجموعة، وإنكار هذا الانتساب من قبل مجموعة أخرى. إن مفهوم (العدل الإلهي) انبثق نتيجة ذلك الجدال حول فكرة أن المعصية عمل من خلق الله، ولأجل إبعاد صفة الظلم عن الله، الذي لا ينسجم مع حقيقة عدالة الله. من مفهوم العدل الإلهي تبلور مفهوم (المنزلة بين المنزلتين)، الذي أصبح مبدأ أساسياً من المبادئ الخمسة التي اختارها المعتزلة لترسيخ بناء مذهبهم.

يذكر المرتضى نقطة جديرة بالملاحظة، حيث يقول إن جماعة غفيرة من التابعين ردوا على أولئك الذين كانوا يدعون إضافة المعصية إلى الله، وذلك في وقت مبكر جداً في التاريخ الإسلامي، ويمكن أن تعود بداية ذلك الجدل إلى النصف الثاني من القرن الهجري الأول. هنا نتساءل ما الذي حدث بعد الرسول حتى يدفع المسلمين بهذا الاتجاه، بحيث جعلهم يبحثون عن بنية المعصية ومعرفة علاقتها بالإيمان، ومن ثم نسبة المعصية إلى الله؟ ما هو معلوم أن الصـراع السياسي، والحرب الأهلية، أنتجت ثلاث طوائف: الخوارج، الشيعة، والمرجئة. الفئة الأولى كفرت عثمان وعلي، وكفرت كل الذين لم يكونوا معهما. والفئة الثانية كفرت كل الذين لم يوافقوا الخليفة الرابع، ولم يساندوه. أما الفئة الثالثة، فقد حاولت إنقاذ الأمة الإسلامية، ظنّاً منهم، عن طريق حماية الصحابة من التكفير والتفسيق ورأب الصدع الذي حدث بعد قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان[٣٢].

لأجل معالجة تلك المشكلة، حاولت المرجئة الفصل بين العمل والإيمان. هم ادعوا أن ارتكاب المعصية لا يخرج المسلم عن دائرة الإيمان، ولا يجعله كافراً. بل ذهبوا أبعد من ذلك بالقول إن فعل المعصية من خلق الله، ولا يأت الناس بشيء خارجاً عن إراده الله. بهذه الطريقة كانوا يردون على الخوارج والشيعة، عندما كانوا يهاجمون الصحابة، واتهموهم بالعصيان والكفر. الصحابة في نظر الأمة الإسلامية كانوا المثل الأعلى، فإذا سقطت هذه المثل في أعينهم،

٣١- الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، ت. أحمد الحسيني (قم: دار القرآن، ١٤٠٥)، ٢: ١٧٩-٨٠.

[٣٢] Muḥammad ʿAlī Kamāl, "Taṭawwur ʿIlm al-Kalām fi Risālat Inqādh al-Bashar min al-Jabr," *Majalat al-Risāla* ٢٢٠ (September ٢٠, ١٩٣٧), ٣٣-٣٨.

لا يبقى للمسلمين سند يعتمدون عليه ويفتخرون به بعد وفاة الرسول، وهي التي وصفها القرآن بأنها خير أمة[٣٣].

إذاً، طوال عقود كان الجدل يدور بين الفريقين: فريق "إضافة المعصية إلى الله"، أو "نفي المعصية عن الله". الفريق الأول عُرف بأهل الإثبات، والثاني بأهل النفي. نستشف من كلام المرتضى، أن النقاش بينهم لم يتجاوز أكثر من ذلك، بل هو يؤكد أن عقيدة أهل الإثبات هي التي أدت إلى ظهور العقيدة الجبرية. أما عقيدة أهل النفي، فأدت إلى ظهور عقيدة الإرادة الحرة للإنسان، أي فكرة العدلية، والتي عرفت فيما بعد بالقدرية. وهو يؤكد أيضاً أن عقيدتي الجبر والاختيار لم تظهر إلا بعد فترة طويلة كفكرة منظمة مبنية على التفكير العقلاني. وأن باكورة عقيدة الجبرية ظهرت على أيدي الجهم، وضـرار، وغيرهم.

وكما نفهم من المرتضى، من خلال عرضه لهذا التاريخ، أن مفهوم العدلية سبق مفهوم القدرية، لأنه يقول أن معبد الُجهني، وغيلان الدمشقي، لم يدعوا إلى القدرية، بل إلى العدلية[٣٤]:

- في بداية مرحلة ظهور علم الكلام، كان النقاش والجدال حول إثبات إضافة المعصية إلى الله، أو نفي المعصية عنه.
- في المرحلة الثانية؛ كان النقاش يدور حول مفهوم العدل الإلهي، والذي بدوره تحول إلى عقيدة القدرية.
- من خلال هذا السـرد التاريخي يتبين أن مفهوم العدلية يتقدم زمنياً على ظهور المعتزلة، وأنه كان سائداً ومعروفاً في المجتمع الإسلامي. وفي هذه المرحلة يظهر ضـرار بين المتكلمين، ويكشف رأيه حول تصوره للجبر والاختيار، واتبع جهماً في ذلك، وبدوره أصبح ضـرار خارج دائرة المعتزلة، كما يقال. وكان ضـرار قبل ذلك يأخذ برأي واصل بن عطاء، في مفهوم العدل الإلهي.
- على الرغم مما يقال في هذا الصدد أن ضـرار كان ينتمي إلى أهل الجبر، الذي أتى به جهم، أو إلى أهل العدل، الذي أتى به واصل، وغيره، يتبين أن ضـرار كان له رأيه الخاص حول مفهوم الجبر والعدل. كما يبدو أنه لم يقبل الجبرية الخالصة التي أتى بها جهم، ولا

[٣٣] Kamāl, "Taṭawwur ʿIlm al-Kalām."

[٣٤] Ibid.

العدلية الخالصة التي قال بها واصل وغيره، بل - كما يبدو - هو توافق بين الجبر والاختيار[٣٥].

بدأ ضـرار يستعمل مصطلحاً جديداً حتى ينأى بنفسه عن كلا العقيدتين الجبرية الخالصة، والعدلية الخالصة، وهو مصطلح (الاستطاعة). هذا المصطلح أصبح مفهوماً جديداً يتداوله المتكلمون ويتناولونه في إبراز دور فاعلية الإنسان في خلق عمله، وبموجبه يتحمل مسؤولية سلوكه؛ إن كان سيئاً يعاقب، وإن كان حسناً يُثاب عليه[٣٦].

فأصبح مفهوم عقيدة الجبر يحمل ثلاثة أبعاد: جبرية جهم؛ خال من فكرة الاستطاعة. جبرية ضـرار؛ تؤكد على وجود الاستطاعة في الإنسان قبل البدء بالعمل. وجبرية يوسف السمتي٣٧ (ت. ١٨٩/ ٨٠٥)، التي تؤكد على وجود الاستطاعة أثناء العمل.

هل ظهور فكرة الجبر في بداية الأمر - والتي أصبحت بعد فترة طويلة عقيدة ذات طبيعة كلامية، بل وحتى فلسفية- وفقاً لتصوير المرتضى: كانت نتيجة للتفكير والتأمل الفلسفي لدى جهم وضـرار، تحت تأثير الفلسفة الإغريقية، واحتكاكهم بالأديان الموجودة في عصرهم، أم أنها كانت نتيجة تطور لمفهوم (إضافة المعاصي) إلى الله؟ هل هناك علاقة جدلية بين إضافة المعاصي إلى الله، والعقيدة الجبرية، التي قال بها جهم وضـرار؟

استناداً إلى ما كتبه (كورنليا شكاك) حول مذهب جهم وضـرار، لعلني أستطيع الإجابة عن الأسئلة المطروحة بإيجاز.

هو يقول إن جهم وضـرار كانا من بين أوائل العلماء الذين يتعاطون مع القضايا التي كانت تتعلق بفلسفة الطبيعة. (كورنليا) يعتبر جهم أول متكلم مسلم في تاريخ الفكر الإسلامي دون نزاع، وجزء من نظريته اللاهوتية تعتمد على نظرية المعرفة لأرسطو، وفي بعض القضايا الأخرى يستند على الأفلاطونية الحديثة. مع جهم بدأ الصـراع بين علم اللاهوت الطبيعي مع أولئك الذين كانوا يأخذون بصفات الله في القرآن حرفياً. الجهميين كانوا في جبهة، والحشويين والمشبهين في الجبهة المضادة لهم. لذا يعتبر جهم من الأوائل الذين جاءوا باستعمال العقل، واستنتاج الرأي بين المسلمين، وبسببه اتهم من قبل الحنبليين بالكفر، لأنه استعمل علم الكفار

---

[٣٥] Ibid.

[٣٦] Ibid.

٣٧- أبو خالد يوسف بن خالد بن عمير السمتي الليثي. ولد في البصرة في ٧٣٨/١٢٠. اتهم بالزندقة بسبب آرائه الكلامية. انظر:

Van Ess, *Theology and Society,* ٢:١٧٣-١٧ .

في منهجه الفكري، وكانوا يقصدون أن جهم لجأ إلى الفلسفة الأغريقية والأديان المسيحية واليهودية في تفكيره.

أما ضـرار، فكان في سن شبابه منتمياً إلى الجيل الثاني من الذين عرفوا بالمعتزلة في البصـرة وبغداد. مع أن ضـرار لم يلتق بجهم أبداً، وعلى رغم أن ضـرار انتقد جهماً، فإن كثيراً من خصومه اتهموه بالجهمية. بل قيل أيضاً إن ضـرار قد تأثر بفلسفة اللاهوتي المسيحي (جريجوري فان نساي) و(أفلاطون) و(أرسطو)، في مسألة خلق الأشياء وتركيب الأجزاء وتكوين الأجسام[٣٨].

كما يشير (كورنليا) إلى أن المصادر التي نعتمد عليها لمعرفة مذهب جهم وضـرار، لا تعطينا الكثير، بل تختصـر عقيدتهم في بضع جمل، فيها نكتشف بعض الآراء حول الفيزياء والأبستمولوجيا والثيولوجيا. تلك المصادر التي تذكر آراءهم، ظاهر أنها تدور حول كيفية نشأة وانحلال الأجسام، التغيرات التي تأتي على الأشياء المرئية، التساؤل حول السببية، معرفة كيفية الإدراك، ومعرفة الله[٣٩].

هنا أنقل نصين من جهم وضـرار حول عقيدتهما في الجبر، ومنها ندرك مدى عمق تفكيرهم في هذه المسألة. يقول جهم:

أنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه، إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل واختياراً له منفرداً بذلك، كما خلق له طولاً كان به طويلاً، ولوناً كان به متلوناً[٤٠].

"إن القرآن جسم، وهو فعل الله"[٤١].

يقول ضـرار:

إن أعمال العباد مخلوقة، وإن فعلاً واحداً لفاعلين؛ أحدهما خَلَقَهُ وهو الله، والآخر اكتسبه وهو العبد. وإن الله - عز وجل - خالق لأفعال العباد في الحقيقة، وهم فاعلون لها في الحقيقة[٤٢].

---

[٣٨] Schöck, " Jahm b. Ṣafwān.

٣٩- نفس المصدر.

٤٠- الأشعري، مقالات، ١:٣٣٨.

٤١- نفس المصدر، ٢:٢٦١.

٤٢- نفس المصدر، ٣٣٩.

من المقطعين السابقين لجهم وضـرار نفهم أن هناك، وراء أقوالهم، نظاماً فكرياً واستنتاجات تعتمد على الحجج العقلية، أكثر من القضايا السياسية والصـراعات المذهبية، كما يعرضها المرتضى.

الدراسة الحالية مخصصة لتسليط الضوء على ضـرار، لذلك أحاول في القسم التالي البحث عن ضـرار في مسألة الجبر والاختيار.

**ضـرار وعقيدته الجبرية:**

في الفقرات السابقة مهدنا الطريق تاريخياً عسى أن نصل إلى فهم عقيدة ضـرار المتعلقة بالجبرية التي اختارها في مسيرة حياته الفكرية. ولكن بسبب شحة المعلومات لا يمكننا أن نصل إلى الكنه الحقيقي لما اعتقده ضـرار، كي نعرف المبدأ الذي بنى عليه مذهبه. ولكننا استناداً إلى المقاطع التي بين أيدينا من أقوال ضـرار، نحاول أن نفهم تصوره حول الجبر والاختيار.

المصدر الرئيسي الوحيد الذي يذكر مذهب ضـرار وفكره، وبشكل مفصل نوعاً ما، مقارنة بالمصادر الأخرى، هو أبو الحسن الأشعري. لا بل وأغلب المصادر التي تذكر ضـرار وآراءه، هي إعادة بشكل من الأشكال لما قاله الأشعري حول ضـرار. فعلى أساس ما قدمه لنا الأشعري، نتعرف على فهم ضـرار لصفات الله، وإرادة الله، والعلاقة بين الله والإنسان، فيما يتعلق بالفاعل الحقيقي أثناء تنفيذ العمل، هو "الله يخلق الفعل، والإنسان يكتسب ذلك الفعل".

يعرض الأشعري تصور ضـرار بقوله: إرادة الله ذات شقين: إرادة هي مراده، أي هو الذي يريد ما أراد في كينونة ذاته. وإرادة هو يأمر بها، لإيجاد فعل ما. عندما يريد الله أن يخلق شيئاً، ذلك الخلق، هو إرادته لفعل الخلق. أما إرادة الله لخلق فعل الإنسان، ذلك الخلق، هي إرادة لخلق ذلك الفعل الذي يقوم به الإنسان، وهذا الخلق هو فعل الإنسان من قبل الله. ضـرار يقول إن خلق شيء ما، هو الشيء نفسه الذي وجد بفعل الأمر (كُنْ) من الله الذي يجعل اللاشيء شيئاً[٤٣]. يقول الأشعري موضحاً ما قاله ضـرار:

إرادة الله سبحانه على ضـربين: إرادة هي المراد، و إرادة هي الأمر بالفعل، وزعم أن إرادته لفعل الخلق هي فعل الخلق، وإرادته لفعل العباد هي خلق فعل العباد، وخلق فعل العباد هو فعل العباد، وذلك أنه كان يزعم أن خلق الشيء هو الشيء[٤٤].

٤٣- الأشعري، مقالات، ٢:١٩٩.

٤٤- نفس المصدر ٢:١٩٩.

وفقاً للأشعري، ضـرار كان يميز بين الفعل الذي يصدر عن الإنسان، والفعل الذي يصدر عن الله. حينما يريد الإنسان أن يفعل شيئاً، وفي نفس الوقت له القدرة على عدم فعله، يعتبر هذا الفعل، من فعل الإنسان. كل الأفعال عدا ذلك، هي من فعل الله. ضـرار يدعي أن الإنسان يستطيع أن يقوم بفعل في فضاء غير فضائه في الحقيقة، مثل الحركة والسكون. ونتيجة عمل الإنسان الذي يؤديه في هذا الفضاء، هو اكتساب إنساني، ولكن الفعل الذي ينفذه الإنسان هو فعل إلهي في الحقيقة[٤٥].

يضـرب ضـرار (عملية الإدراك) كمثال لتوضيح ما يريد أن يقول لتفهيم نظريته في الواقع. هو ينظر إلى تلك العملية (الإدراك) من طرفين: الإدراك "كسب" إنساني، و"فعل" إلهي، في الوقت نفسه. هنا هو يخالف هؤلاء الذين اعتبروا أن الإدراك هو فعل إنساني بحت، بحيث لا يتعلق بإرادة الله مطلقاً[٤٦]. ضـرار يعطي مثالاً آخر، وهو "عملية قراءة القرآن"، ليميز بين فعل الإنسان وفعل الله أثناء قراءة القرآن. يقول: إن القرآن خُلق من قبل الله، وعندما أقرأ القرآن أكون أنا منفذاً لفعل القراءة، إذاً أنا فاعل حقيقي للقراءة، أما الله فهو خالق القرآن، وفي الوقت نفسه، هو الخالق للقدرة التي أستطيع بسببها أن أقوم بفعل قراءة القرآن، وباختياري لتلك القراءة، وهي "الاستطاعة"[٤٧]. القرآن من الله خلقاً، ومنّي قراءة وفعلاً، لأني أقرأ القرآن، والمسموع هو القرآن، والله يأجرني عليه، فأنا فاعل، والله خالق[٤٨].

يشرح (فان أس) فكر ضـرار في هذا الصدد قائلاً، إن القدرة على الفعل وفقاً لتصور ضـرار موجودة لا فقط قبل أداء القراءة، بل أثناء الأداء، وحتى بعد الأداء. هنا يظهر خلاف بين هذا القول، وما قاله المرتضى، حيث إن ضـرار وافق على وجود الاستطاعة قبل الفعل، وهي نقطة الفصل بينه وبين جهم، من جهة، والسمتي، من جهة أخرى[٤٩]. وفقاً لـ(فان أس)، ضـرار هنا يحدد مستويين للاستطاعة عند الإنسان، هما: القوة والقدرة. القوة هي الاستطاعة الأولية لفعل ما، التي يمكن أن يقابلها معنى الصحة، هي أداء الجسم الإنساني، الذي يعرف بـ(الاستطاعة). في الوقت نفسه، هناك الاستطاعة الثانوية اللحظية أثناء الأداء، والتي سماها

٤٥- الأشعري، مقالات، ٢-٢:٩١.
٤٦- نفس المصدر ٢:٧٠.
٤٧- نفس المصدر ٢:٢٦٥.
٤٨- نفس المصدر ٢:٢٦٥.

[٤٩] Van Ess, *Theology and Society*, ٣:٤٨؛
عبدالقادر البغدادي، الفرق بين الفرق، ت. محمد عثمان الخشاب (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٨٨)، ١٨٨.

ضـرار بـ(القدرة). ضـرار اعتقد أن الفعل الإنساني هو الفعل الحقيقي، ولكنه في الوقت نفسه مخلوق من قبل الله[٥٠]. على أساس هذا المفهوم أن الإنسان يكمل خلق الفعل عند الله بالاكتساب[٥١].

فكرة ضـرار هذه أصبحت مشكلة عويصة لدى المعتزلة من بعده، فحاول بشـر بن المعتمر أن يفسـر مفهوم كلمة الاستطاعة لتنفيذ الفعل، بكلمة (الصحة). أما ضـرار، فلم يذهب إلى ذلك المنحى في مزاعمه حول الاستطاعة[٥٢].

يشير (فان أس) كذلك إلى أن ضـرار من المحتمل جداً أنه لم يعتمد على العقل فقط في مذهبه هذا، بل اعتمد على القرآن أيضاً. ضـرار استعمل مفهوم الاكتساب استناداً إلى القرآن، حينما يقول إن الإنسان لا يستطيع أن يكمل الفعل لوحده، بل هو شيء يخلقه الله[٥٣].

(فان أس) يقول إن ضـرار اعتقد أن الكون المخلوق يتكون من الأعراض فقط. الذي نراه هو أعراض مؤتلفة، تظهر أمامنا على شكل جسم. بهذا الرأي يعارض ضـرار أولئك الذين يصفون الأشياء بأنها طبيعة مستقلة، أو روح، أو جوهر، أو أي ذات قائمة بنفسها. هو كان يعتقد أن الجسم الذي ندركه، ليس جسماً في الحقيقة، بل صفات أو أعراض تكون منها الجسم، بحيث ليس هناك أي شيء آخر بجانب تلك الأعراض. لذا فالجسم في النهاية ليس إلا أعراض مؤتلفة، واعتبر ضـرار أن الحركة والسكون ضمن الأعراض غير الأساسية في تشكيل الجسم[٥٤].

ضـرار له نظريته الخاصة في شـرح الحركة والسكون اللذان يحدثان في الجسم. وجهة نظر ضـرار تبدو في أول وهلة أنها تفسير مادي بحت، لأنه يرى الحركة والسكون ليسا إلا حدثين طبيعيين، ليسا إلا نتيجة لأسباب وتفاعلات مادية خارجاً عن إرادة الله. عندما يستبدل عرض من الأعراض الأساسية مكانه لعرض آخر في الجسم، مثلاً استبدال الحرارة بالبرودة، أو العكس، يؤدي إلى دفع الأعراض جميعاً معاً في الوقت نفسه بالاتجاه المدفوع إليه، مؤدياً

٥٠ Ibid., ٣:٤٨.

٥١ Ibid., ٣:٤٨.

٥٢ Ibid., ٣:٤٨.

٥٣ Ibid., ٣:٤٩.

٥٤ Van Ess, *Theology and Society*, ٣:٤١.

حدوث الحركة المطلوبة في الجسم[٥٥]. السؤال المطروح هنا، هو: ما علاقة هذه النظرية في تصور ضـرار بالإنسان وخلق فعله؟

كما علمنا، كان ضـرار يقول إن الإنسان جسم، وكل جسم يتكون من أعراض. مثلاً يمكننا أن نشعر بحرارة جسم الإنسان، نرى لون جلده، نشم جسده ونلمسه، لكن هذا الجسد يملك أفعالاً، فهو بلا روح أو جوهر مستقل بوجوده. أما الظروف المهيئة لتلك الأفعال التي يمكن للإنسان أن يقوم بها، فهي وجود عرض اسمه الحياة في جسم الإنسان[٥٦].

قوة الإنسان أو استطاعته لإنجاز فعل ما - وفقاً لضـرار - عرض متصل وغير قابل للانفصال عن الإنسان، ومستمر وجوده ما دام حياً. موقف ضـرار هو حل وسط بين موقف المعتزلة، الذي يعتمد على التمييز الأرسطي بين الفاعلية الجوهرية والفاعلية السلبية للأشياء، وموقف جهم الذي ينفي النشاط فيما يتعلق بالجسم المادي. ففي الوقت الذي يقترب ضـرار إلى النظرية الماتريدية حول إنجاز الفعل، فإن جهم كان قريباً إلى الأشعري في مسألة إنجاز الفعل[٥٧].

يشـرح (كورنليا شكاك) عقيدة ضـرار من نفس الزاوية التي قرأها (فان أس) حول خلق فعل الإنسان من قبل الله. ضـرار كان يتصور أن فعلاً واحداً له عاملان في الوقت نفسه، واحد منهم يخلق ذلك الفعل، وهو الله، والثاني يكتسب ذلك الفعل، وهو الإنسان. الله في الحقيقة فاعل بالنسبة إلى خلق أعمال الإنسان، والإنسان في الحقيقة فاعل مباشـر لما يعمله[٥٨].

هنا سؤال يطرح نفسه: أين ينبع فكر ضـرار حول الجبرية والقدرية؟

مما سبق ظهر أن خلق الله لفعل الإنسان ليس مطلقاً، كما تصوره جهم بأن الله هو الفاعل الحقيقي، وليس للإنسان أي قدرة إلا تمثيل ما أراده الله منه. على رغم أن جهم يقول إن الله يسـر للإنسان قوة كي يختار به عمله، ولكنه يؤكد في نهاية الأمر أن ليس له أي دور في الأداء إلا مجازاً[٥٩]. في مقابل ذلك ضـرار يعتقد أن الإنسان يتكون من الأعراض؛ مثل: اللون، الطعم،

---

٥٥ Ibid., ٣:٤٨.

٥٦ Ibid., ٣:٤٨.

٥٧ Schöck, " Jahm b. Ṣafwān."

٥٨ Cornelia Schöck, " Jahm b. Ṣafwān (d. ١٢٨/٧٤٥–٦) and the 'Jahmiyya' and Ḍirār b. ʿAmr (d. ٢٠٠/٨١٥)," in *The Oxford Handbook of Islamic Theology,* ed. Sabine Schmidtke, (Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٦), ٧٥.

٥٩- الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، ت. أحمد الحسيني (قم: دار القرآن، ١٤٠٥)، ٢:١٨١.

الرائحة، والقوة، وأعراض أخرى. والأعراض بطبيعتها المادية لا قوة لها ولا حول، حتى يمكنها أن تفعل أو تنتج شيئاً من ذاتها دون الاستناد إلى شيء غيرها. لذا، الذي يمكن أن يجعل الإنسان أن يفعل شيئا هو الله، الذي بدوره يتدخل في كل حركة أو عمل في الكون بالطريق المباشر، والإنسان ليس خارجاً عن هذا القانون. لكن - كما يقول ضرار - إن تلك الأعراض التي مجتمعة تصبح إنساناً، تعطيه القابلية أن يختار فقط لا أن يخلق. ففي نظر ضرار إن الإنسان لا يملك لا روحاً ولا أي جوهر حتى يجعله ذاتيّ الحركة، لا يعتمد على غيره، وكما يقولون إن الجوهر قائم بذاته، ووجوده لا يعتمد على غيره. يقول ضرار:

الجسم أعراض أُلّفت وجُمعت، فقامت و ثبتت، فصارت جسماً[٦٠].

يتكون الإنسان من أشياء كثيرة: لون، وطعم، ورائحة، وقوة، وما أشبه ذلك، وأنها الإنسان إذا اجتمعت، وليس هاهنا جوهر غيرها[٦١].

كما يبدو لنا أن ضـــرار حامل نظرية للوجود، تميّزه عن غيره في زمنه. وإن كنا لم نستطع أن نصل إلى كنه كامل نظريته، ولكن تصوره لوجود الله، صفاته، وإرادته، وتصوره للوجود وكيفية إيجاده، نظرته إلى الأجسام وكيفية بنائها، وأخيراً اعتقاده في كيفية تركيب الإنسان من الأعراض، وأنه هو خالٍ من الروح أو الجوهر، أدى به إلى أن يكوّن نظرته الخاصة به. حاول أن يجد مخرجاً عن طريق إيجاد مصطلح (الاستطاعة)، هرباً من الجبرية، ويعترف بأن الإنسان يتحمل المسؤولية، لأنه مستطيع❐

**المراجع العربية**


- ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ت: عبدالمجيد الترحيني، مجلد ٨. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣).
- ابن حزم. *جمهرة أنساب العرب*. ت. عبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف،؟).
- ابن عبدالرحمن الملطي. *التنبيه و الرد على الأهواء و البدع*. ت. محمد زينهم محمد عزب. (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣).
- الجاحظ. *الحيوان*. ت .عبدالسلام هارون. مجلد ٤. (مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦).
- الصفدي. *الوافي بالوفيات*. ت. أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى. مجلد ١٦. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠).


٦٠- الأشعري، مقالات، ٢:٧.

٦١- الأشعري، مقالات، ٢:٢٦.

- الذهبي. *تاريخ الإسلام*. ت. عمر عبدالسلام. مجلد ١٢. (بيروت: دار الكتاب العربي.
- رشيد خيون. *معتزلة البصرة و بغداد*. (لندن: دار الحكمة،١٩٩٧).
- رشيد خيون. *مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة*. (بيروت: دار النبوغ، ١٩٩٤).
- وكيع. *أخبار القضاة*. الأجزاء ١،٢،٣. ت. سعيد اللحام (بيروت: عالم الكتب،؟).
- الذهبي. *سير أعلام النبلاء*. مجلد ٨. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢).
- سامي علي النشار. *نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام*. مجلد ٣. (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥).
- الشريف المرتضى. *رسائل المرتضى*. ت. أحمد الحسيني. مجلد ٢.(قم: دار القرآن، ١٤٠٥).
- عبدالقادر البغدادي. *الفرق بين الفرق*. ت. محمد عثمان الخشاب. (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٨٨).
- محمد علي كمال. "تطور علم الكلام في رسالة إنقاذ البشر من الجبر،" *مجلة الرسالة*. ٢٢٠ (٢٠ شهر ايلول، ١٩٣٧): ٣٣-٣٨.

**المراجع الأجنبية:**

- A. J. Wensinck, *The Muslim Creed: its Genesis and Historical Development* (New Delhi: Oriental Books Reprint Corp, ١٩٧٩).
- Bernard Lewis, "On the Quietist and Activist Traditions in Islamic Political Writing," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* ٤٩, no. ١, (February ١٩٨٦): ١٤١-١٤٧.
- C. Schöck, "Jahm b. Ṣafwān (d. ١٢٨/٧٤٥–٦) and the 'Jahmiyya' and Ḍirār b. ʿAmr (d. ٢٠٠/٨١٥)." *The Oxford Handbook of Islamic Theology.* Edited by, S. Sabine (Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٦), ٥٥-٨٠.
- G. Levi Della Vida, and R.G. Khoury, "ʿUthmān b. ʿAffān," *EI٢.*
- Josef Van Ess, *Theology and Society,* trans. John O'Kane. Volume, ١ (Leiden: Brill, ٢٠١٧).
- Josef van Ess, *Theology and Society.* Volume, ٣.
- Josef Van Ess, *Theology and Society*. Volume, ٤.
- Josef Van Ess, "Ḍirār b. ʿAmr," *EI٣*.
- Montgomery W. Watt, *Islamic Philosophy and Theology* (Edinburgh: University Press, ١٩٨٥).
- Paul L. Heck, *Skepticism in Classical Islam: Moments of Confusion* (London: Routledge, Taylor & Francis Group, ٢٠١٤).

- Richard C. Martin, Mark R. Woodward, and Dwi S. Atmaja, *Defenders of Reason in Islam: Mu'tazilism from Medieval School to Modern Symbol* (Oxford, England: Oneworld Publications, ١٩٩٧).

**المرفق رقم١**

أسماء الكتب المنسوبة إلى ضـرار، كما جاء في: محمد بن إسحاق النديم، كتاب الفهرست للنديم، ت. يوسف علي طويل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧١)، ٢٩٩.

١. كتاب التوحيد.
٢. كتاب الإرادة .
٣. كتاب في أن الأسماء لا تُقاس.
٤. كتاب الدلالة على حدث الأشياء.
٥. كتاب المخلوق.
٦. كتاب القدر .
٧. كتاب الوعيد.
٨. كتاب المنزلة بين المنزلتين.
٩. كتاب إثبات الرسول.
١٠. كتاب اختلاف الأجزاء.
١١. كتاب الرد على أرسطاليس في الجواهر والأعراض.
١٢. الرد على أصحاب الطبائع .
١٣. الرد على الملحدين.
١٤. كتاب يحتوي ستة كتب في الرد على الملحدين.
١٥. الرد على الزنادقة.
١٦. كتاب يحتوي على عشرة كتب في الرد على أهل الملل.
١٧. الرد على النصارى .
١٨. الأربع مسائل على أهل الأهواء.
١٩. الرد على معمر في قوله إن محمداً رب.
٢٠. كتاب يحتوي على ثلاثة عشرة كتاب في الرد على المشبهةَ.
٢١. كتاب التشبيه.
٢٢. كتاب على المرجئة في الأسماء.
٢٣. كتاب على المرجئة في الشفاعة.
٢٤. الرد على الحشوية في قولها أن النبي إذا استغفر لإنسان غفر له.
٢٥. الرد على الواقفية والجهمية والغيلانية .
٢٦. كتاب على الأزارقة والنجدات والمرجئة .
٢٧. الرد على الخوارج.
٢٨. كتاب الرد على الفضيلية والمحكمة في قولهم إن الناس على دين وإن ظهر منهم غير الحق.
٢٩. رسالة الصوفيين.
٣٠. الرد على الرافضة.
٣١. الرد على الحشوية.
٣٢. الرد على المغيرية والمنصورية في قولهم إن الأرض لا تخلو من نبيّ.
٣٣. كتاب الرد على من زعم أن النبي ترك من الدين شيئاً وأنه كان يعلم الغيب.

٣٤. الرد على من زعم أن الأنبياء اختلفت في صفات الله عز وجل.
٣٥. كتاب الفكر في الله على الواقفة، وهي خمسة كتب.
٣٦. كتاب آداب المتكلمون.
٣٧. اختلاف الناس وإثبات الحجة.
٣٨. كتاب الأسباب والعلم على النبوة.
٣٩. تفسير القرآن.
٤٠. تأويل القرآن.
٤١. كتاب الأخبار.
٤٢. تناقض الحديث.
٤٣. كتاب الجمعة.
٤٤. كتاب الوصية.
٤٥. كتاب الإمامة.
٤٦. كتاب الحكمين.
٤٧. كتاب المساواة.
٤٨. كتاب الدولتين.
٤٩. العدو المصلح.
٥٠. الخرائط.
٥١. المدعات.
٥٢. المنقولين.
٥٣. الأطفال والملك وفي آجال الأطفال.
٥٤. المعونة في الخذلان.
٥٥. المعروف و الشكر .
٥٦. التحريش والإغراء.
٥٧. إلى من بلغ من المسلمين.

# أثر الترف والبذخ في سقوط الدول والمجتمعات
# الدولة العباسية نموذجاً

**بشار نافگوندى**

✍ الترف والبذخ من الأمراض الاجتماعية التي تبتلى بها بعض المجتمعات، وتجر أفرادها نحو انحدار خطير يوردهم الهاوية، إذا لم يتم تدارك الأمر. وليس من الضـــرورة أن يتعلق الغنى بالترف، فالغنى قد يؤدي إلى الترف ويســـوق إليه، لكن ليس ذلك حتماً، فالترف هو من المخرجات السلبية للغنى، والتأثير السلبي الذي يتركه الغنى على الفرد، فيجعله ينحرف عن الجادة ويدفعه إلى كفران النعمة، هو الذي يســـمى الترف. أما الغنى، فهو مرتبة اقتصـــادية تعني زيادة ثروة الفرد وقدرته المالية.. ومســـتوى التأثر لدى الفرد بهذا الغنى، هو الذي يحدد مكانه من الترف أو غيره؛ فإذا ما كان التأثير سـلبياً، يندفع الثري نحو الترف وتجاوز الحدود الاعتيادية من إشباع الحاجات، نحو التبذير والإســـراف والطغيان. وتكمن الخطورة في تغلغل هذا الداء في نفوس أرباب الدولة، فيوردهم العواقب التي لا يحمد عقباها.

يقول ابن خلدون في مقدمته: الترف والدعة والانفراد بالمجد تذهب بالدولة إلى نهايتها الحتمية[٦٢]. والترف هو النعمة وسعة العيش الذي يقود إلى البذخ والطغيان. والترف لغة طغيان النعمة[٦٣]. وقد جاء ذكر الترف والمترفين مراراً في القرآن الكريم مقروناً بالظلم والهلاك كسبب ونتيجة، قال تعالى: {**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**}[٦٤]، أي سلّطنا أشرارها عليها، فعصوا فيها. والمترفون في كل أمّة هم كبراء القوم المنعمين، الذين يجدون الراحة والسيادة، حتى ترتع نفوسهم وتميل إلى المجون، ويعيثون في الأرض الفساد، إذا لم يتحكم بهم ضابط شرعي أو قانوني. ومن المجتمعات التي ابتليت بهذا، وأوردتهم المهالك، هو المجتمع المسلم في الدولة العباسية، وعاصمتها بغداد، الذين انتهجوا نهج الأمم السابقة في الترف والطغيان، فأوردهم ذلك الهلاك والسقوط تحت سيوف الغزاة القادمين من الشرق.

ويمكننا تشخيص ظاهرة انتشار البذخ والترف بين حكام ورجال الدولة العباسية من عدة جوانب، منها: -

**أولاً: البذخ في بناء القصور واقتناء الأثاث:**

بدأ الخلفاء من بنو العباس منذ البداية في بناء القصور الفخمة التي تدل على الأبهة والعظمة، فبالغوا كثيراً في تفاصيلها، فالمنصور صرف مبالغ ضخمة على بناء قصره في بغداد، إلى درجة أنه جعل عرض أساس قصره من الأسفل خمسون ذراعاً، ومن أعلاه عشرين[٦٥]، وصرف ملايين الدنانير من خزينة دولته الناشئة على محل سكنه والمنشآت العمرانية العامة في مدينته الجديدة[٦٦]، ليفتح بذلك صفحة من حياة الخلفاء مليئة بالترف والبذخ والأبهة والشعور بالعظمة في الحكم، وليضع بينه وبين الرعية حاجزاً منيعاً، وهو الحاجز المعنوي والتعالي عليهم، قبل الحاجز المادي الذي هو الصخور والجدران. إلا أنه - ورغم الترف والبذخ الذي عاشه وحاشيته في قصره - عرف بالبخل والتشدد في صرف الأموال للآخرين، وله مواقف مشهورة في كتب التاريخ تشير إلى هذه النقطة، فعندما طلب

---

[١] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ***مقدمة ابن خلدون***، مصدر سابق، ص١٥٦.

[٢] الزبيدي، محمد مرتضى، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٤٠١هـ-١٩٨٦م، باب الفاء، ج٢٣، ص٥٣.

[٣] سورة الإسراء، الآية ١٦.

[٤] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ***تاريخ ابن خلدون***، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤٧.

[٥] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ***تاريخ مدينة السلام***، مصدر سابق، م١، ص٣٧٨.

منه واليه على (مكة) زيادة العطاء والأرزاق، رد عليه المنصـــور: إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه، فاكتف بالبلاغة[٦٧].

وبمرور الوقت، ومع زيادة رفاهية بني العباس، وانغماسـهم في الترف ورغد العيش، ازداد البعد بينهم وبين الرعية، باســتثناء البعض من أفراد المجتمع وخاصــته، الذين تقربوا من الخلفاء العباســيين، وتم إغداق النعم والهدايا عليهم دون رقيب أو حسـيب، إلى درجة أن الخليفة محمد الهادي[٦٨] أكرم أحد الشــعراء، بعد أن اســتطاب قصــيدة منه، بأن يأمر بإدخاله بيت المال ليأخذ ما يشاء منه، فأخذ الأخير سبعة بدر وانصـــرف[٦٩]. أما هارون الرشيد[٧٠]، فهو يعطي عشــرات الآلاف من الدنانير لأحد الشعراء المغنين، لأنه سمع منه ما أعجبه[٧١]، ويعطي لشــاعر آخر أربعين ألف درهم، لأنه رثى جاريته بعد وفاتها بقصــيدة أعجبته[٧٢]. ولم يكن المأمون ببعيد عن هذا الســلوك، عندما أعطى آلاف الدنانير لشــاعر امتدحه[٧٣].

اســتمر الخلفاء والحكام من بني العباس – أغلبهم – على هذا المنوال، متأثرين ببهرج الدنيا وزينتها، فانخرطوا وانغمســوا فيها، وبنوا القصــور الفخمة، وتفننوا في البناء المزخرف بأحدث النقوش، وملأوها بالستائر والبسط والأثاث والأواني، وتخللت القصور الرفيعة البناء الأروقة الواسـعة التي تحتضـن بداخلها الأمراء والحشـم وأجنحة خاصـة للخدم والجواري،

---

[٦] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ***البخلاء***، اعتنى به: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ج٣، ص١٠٧.

[٧] أبو محمد موسى بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور، بويع له بالخلافة ١٦٩هـ، وكانت مدة خلافته سنة وشهراً واحداً، عرف بالجود، ودفن بقصـره الذي بناه بعيساباذ، وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وعشرين سنة. ابن الكازروني، ***مختصر التاريخ***، ص١٢٣.

[٨] الأربلي، عبد الرحمن سنبط، ***خلاصة الذهب المسبوك***، مصدر سابق، ص١٠٦.

[٩] هارون بن أبي عبد الله محمد المهدي بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالري سنة ١٥٠هـ، وبويع له بالخلافة سنة ١٧٠هـ، توفي سنة ١٩٣هـ في طوس، ودفن هناك. ابن الكازروني، ***مختصر التاريخ***، ص١٢٧.

[١٠] الأصفهاني، علي بن الحسين، ***كتاب الأغاني***، م٥، ص١٠٩.

[١١] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ***تاريخ مدينة السلام***، مصدر سابق، ج١، ص٤١٥.

[١٢] الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م، ***الديارات***، تح: كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ط٢، ص٢٨٣.

وتجاوره الأسطبلات، وجناح الساعاتية، لإدراك وقت الصلاة، فيضـــربون النوبة لإعلام أهل الدار بحلول وقت الصلاة[٧٤].

وازداد شغف الخلفاء بالقصور الفاخرة بعد المنصور، حيث عرف هارون الرشيد بميله إلى البذخ والترف وتشـــييد القصـــور وتزيينها وزخرفتها وتأثيثها بالفرش النادرة. وســـار ولداه الأمين والمأمون على نفس المنوال، حيث أصلح المأمون القصـــر الحسني، مضيفاً إليها ميداناً للخيل واللعب وساحات لجمع الحيوانات المختلفة، وصـــرف عليها مبالغ طائلة لتكون دار مقامه في بغداد[٧٥].

أما من أحدث ثورة في بناء القصـــور، وتخطى حدود المعقول، فهو الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٣٢هـ-٢٤٧هـ)، فقد كان له هوس عجيب في البناء، وكرس الجزء الأكبر من اهتمامه في الاستزادة من بناء القصور، وصـــــرف ثروات الدولة عليها، حيث أمر ببناء مدينة الجعفري، وأقطعها للقواد وأصحابه، وبنى قصـــراً شاهقاً له سماه لؤلؤة، وصـــرف ملايين الدراهم على شـــراء الأملاك المجاورة لها، واستعمل عشـــرة آلاف رجل لحفر نهر ينساب إلى مدينته، وبدأ يستنزف خزينة الدولة بمبالغ طائلة ليغذي هوسه بالبناء، إلى أن قتل، فخربت الجعفرية، ولم يتم أمر النهر[٧٦]. وكان هذا الخليفة لا يهتم بالمال في ســـبيل تحقيق رغباته، لذلك صـــــرف أغلب أموال خزانة دولته في بناء القصور الفخمة، التي بلغ عددها تسعة عشـــر قصـــراً، أنفق عليها مبالغ وأموالاً لا يكاد يصدقها العقل[٧٧]، ما يدفعنا إلى التســـاؤل حول مدى أهليته للحكم، ومدى اهتمامه بالأولويات الواجبة في حكمه، وندرك مدى استهتاره وهدره للمال العام في أمور غير ضـــرورية. علماً أن كل هذه القصور الكثيرة بناها في مدة زمنية قصيرة نسبياً لا تتجاوز خمسة عشرة سنة من حكمه.

واستمر الخلفاء بعده على المنوال نفسه في الاستزادة من القصور الفخمة، خصوصاً بعد انتقال مقر الخلافة إلى الجانب الشـــــرقي من بغداد، حيث اشـــتهرت القصـــور بأروقتها الواســـعة، وكثرة الحدائق والمتنزهات التي تحيط بها، وزخرفتها الخارجية والداخلية المميزة والمرصـــعة بالجواهر الثمينة وأنواع الفرش النادرة في ذلك الزمان، حيث بنى الخليفة

---

[١٣] الكارزوني، ظهير الدين، ١٩٦٢م، ***مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية***، تح: كوركيس عواد وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ص١٧.

[١٤] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ***تاريخ مدينة السلام***، م١، مصدر سابق، ص٤١٥.

[١٥] الطبري، محمد بن جرير، ***تاريخ الطبري***، مصدر سابق، ج، ص٢١٢.

[١٦] الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، ***الديارات***، مصدر سابق، ص٣٦٤.

المعتضد[٧٨] قصـــــراً من هذا القبيل سـماه (الثريا)، سـنة ٢٨٠هـ، بعد أن منع زراعة الرز وغرس النخل حول بغداد، وأوصله بالقصـــر الحسني، وبنى قصـــراً آخر فوق الشماسية سماه (الفردوس)[٧٩]. ثم قام المكتفي بالله[٨٠] بعده ببناء قصـــر (التاج) على دجلة، مضيفاً إليه القباب والمجالس الواسعة والعالية، ثم زاد المقتدر بعده في إضافاته[٨١].

ولم يختلف الخلفاء الذين جاءوا بعد ذلك عن ســابقيهم، بل زادوا في أســلوبهم المعتاد، فيصـف الخطيب البغدادي الأبهة التي كان يعيش فيها الخليفة المقتدر بالله[٨٢]، إلى درجة أن عدد الخدم العاملين في قصـــره؛ من صقالبة وروم وأفارقه، بلغ الآلاف. ويمكننا معرفة حجم وضخامة قصور الخلافة، وملحقاتها الكثيرة، من خلال زيارة وفد صاحب الروم لهذا الخليفة، حيث انبهر هذا الوفد من عدد جند الخلافة أمام أبواب القصـــور والأبواب والدهاليز والأروقة الكثيرة، التي عبروها إلى أن وصـلوا إلى قصـــــر التاج؛ محل جلوس الخليفة، فقد عبروا ثلاثة وعشـــرين قصـــراً، واستراحوا في سبعة مواضع، واستقوا الماء، وشـاهدوا الآلاف من قطع الأسـلحة المذهبة، والسـيوف والخوذ والدروع المعلقة، وآلاف الحراس والغلمان على جانبي الطريق[٨٣]، في مشهد يوحي للناظر بمدى الإسـراف في إظهار الترف والدعة والأبهة والعظمة، والكثير من المبالغة في إظهار الجانب المادي والكمالي لناظر

---

[١٧] أبو العباس أحمد بن أبي أحمد طلحة الموفق بن جعفر المتوكل، بويع له بالخلافة سنة ٢٧٩هـ وعمره سبع وثلاثون سنة، وهو أول من سكن القصر الحسني من الخلفاء على شاطئ دجلة، رممته زوجته بأجمل الفرش، وملأت خزائنه، ورتبت فيه الجواري والخدم، فلما فرغت انتقلت، وراسلته بالانتقال، فانتقل واستحسنه ووسع الدار وعمل عليها سوراً. الكازروني، ***مختصر التاريخ***، ص١٦٤.

[١٨] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، ***المنتظم***، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٣٦.

[١٩] المكتفي بالله هو أبو محمد علي بن أحمد المعتضد، بويع له بالخلافة سنة ٢٨٩هـ بعد وفاة والده المعتضد، وهو إذ ذاك في (الرقة) وعمره خمس وعشرون سنة، هدم المطامير التي بناها والده في القصر الحسني، وحوله إلى جامع يصلي فيه الناس، فصار الناس يأتون إليه يوم الجمعة فلا يمنعون من الدخول ويقعدون فيه إلى آخر النهار. فتحت في أيامه انطاكيا عنوة، وانتزعها من الروم. توفي سنة ٢٩٥هـ، وكانت مدة خلافته ست سنين وستة أشهر وعشرين يوماً. الأربلي، ***خلاصة الذهب المسبوك***، ص٢٣٧-٢٣٨.

[٢٠] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ***تاريخ مدينة السلام***، م١، مصدر سابق، م١، ص٤١٦.

[٢١] المقتدر بالله وهو أبو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد، بويع له بالخلافة سنة ٢٩٥هـ، يوم مات أخوه المكتفي، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يلي الخلافة قبله من هو أصغر سناً منه. وخلع مرتين ثم أعيد. قتل سنة ٣٢٠هـ وقد خرج لقتال مؤنس، وهو على فرسه، ودفن هناك، وأخفي قبره. الأربلي، ***خلاصة الذهب المسبوك***، ص٢٣٩.

[٢٢] البغدادي، المصدر نفسه، م١، ص٤١٧-٤١٨.

الضـــيوف، ويظهر ذلك من آلاف الســـتور المعلقة على الجدران، والديباج المذهبة بالطرز الجميلة المصورة بالفيلة والخيول والجمال والسباع، إضافة إلى البسط الراقية التي مددت في الممرات، والتي تقدر تكاليفها بعشـــرات الآلاف من الدنانير، سوى ما في المجالس من مختلف أنماط الأثاث الراقي[٨٤].

ومن الخلفاء المولعين بالبناء والإســـراف على تجهيزها الخليفة الراضي بالله[٨٥] (٣٢٢هـ-٣٢٩هـ)، فضلاً عن البذخ والإســراف في صــرف الهبات لمن يشاء بأسلوب غريب وعشوائي. فمما يروى عنه أنه بينما كان جالســاً مع ندمائه في موقع للبناء، أهدى ما قيمته وزن قطعتين من الآجر كان أحد ضــيوفه قد جلس عليهما، وما يعادل وزن الآجر الذي جلس عليه كل واحد من ندمائه في المجلس، دراهم ودنانير[٨٦]، مما يعني عشــرات الآلاف، وربما مئات الآلاف من الدنانير صـــــرفت من الخزينة العامة للدولة في لحظة نشــوة من قبل الخليفة. كما بنى الخليفة المطيع لله (٣٣٤هـ-٣٦٣هـ)[٨٧] عدة دور وقصــور في بغداد؛ منها دار الطواويس والدار المربعة والدار المثمنة[٨٨]. وقد توقف هذا الاندفاع الأعمى للخلفاء العباســيين نحو البناء في زمن البويهيين، الذين ســيطروا على مقاليد الأمور، وحددوا من سلطات الخلفاء، حتى باتوا تحت رحمة وزرائهم الذين حددوا راتباً شهرياً للخليفة، وبدأوا بدورهم بالانفراد ببناء القصور الفخمة لأنفسهم، منها الدار المعزية، التي بناها معز الدولة البويهي (٣٢٠هـ-٣٥٦هـ) في الجانب الشــرقي بجوار باب الشماسية، حيث صــرف في بنائها ما يقارب ثلاثة عشــر ألف ألف درهم[٨٩].

---

[٢٣] البغدادي، المصدر نفسه، م١، ص٤٢٠.

[٢٤] الراضي بالله العباسي: هو أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر بن المعتضد، بويع له بالخلافة سنة ٣٢٢هـ وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة وسبعة أشهر. كان جواداً، أديباً، وهو آخر خليفة قال الشعر المدون. توفي سنة ٣٢٩هـ، ودفن بالرصافة، فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام. ابن الكازروني، ***مختصر التاريخ***، ص١٨٠.

[٢٥] التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، ***نشوار المحاضرة***، مصدر سابق، ج١،ص٢٩٨.

[٢٦] المطيع لله أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر، بويع له بالخلافة سنة ٣٣٤هـ، وعمره يومئذ ثلاث وثلاثون سنة، وأصابته علة منعته من الحركة، فخلع نفسه غير مكره سنة ٣٦٣هـ، وولي ابنه الأكبر الطائع لله الخلافة بعده. توفي المطيع سنة ٣٦٤هـ وعمره ثلاث وستين سنة، ودفن بالرصافة، في تربة عملها لنفسه. ابن الكازروني، ***مختصر التاريخ***، ص١٨٩.

[٢٧] الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ***معجم البلدان***، مصدر سابق، م٢، ص٤٢٢-٤٢٣.

[٢٨] مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م، ***تجارب الأمم وتعاقب الهمم***، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ج٥، ص٣٢٩.

شـملت قصـور الخلافة، التي كانت تسـمى بحريم دار الخلافة، مسـاحات واسـعة من مدينة بغداد، يحددها صاحب (معجم البلدان) بثلث مساحة المدينة، وهو يتوسطها، وله سـور يبدأ من دجلة وينتهي إلى دجلة، كهيئة نصـف دائرة، وله عدة أبواب؛ أولها من جهة الغرب، ثم باب سـوق التمر الشـاهق البناء، الذي أغلق على يد الخليفة الناصر لدين الله، وعدة أبواب أخرى، ويمتد طول السور لأميال عديدة تحتضن دور الخليفة وحاشيته[٩٠].

وكانت دار الخلافة، في زمن الناصر لدين الله، واسـعة الأرجاء، وتقترب اسـتدارتها على الثلاثة أميال، تتوسـطها الحدائق ذات الأشـجار المثمرة، وفيها الكثير من الحيوانات، وأنواع الطيور، وبحيرة واسـعة يأتيها الماء من دجلة[٩١]. ولم يكتف هذا الخليفة بذلك، بل أمر أسـتاذ الدار أن يبني له داراً خارج بغداد، وأمره بالتعجيل في إنهائها، فتم البناء في فترة يسـيرة، بعد تجميع الصـناع والبنائين بكثرة لهذا الغرض. واسـتخدمه الخليفة للتنزه وقضـاء سـاعات الراحة واللهو برمي البندق بالمقلاع، بحيث كان يلبس ثياب الرماة، ويرمي مع جماعة منهم[٩٢].

ولم تتوقف شهية الخلفاء في الاستزادة من القصور، وجمع التحف والأثاث الراقي، وأواني الذهب والفضـة، في قصـورهم. ويكفي أن نذكر أن قيمة ما احترق في حريق دار الخلافة سنة ٦٠١هـ، أيام حكم الخليفة الناصر لدين الله، بلغ ثلاثة آلاف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار[٩٣]، على الرغم من أن هذا الخليفة كان مشـهوراً بالبخل والتركيز على المصـادرات وتحصـيل الأموال، حتى قيل عنه إنه خصـص بركة لوضـع الذهب فيها، وأودع فيها كميات ضـخمة منها لدرجة أوشـكت البركة على الامتلاء، فقال: ترى أعيش حتى إملائها؟[٩٤] فمات ولم يحقق أمنيته. فجاء بعده ابنه الظاهر بأمر الله، فأفرغ جزءاً كبيراً منها، وصـرفها في فعل الخيرات والخدمات، وسار عكس سيرة أبيه. ولكن سـرعان ما رجع حفيده المستعصم بالله (٦٤٠هـ-٦٥٦هـ) إلى ممارسـة هواية أغلب أجداده من خلفاء بني العباس في بناء القصور وتجميع كل التحف والمجوهرات النادرة داخلها، لدرجة أن الحريق الذي وقع سنة ٦٥١هـ في بعض دور الخلافة، أدى إلى إتلاف الكثير من التحف والأثاث النادر، وكان من

---

(٢٩) الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ***معجم البلدان***، مصدر سابق، م٢، ص٢٥١.

(٣٠) التطيلي، بنيامين، ***رحلة بنيامين***، مصدر سابق، ص٢٩٣.

(٣١) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، مصدر سابق، ص١٧٩.٩٢

(٣٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، ١٩٩٩م، ***دول الإسلام***، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ص٣١٩.

(٣٣) ابن الطقطقا، محمد بن علي، ***الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية***، مصدر سابق، ص٣٢٢.

جملة ما تم استخراجه من الأواني الذهبية والفضية من بين الأنقاض ما يزيد قيمته عن مائتي ألف دينار[٩٥]، أما ما أحرقته النار وأتلفته، فيعجز عن حصره، وبينما كانت هذه الدار تحترق بما فيها من كنوز وثروات، كان الخليفة المستعصم بالله مشغولاً ببناء قصره الجديد في منطقة المحول، بعد أن صرف عليها أكثر من مائتي ألف[٩٦]. وهذا ما يدعو إلى التساؤل والاستغراب، فمن المعلوم أن هذا الخليفة اضطر إلى صرف العساكر والجنود بسبب قلة المؤونة وشح الأموال في خزينة الدولة، بينما نرى استمرار البناء في قصوره، وصرف الأموال على مصالحه الشخصية، والتي تكلف مئات الآلاف من خزينة الدولة! وهذا ما يولد الانطباع أن الحياة، وكل ما كان في الدولة، إنما كانت تدور حول شخص الخليفة، والمجموعة الضيقة المحيطة به؛ من وزراء وقادة عسكريين وحاشية قصره والخدم، وأن الدولة تعتبر ملكاً شخصياً له، أما الشعب والأمة فمجرد مماليك ورعايا تحت يده، يفعل بمقدراتهم ما يشاء دون رقيب أو حسيب، فهو قد يكرم خادمه لسبب بسيط وتافه بمبلغ من المال يكفي لإعاله أسرة عادية داخل بغداد لسنين طويلة، وقد ينعم على شاعر لأجل قصيدة تمدحه وتمجده، بأموال تكفي لدفع رواتب معلم في المدرسة المستنصرية لسنين طويلة.. وبطون المصادر التاريخية تشير إلى العديد من هكذا مواقف، والتي تؤكد على أن هؤلاء استباحوا أموال الدولة لأنفسهم، يتصرفون بها، ويتنعمون بها كيفما يشاؤون، دون رادع أخلاقي أو شرعي، في حين كان الشعب يكدح ويتحمل أعباء الحياة وبؤسها في سبيل توفير لقمة العيش، ويدفع المكوس والضرائب التي تفرضها الدولة عليه، لتذهب تلك الأموال إلى الخزينة العامة، التي هي ملك مشاع للحاكم الأوحد وحاشيته.

وليس من الإنصاف القول إن هذا كان شأن كل خلفاء بني العباس، إلا أنه كان - على ما يبدو - السمة الغالبة لأكثرهم.. فالخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢هـ-٦٢٣هـ)، التي كانت مدة خلافته أقل من سنة، صرف أموالاً طائلة على بناء جسر كبير على دجلة يربط بين جانبي المدينة، حيث كان لبغداد منذ ما يقارب القرنين جسر واحد فقط[٩٧]. أما ابنه الخليفة المستنصر فسار في الناس سيرة حسنة مثل أبيه، حيث بنى منشآت خدمية كثيرة

---

[٣٤] الغساني، الأشرف، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٥٩٤.

[٣٥] ابن الفوطي، ***الحوادث الجامعة***، مصدر سابق، ص٢٠٧. الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٥٩٤.

[٣٦] ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ***التاريخ الصالحي***، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ج٢،ص٢٩٠.

داخل العاصمة بغداد؛ من بناء الربط والخانات والقناطر من سائر الجهات، حتى أنه بنى بكل محلة من مناطق بغداد دار ضيافة للفقراء، وكان يعتق الجواري اللاتي بلغن الأربعين، ويجهزهن ويزوجهن، ويساعد الأرامل والأيتام وذوي الحاجات[٩٨]. ومن أعظم إنجازاته الحضارية على الإطلاق بناء المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافاً جليلة على أنواع البر[٩٩]، والتي كانت بحق صرحاً حضارياً رائداً قل نظيره في العالم حينذاك. وقدمت هذه المؤسسة خدمات علمية وحضارية جليلة للأمة، واحتضنت في أروقتها أكابر العلماء وفقهاء الدين في ذلك العصر، وصارت قبلة لطلبة العلم في العالم الإسلامي. ومن المهم أن نفتخر بإنجاز من هذا النوع لحاكم مسلم، عاش في فترة زمنية كانت السمة الغالبة على حكامها ما نحن بصدد كتابته في هذا المبحث.

**ثانياً: البذخ والترف في المناسبات العامة والخاصة:**

كانت الأعياد من المناسبات التي يشارك بها الخليفة وأعيان المجتمع وكبار رجال الدولة الناس في فرحتهم، إلا أن طبيعة هذه المشاركة تعطينا انطباعاً عن مدى سيطرة المظاهر البراقة والكاذبة والأبهة والاهتمام بالفخفخة على نفوس هؤلاء القوم، فموكب الخليفة الذي كان يخرج للناس، ويعبر الشوارع والطرقات، في أبهى زينة وأجمل ملبس، كان كالسيل في جمع من نجوم الليل كما يوصف، حيث يرتدي الخليفة بردته المقصبة بفضة وذهب، وفوق القلنسوة قطعة قماش مرصعة بالأحجار الكريمة التي لا تقدر بثمن، وتزين الطرقات والأسواق التي يمر عبرها بالقماش الحرير ذي الألوان الزاهية[١٠٠]، ويتجمع الناس على جانبي الطريق لمشاهدة موكبه، يرافقه العساكر المدججين بالسلاح والخيول النادرة التي يمتطيها هو وكبار موظفي الدولة في أبهى صورة وأجمل زينة، وكذا الحال لثلاثة أيام متتالية[١٠١].

---

(٣٧) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، ***البداية والنهاية***، مصدر سابق، ج١٣، ص١٥٩.

(٣٨) أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل، د.ت، ***المختصر في اخبار البشر***، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ج٣، ص١٧١.

(٣٩) التطيلي، بنيامين، ***رحلة بنيامين***، مصدر سابق، ص٢٩٦.

(٤٠) ابن الكازروني، ظهير الدين، ***مقامة في قواعد بغداد***، ص٢٦.

ويبدو أن هذه المراسيم والمظاهر شغلت الناس كثيراً، إلى درجة أنهم كانوا حريصين على حضورها، خصوصاً في صبيحة العيد، حيث يتزينون بأجمل الملابس لحضور صلاة العيد[١٠٢]، حيث يتواجد هناك الخليفة وكبار رجال الدولة. وبعد انتهاء الصلاة في المسجد الجامع، يعود الخليفة إلى داره لاستقبال المهنئين[١٠٣]، وتتخلل مقابلة الناس للخليفة سلوكيات تنم عن المبالغة في تقديس شخصه؛ من تقبيل اليد، ولثم بردته، وتقبيل الأرض بين يديه بما يشبه السجود[١٠٤]، وكلها سلوكيات غير اعتيادية تنم عن حالة من جنون العظمة التي كان يعيشها هؤلاء الخلفاء، وضخامة هالة التقديس التي أحاطوا أنفسهم بها، وهو في حقيقة الأمر كان مجرد وهم لا يغني عنهم شيئاً على أرض الواقع، عسكرياً ولا سياسياً، خارج حدود مدينتهم. فأمير واحد – مثلاً – من أمراء الأقاليم المجاورة في الشام، يمكن أن يمتلك سلطة سياسية وعسكرية وجغرافية أكبر من خليفة بغداد، الذي لا يملك سوى مدينته وبعض القصبات الأخرى القريبة التابعة لها، وليس له سلطة فعلية على أي من الأقاليم المجاورة، إلا أنه الترف والظلم والانغماس في الشهوات، الذي أفسد النفوس والفطرة البشرية.

كانت بعض الأعياد مناسبة للخلفاء لتوزيع الهدايا والإكراميات على حاشيتهم والمقربين منهم، ففي سنة ٦٢٣هـ أمر الخليفة الظاهر بأمر الله، في ليلة العيد، بالتصدق بمائة ألف دينار[١٠٥]. وفي عيد الفطر من سنة ٦٣٧هـ، وزع الخليفة المستنصر بالله ثلاثة عشر ألف هدية وخلعة من القمصان الراقية على مماليكه والوزير وكافة الأمراء في دولته، فعمت الهدايا خلقاً كثيراً في المجتمع[١٠٦]. وكانت هذه المظاهر والمراسيم في العيد – أحياناً – سبباً في تأخير صلاة العيد، مثلما حدث في سنة ٦٤٤هـ، حيث انشغل الأمراء والقادة وعامة الناس بالخروج إلى ظاهر البلد على مواكب وأرتال، كل أمير يخرج مع حراسه وحشمه بأبهى صورة وأجمل زينة، فما زالوا مجدّين في الخروج إلى ما بعد المغرب، إلى أن خرج موكب الخليفة متزيناً بأبهى صورة بما يشبه الاستعراض العسكري، وكان الوقت بعد الغروب،

---

(٤١) ابن النجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود، ***ذيل تاريخ بغداد***، مصدر سابق، ج٢، ص٥.

(٤٢) ابن الكازروني، نفس المصدر، ص٢٦.

(٤٣) التطيلي، بنيامين، ***رحلة بنيامين***، مصدر سابق، ٢٩٥.

(٤٤) ابن تغري بردي، ***النجوم الزاهرة***، مصدر سابق، ص٢٦٥.

(٤٥) الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٤٩١.

فاضطر الإمام أن يصلي صلاة العيد بالناس قضاءً[١٠٧]. وكانت مواكب الخلفاء تنار بالأضواء والشموع الموكبية الكبيرة، التي يحملها مئات الفراشين، ويرافقهم النفاطون من حاملي مشاعل النفط، في مشهد مهيب[١٠٨].

وكان الناس أحياناً يبتكرون بعض العادات الطريفة بعد المناسبات الدينية الرئيسة، كما فعل سكان بغداد عندما مارسوا عادة دفن العيد، وهي عادة هزلية يمارسها البغداديون بعد أسبوع من العيد لغرض المتعة والضحك، حيث يخرج الناس، وعلى رأسهم رؤساء المحال، في الرياض والحدائق، للتنزه والفرجة، مدعين دفن العيد، ويأتون بشخص يكفنونه كالميت، ويلعبون معه ويضحكون[١٠٩]. وكان من طباع أهل بغداد الاستمتاع بأوقاتهم، وفيهم روح الدعابة وحب التنزه، حيث يخرجون إلى الحدائق والبساتين الخضراء، خاصة أيام الربيع، ويصطحبون معهم عوائلهم وجواريهم للفسحة وقضاء الأوقات على ضفاف النهر والبساتين الخضراء[١١٠]. وأراد الخليفة الناصر لدين الله مشاركة العامة هذه الاحتفالات، فأمر بدفن العيد سنة ٥٨٠هـ في أحد البساتين القريبة من قصره، فتجمع عدد كبير من الأهالي لهذه المناسبة، وجاءوا بالشخص المكفون يبكون عليه، والبعض الآخر يضحك، ثم يلقونه في الماء، والخليفة ينظر إليهم من شباك قصره، ويضحك عليهم، فينزل متقدم الفراشين ومعه مائة دينار إمامية لمقدم العوام قائلاً له هذه مائة دينار لأجل الميت، فحينئذ يقوم الميت المكفون، فيتصارخ الناس ويضحكون. وكان على سطح الدار مجموعة من المماليك الخواص، فخرجوا بعد انتهاء الحفلة بأحصنتهم وسرجهم المذهبة، وعليهم ملابس مزركشة زاهية، فكان أهل بغداد يتفرجون عليهم ويقولون: "كنا نتفرج على الميت، فلم لا نتفرج على هؤلاء الملائكة الذين قد خرجوا"[١١١].

كما كان لكبار رجال الدولة موعد سنوي مع قبور الخلفاء في (الرصافة)، حيث يركب الخليفة والوزير والأمراء والصدور والكبراء في مواكب مهيبة، مليئة بالأبهة والترف، إلى

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص٥٤٣.

(٤٧) الصابيء، أبو الحسين هلال بن المحسن، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ***رسوم دار الخلافة***، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ص١٠.

(٤٨) الأيوبي، محمد تقي الدين عمر، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، ص١٨٨.

(٤٩) ابن الكازروني، ظهير الدين، ***مقامة في قواعد بغداد***، مصدر سابق، ص٢٧.

(٥٠) الأيوبي، محمد تقي الدين عمر، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، ص١٨٨.

مقبرة دار الخلافة في الرصافة، فيجتمعون للقراءة والدعاء وإهداء الثواب للخلفاء، وتستمر المراسيم طول النهار والليل، حيث توزع الحلوى وأطايب الطعام بغزارة[١١٢].

كما يعتبر الزواج لدى الطبقة الخاصة من المناسبات الأخرى التي تتجلى فيها مظاهر الترف والبذخ، حيث تصرف فيها الأموال الطائلة، وتنثر على الحضور، وكانت الهبات الكبيرة تمنح في مناسبات كهذه، فقد وهب المستنصر بالله لأحد مماليكه المختصين، ليلة زواجه بابنة صاحب الموصل، مبلغ مائة ألف دينار، وكان الصداق مقداره عشرون ألف دينار، وكانت له أملاك تدر عليه مائتي ألف دينار في السنة[١١٣]. وتميزت الزيجات بين أبناء الطبقة العليا بالصداق الكبير، والمبالغ الضخمة التي تنثر في حفلات الزفاف، ففي سنة ٦٣٧هـ بلغ صداق عقد قران أحد الأمراء مبلغ عشرة آلاف دينار[١١٤]. وقبل ذلك، وفي سنة ٦٣٢هـ، كان زواج الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك[١١٥]، وهو من كبار أمراء بغداد، من ابنة بدر الدين لؤلؤ؛ صاحب الموصل، بصداق بلغ قدره عشرون ألف دينار، وهدايا وجواهر عظيمة رافقت هذه الزيجة، وأقيمت ولائم كبيرة، وتم توزيع الخلع على الحضور[١١٦].

كما كانت حفلات ختان أولاد الخلفاء من المشاهد المميزة والمثيرة للانتباه في المجتمع البغدادي، ابتدأها الخليفة الناصر لدين الله بختان ولديه، وبحضور كبار رجال الدولة والأمراء والخواص، وقام بنثر أموال لا تحصى ولا تعد لكثرتها، كما أمر بحضور المغنين والمطربين وأصحاب الملاهي، واستمرت الاحتفالات والفعاليات لسبعة أيام متتالية، وفي اليوم السابع وزع الناصر الخلع والهدايا على خواصه والأمراء، وأنشد الشعراء القصائد الخاصة بهذه المناسبة السعيدة[١١٧]. وفي سنة ٦٢٤هـ ختن ولدا الخليفة الظاهر بأمر الله، في حضور حافل للأمراء وكبار الرجالات في الدولة، وأفيضت الخلع والهدايا على خلق كثير من

---

(٥١) الكازروني، ظهير الدين، ***مقامة في قواعد الدولة العباسية***، مصدر سابق، ص٢٦.

(٥٢) القدحات، محمد عبد الله أحمد، ***الحياة الاجتماعية في بغداد***، مرجع سابق، ص٧٧.

(٥٣) الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٤٩١.

(٥٤) مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير، مقدم جيوش العراق، زوج بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. كان شجاعاً، وله رغبة في الكيمياء، له دار فيه عدة رجال يعملون في هذه الصناعة. قتل على يد المغول أيام غزو بغداد سنة ٦٥٦هـ. الذهبي، ***تاريخ الإسلام***، وفيات عام ٦٥٦هـ، ص٢٨١.

(٥٥) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، ***الحوادث الجامعة والتجارب النافعة***، مصدر سابق، ص٧١.

(٥٦) الأيوبي، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، نفس المصدر، ص٧٥.

الخدم والأطباء ومؤدب الأميرين؛ ولدي الخليفة[١١٨]. ولم يختلف الأمر كثيراً، من حيث التفاصيل، في مراسيم ختان ابني الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٤٤هـ، حيث وزعت الهدايا والإكراميات على الخدم الفراشين والبوابين وحاشية دار التشـــريفات، وعددهم أكثر من أربعمائة، ونثرت آلاف الدنانير بهذه المناسبة، وحضـــر المغنون، الذين أكرموا بمبلغ عشـــرة آلاف دينار[١١٩].

وفي سنة ٦٤٤هـ حمل شقيق الخليفة المستعصم بالله، بمراسيم خاصة، في محفة مغشاة بأسود، يحملها مملوكان من مماليك قائد الجيش الشرابي، الذي كان هو وجماعة من كبراء الأمراء والخدم والغلمان بين يدي شقيق الخليفة، وحمل معه مبلغ عشـــرة آلاف دينار، وثياباً بقيمة آلاف الدنانير، وزعت على الحضور، فأعطي اثنان من الأمراء المتواجدين مبلغ ثلاثة آلاف وبقجة فيها ثياب فاخرة لكل واحد منهما[١٢٠]. وهكذا كانت ثروات الدولة ودنانيرها تفرق وتنثر في المناسبات الخاصة بالطبقة الحاكمة دون رقيب أو حسيب. وفي الوقت الذي كان المغول قد اقتربوا من تخوم بغداد، ووصـــل تهديدهم إلى عقر دارهم وعاصمتهم، كان آل العباس وحاشيتهم، ومن يدور في بلاطهم، مشغولين بصـــرف الجنود، وتقليل عددهم، بحجة وجود أزمة مالية وقلة سيولة، بينما كانت عشـــرات الآلاف من الدنانير والذهب تنثر وتهدر في أمور تافهة لا جدوى منها.

**ثالثاً: البذخ والترف لدى حاشية الخليفة وكبار رجال الدولة والأمراء:**

تغلل الأمراء ورجال الدولة ومماليك البيت العباسي، وخدم وحشـــم قصـــور الخلفاء، في مفاصل الدولة، فسيطروا عليها، وكرسوها لخدمة مصالحهم الشخصية، حتى تكونت طبقة ارستقراطية مترفة ومهيمنة على الدولة العميقة، فزادت ثروتهم وإمكاناتهم وسلطتهم، إلى درجة لا يكاد المرء يصدقها.. فمملوك مثل علاء الدين الطبرسي الظاهري، على سبيل المثال، كان الربح والوارد الســنوي الذي يصــله من أملاكه نحو ثلاثمائة ألف دينار، بل كانت داره من أجمل الدور السكنية في بغداد كلها[١٢١]، وكان يمتلك نخبة من الخيول العربية الأصيلة،

---

[٥٧] الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٤٣٠.

[٥٨] الغساني، ***العسجد المسبوك***، المصدر السابق، ص٥٤٤.

[٥٩] ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب علي، ***تاريخ ابن الساعي***، مصدر سابق، ص٣٥٠.

[٦٠] علاء الدين أبو شجاع الطبرسي بن عبد الله التركي الظاهري الأمير، اشتراه الإمام الظاهر بأمر الله، وحصل له القرب والاختصاص، ولما بويع للمستنصر بالله قرّبه واجتباه وجعله برسم حمل الدواة وأمره،

والتي أهدى عشـرة منها لشقيق زوجته القادم من الموصل، بعد أن عمل له دعوة جميلة، وأهداه أيضاً عشـــرة أكياس من أنواع الثياب الغالية، وخمسة آلاف دينار[١٢٢]. وهو الذي أهداه الخليفة المستنصـر بالله، في ليلة دخوله بزوجته، مائة ألف دينار[١٢٣]، واجتمع له في ليلة زفافه من أواني الذهب والفضـة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار، وبلغ من الجاه الوفير ما جعله يترفع على وزير الدولة، الذي هو الشـخص الثاني في الدولة بعد الخليفة، وينوب عنه[١٢٤].

أما شـرف الدين إقبال الشـرابي، فكان من الشخصيات التي حظيت بسمعة عسكرية طيبة في بغداد، بعد انتصـاراته على عسـاكر المغول، إلا أنه كان أيضـاً من أصـحاب المال الوفير، لدرجة أنه أهدى أحد ضـيوفه من الأمراء، وأصـحابه، بذهب كثير وخيول وتحف وهدايا[١٢٥]. وعندما ختن ولدا الخليفة سنة ٦٤٤هـ، نثر الشـرابي ألف دينار، وثياباً قيمتها خمسمائة دينار[١٢٦].

وكانت الخلع والهدايا والعطايا تنهال على أفراد هذه الشـريحة باستمرار، ففي سنة ٦٤٢هـ استدعى الخليفة المستعصم بالله أمير الحج مجاهد الدين أيبك[١٢٧] إلى دار الخلافة، فكسـي كسوة فاخرة، ومنح سيفين، وفرساً عربياً بعدّة كاملة، ومركب ذهب، مع مبلغ عشـرة آلاف دينار، وخلع على مماليكه بأجمل كسوة[١٢٨]. علاوة على ذلك، كان للأمراء رواتب معيشة، وصلت إلى خمسة آلاف دينار[١٢٩]، بينما كانت المخصصات المالية للأمير عز

---

في المحرم سنة ٦٢٥هـ. ورغب فيه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أن يكون صهره، فأذن له في ذلك، وأقطع قوسان، وتأثلت حاله، وكثر ماله. (ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، ص٩٩٩).

(٦١) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، ***الحوادث الجامعة***، مصدر سابق، ص٧٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ص٨٦.١٢٣

(٩٣) الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٦٣٣.

(٦٤) ابن الفوطي، ***الحوادث الجامعة***، المصدر نفسه، ص٧٧.

(٦٥) الغساني، ***العسجد المسبوك***، ص٥٤٤.

(٦٦) مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير، مقدم جيوش العراق، زوج بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. تقدمت ترجمته. الذهبي، ***تاريخ الإسلام***، وفيات عام ٦٥٦هـ، ص٢٨١.

(٦٧) الغساني، نفس المصدر، ص٥٢٧.

(٦٨) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، ***مجمع الآداب في معجم الألقاب***، مصدر سابق، م٣، ص٣٨٤.

الدين قراجة المستنصـــري، سنة ٦٤٥هـ، ألف دينار، وعدّته خمسون فارساً[١٣٠]، وكذلك كان العديد من نظرائه.

كانت الفروقات في توزيع الثروة واضـحة، وفيها الكثير من الحيف والظلم، فثروة موظف بسيط في قصـــر الخلافة، وهو رئيس الفراشين، بلغت حداً جعلته من المنعمين في المجتمع، ويتشبه بالملوك في أسلوب حياته داخل داره الفخمة، حيث يصـــرف مئات الدنانير شهرياً على الخدم، والجواري، وتربية الطيور على سطح منزلـــه[١٣١]. أما جواري دار الخلافة، فكن يعشـــن في مســـتوى عالٍ من الثراء والنعمة، إلى درجة أن الواحدة منهن كانت تحمل معها جواهر وحلي تساوي آلاف الدنانير، حصلت عليها كهبات وهدايا وعطايا من الخليفة. ولك أن تتخيل أنه في سنة ٦٤٩هـ غرقت سفينة في دجلة، تحمل على متنها إحدى عشـرة جارية من جواري دار الخلافة، وكن فيها على ســـبيل التنزه والفرجة، وكان عليهن من الجواهر والحلي والذهب ما قيمته مائة ألف دينار، فغاص الغواصـون، وطرحت الشـبكات، فوجدوا البعض منها، أما الجواري ومعهن خادم فهلكن جميعاً[١٣٢].

بل وصـــل البذخ والترف والبطر إلى التفاصـيل المتعلقة بغســـل الميت، فعندما توفي أخو الخليفة الناصر لدين الله تم غسَـله وكفنه، وكان من جملة ما أخذه الفراش من سـلبه؛ من أثاث وقماش وفضة ومسند زركش وطرحة مزركشة والطاسات الفضية، يساوي عشـــرة آلاف دينار[١٣٣]. بل وصـــل الأمر لدى نســـاء دار الخلافة أن يزينوا أحذيتهن باللؤلؤ، فعندما توفيت العباسة - إحدى زوجات والد الناصـــر لدين الله - خلفت أموالاً كثيرة وأثاثاً فاخراً وقبقاب وثوب كبير الأكمام وحذاء، كلها مزينة باللؤلؤ[١٣٤].

كانت دار الخلافة هي أعلى مؤسسات الدولة، وهي بمثابة القصـــر الجمهوري أو الديوان الملكي في الوقت الحالي، وكان الخليفة على رأسـها، وتضـم الموظفين والخدم والحشـم وأفراد عائلة الخليفة وحاشـيتهم، وكانت المصـاريف والحاجات اليومية لهذه المؤسـســة تأتي من

---

(٦٩) كان عز الدين قراجة من الأمراء الذي تقربوا من المستنصر، واستدعي إلى دار الوزير، وخلع عليه، وتولى الشحنة بدجيل. وكان جميل السيرة. توفي سنة ٧٤٥هـ. ابن الفوطي، ***مجمع الآداب ومعجم الألقاب***، م١، ص٢٨٠.

(٧٠) ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق، ***الحوادث الجامعة والتجارب النافعة***، مصدر سابق، ص١٩٦.

(٧١) الغساني، ***العسجد المسبوك***، مصدر سابق، ص٥٨١.

(٧٢) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، مصدر سابق، ص١٢٤.

(٧٣) الأيوبي، المصدر نفسه، ص١٢٤.

المخزن التابع لبيت المال، حيث ارتفعت المصاريف السنوية من ستين ألف دينار، أيام حكم الناصر لدين الله، إلى المائتي ألف دينار، وحتى أوائل سني خلافة المستنصر بالله[١٣٥].

أما حاجات المطبخ الخاصة بقصور الخلافة، فقد شملت أطناناً من المواد الغذائية، وكل ما يحتاجه الطباخ لإعداد الوجبات الغذائية لموائد دور الخلافة.. ولك أن تتخيل أن المواد الغذائية التي حملت من المخزن العام إلى مطبخ دار الخلافة في شهر ذي الحجة من العام ٦٤٤هـ، شملت (١٠٠ رطل من الخبز، و ٢٩٠٠ دجاجة، و١٤٠٠ رطل سكر، و ٣٩٠٠ مقلوبة، و ٥٠٠٠ رطل شمع، و ٦١ موكبية، و٧٠ ظرف ماء ورد، و ٣٠٠ إبريق خزف، و ٢٠٠ جرة، و٥٠ صحن مهلبية، و ٣٠٠ سلة فاكهة، وحملان وكبش الجبل وزرافة وكباش تركية، وغيرها من المواد[١٣٦].

وتعود هذه الآلية، وهذه الرسوم، إلى زمن الخلفاء السابقين، الذين دأبوا على توفير مصروف قصورهم ونفقاتهم الباهظة من الخزينة العامة للدولة. فعلى سبيل المثال، كانت مصاريف السنة الواحدة لقصر الخليفة المعتضد بالله، ونفقات المطبخ، وكراع الطير والحيوانات الأخرى، تصل إلى خمسمائة ألف وثمانية وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً[١٣٧]. وهذه المصاريف العالية كانت تصرف على حاشية القصر، والجواري، وقاطنيه من العمال والرقيق والفراشين والخدم، ويتم طبخ أشهى الأكلات وتقديمها في موائد القصر. بينما وصلت النفقات السنوية لأمّ الخليفة المقتدر، واسمها شغب، والأمراء والحرم والخدم التابعين لها، إلى سبعمائة ألف وثلاثة وأربعين ألفاً ومائة وستة وتسعين ديناراً[١٣٨].

وكانت موائد الخلفاء والطبقة الحاكمة مليئة بالأطباق الشهية والغالية، وتعكس الهوة الموجودة بين هذه الطبقة المترفة بأموال الدولة، على حساب الطبقات الكادحة وعامة الناس. حيث كانت الأكلات التي تقدم على موائدهم غير موجودة بتاتاً على موائد أغلب أفراد الشعب، وقد تفنن طباخو دار الخلافة في الطبخ بمختلف أنواعه، وأعدوا أطباقاً مميزة لأسيادهم الخلفاء وحاشيتهم، وكانت لحوم الحيوانات والطير تمثل العنصر الرئيسي في تكوينها[١٣٩]، منها على سبيل المثال أطباق السكباج والإبراهيمية والحماضية وزيرباج

---

(٧٤) القدحات، محمد عبد الله أحمد، ***الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير***، مرجع سابق، ص٦٨.

(٧٥) ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب علي، ***تاريخ ابن الساعي***، مصدر سابق، ص٣٥٠.

(٧٦) الصابئ، أبي الحسين هلال بن المحسن، ***رسوم دار الخلافة***، مصدر سابق، ص٢٢.

(٧٧) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٧٨) الأزدي، محمد بن أحمد، ***حكاية أبي القاسم البغدادي***، مصدر سابق، ص٤١.

وغيرها من أطباق الطبقة العليا والأغنياء[١٤٠]، التي يشـــكل اللحم بأنواعه، والمنكهات والتوابل، مكوناً رئيســـاً من مكوناتها، في حين كان طعام الفقراء وعامة الناس في بغداد، بســيطاً يعتمد على الحبوب بالدرجة الأســاس؛ كالباقلاء، وعلى لحوم البقر الغليظة التي لا يرغبها الأغنياء، كونها تؤدي إلى خلق مشـاكل في الهضـم، فضـلاً عن الشـلجم والأرز والماش والعدس وبطون الماشية وأمعائها والكوارع والرؤوس، في حال توفرها[١٤١].

وتقدم أنواع الأشـــــربة في مجالس الخلفاء والأمراء من قبل الموظف المختص بذلـــــك، ويسمى الشرابي، حيث يقدم الأشـربة المعمولة من السكر والفواكه، بأواني الصيني الفاخرة، أو المصنوعة من اللازورد، وغيرها من الآنية الغالية[١٤٢]. وكانت موائد بغداد تتزين بأنواع، منها الحلواء بنوعيها الرطب واليابســـة[١٤٣]، كذلك الفســـتقية، التي تعمل من خلال طرح الفستق على محلول السكر المغلي والمخلوط بالعسل وبعض المنكهات الأخرى[١٤٤]، إضافة إلى حلوى الصـــابونية من الســـكر واللوز والعســـل والمنكهات الأخرى، وحلوى المكشـــوفة المصنوعة من اللوز والفستق والسكر وبعض المنكهات الأخرى[١٤٥]، والفالوذج الذي يتكون من الســكر والماء واللوز؛ المدقوق دقاً ناعماً، والمعجون عجناً قوياً، ثم يصـف في صـحن أو طبق، بعد أن يعمل منه أوســاط ويســتعمل[١٤٦]. وقد وصــل مطبخ دار الخلافة، في شــهر واحد، ٩٠٠ رطل من الفستق والبندق، و ٣٠٠ و ٣٠ قطعة صور سكر غزال[١٤٧]. ولم ينس هؤلاء أن يزينوا موائدهم بالمكســرات والمأكولات الخفيفة؛ كالقند واللوز وحب الرمان[١٤٨]، فضــلاً عن الفطائر ولقم القاضي والرطب المعســل[١٤٩]، وأنواع المحليات والأطايـــــب من المأكولات التي كانت متوفرة تحت أيديهم.

---

(٧٩) الكاتب البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م، ***كتاب الطبيخ***، مطبعة أم الربيعين، الموصل، ص١٣.

(٨٠) الأزدي، محمد بن أحمد، ***حكاية أبي القاسم البغدادي***، مصدر سابق، ص٤٤.

(٨١) القلقشندي، أبي العباس أحمد، ***صبح الأعشى***، مصدر سابق، ج٤، ص١٠.

(٨٢) ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب علي، ***تاريخ ابن الساعي***، مصدر سابق، ص٢٥٠.

(٨٣) الكاتب البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد، ***كتاب الطبيخ***، مصدر سابق، ص٧٥.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٨٥) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٨٦) ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب علي، ***تاريخ ابن الساعي***، مصدر سابق، ص٢٥١.

(٨٧) المصدر نفسه، ص٢٥١.

(٨٨) الكاتب البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد، ***كتاب الطبيخ***، مصدر سابق، ص٨٠.

كل هذا العز والترف والفخفخة الكاذبة والأبهة والتكبر انتهى خلال أيام معدودة، حيث سلط عليهم هولاكو سيفه، وتم ضرب عنق معظم هؤلاء الأمراء والأعيان والوزراء والقضاة والقادة في يوم واحد أمام خيمة هولاكو على أسوار بغداد، بعد تجمعيهم خلال استسلام العباسيين. أما البقية، فذبحوا بعد ساعات أثناء دخول المقاتلين الغزاة داخل بغداد، وأحرقت بيوتهم، وسبيت بناتهم وأولادهم وجواريهم والخدم، وباتت جنانهم التي كانوا يرتعون فيها، خلال يوم وليلة، رماداً يحكي قصة قوم لم يقدروا نعمة الله، فطغوا وأسرفوا، فكانت العاقبة التي لا تحيد، وفق سنن الله؛ وهي الهلاك: {**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) هود. الآية ١١٦**❐

## قائمة المصادر والمراجع


١. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ***النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة***، دار الكتب، القاهرة، ج٦.

٢. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، ***المنتظم في تاريخ الملوك والأمم***، تحقيق ومراجعة: محمد عبد القادر عطا وآخرون، ط٢، ج٧، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ***مقدمة ابن خلدون***، تحقيق: سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.

٤. ابن خلدون، عبد الرحمن، ***تاريخ ابن خلدون***، ضبط ومراجعة: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت لبنان، ج٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٥. الأربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو، ***خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك***، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٤م.

٦. الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر، *حكاية أبي القاسم البغدادي*، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٧م.

٧. ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب علي، ***تاريخ ابن الساعي***، تح: محمد عبد الله القدحات، دار الفاروق، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٨. الأصفهاني، أبي فرج علي بن الحسين، ***كتاب الأغاني***، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط٢، م٩، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٩. ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، ***الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية***، دار صادر، بيروت.

١٠. ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق، ***الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في*** *المائة السابعة*، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

١١. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، ***مجمع الآداب في معجم الألقاب***، تح: مصطفى جواد، دار الكتب الظاهرية، دمشق، ج٤، ق١.

١٢. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ***البداية والنهاية***، مكتبة المعارف، بيروت، ج١٢، ١٩٩١م.

١٣.ابن النجار، ***محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود***، د.ت، ذيل تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج٣.

١٤. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر، ***التاريخ الصالحي***، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
١٥. الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ***مضمار الحقائق وسر الخلائق***، تحقيق: حسن حبشى، عالم الكتب، القاهرة.
١٦. أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل، ***المختصر في أخبار البشر***، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ج٣.
١٧. البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي الخطيب، *تاريخ بغداد*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
١٨. البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت، ***البخلاء***، اعتنى به: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ج٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
١٩. التطيلي، بنيامين بن يونة، ***رحلة بنيامين التطيلي***، عرَبها (عزرا حداد)، دراسة وتقديم (عبدالرحمن عبدالله الشيخ)، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات، ٢٠٠٢م.
٢٠. التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، ***نشوار المحاضـرة وأخبار المذاكرة***، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ج٢، ط٢، ١٩٩٥م.
٢١. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ***معجم البلدان***، دار صادر، بيروت، م١، ١٩٧٧م.
٢٢. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، ***دول الإسلام***، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ١٩٩٩م.
٢٣. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، ***تاريخ الإسلام***، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٢٤. الزبيدي، محمد مرتضى، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٤٠١هـ-١٩٨٦م، باب الفاء، ج٢٣.
٢٥. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد، ***الديارات***، تح: كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ط٢، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
٢٦. الصابىء، أبو الحسين هلال بن المحسن، ***رسوم دار الخلافة***، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٧. الطبري، محمد بن جرير، ***تاريخ الأمم والملوك***، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ج٧، ١٩٧٥م.
٢٨. الغساني، إسماعيل بن العباس، ١٩٧٥، ***العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك***، تحقيق: (شاكر محمود عبد المنعم)، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥م.
٢٩. القدحات، محمد عبد الله أحمد، ***الحياة الاجتماعية في بغداد في العصـر العباسي الأخير***، دار البشير، عمان، ٢٠٠٥م.
٣٠. القلقشندي، أبو العباس أحمد، ***صبح الأعشى***، المطبعة الاميرية، القاهرة، ج٢، ١٩١٨م.
٣١. الكاتب البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد، ***كتاب الطبيخ***، مطبعة أم الربيعين، الموصل، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.
٣٢. الكارزوني، ظهير الدين، ***مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية***، تح: كوركيس عواد وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٢م.
٣٣. مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، ***تجارب الأمم وتعاقب الهمم***، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ج٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م.

# الطاعات
# وأثرها في الصلح والإصلاح

**د. دحام إبراهيم الهسنياني**

### ✍ أولاً: الصلاة وتأثيرها في الإصلاح

أبرز السمات الأخلاقية للمجتمع المسلم ذلك الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق، إذ إن العبادة تزكي نفس صاحبها، وتوجه سلوكه توجيهاً شفافاً متورعاً عن الحرمات، وتهذب أخلاقه وتقومها باستمرار.

لذلك للطاعات أثر بالغ في التقليل من النزاعات والخصومات بين الناس، وذلك لأن الغاية من الطاعات تقوية الجانب الإيماني في الإنسان حتى يقرب به من الخير، ويبعد عن الشر، وعلى ذلك فالطاعة، والتذكير بها، والتركيز عليها، من لوازم الإصلاح بين الناس.

إن للصلاة تأثيراً كبيراً في تثبيت القيم الأخلاقية، فهي التي تجعل المؤمن وقّافاً عند حدود الله، وتعدّه إعداداً أخلاقياً راقياً، إذ يحرص دائماً على الطهارة والنظافة طوال اليوم والليلة، كما تعوده ضبط الوقت، وعدم تأخير واجباته عن موعدها، كما أنها تعلمه السكينة والوقار والاحترام، ومراعاة نفوس الآخرين ومشاعرهم.

وللصلاة تأثير كبير في صـرف النفس عن الأخلاق الرذيلة، كما قال تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**[1]}. يقول ابن كثير: "إن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، والمراد أن المواظبة تحمل على ترك ذلك... قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله يأمره وينهاه"[2].

الصلاة تربّي الإنسان خلقياً وعقلياً، فهي تربط الإنسان بالله تعالى، كما أنها تقوي إرادة الإنسان، وتعوّده على ضبط النفس والمثابرة، وكان من دعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم - في افتتاح الصلاة: (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سوء الأخلاق، لا يصرف سيّئها إلا أنت).

فالصلاة التي نصليها في اليوم خمس مرات، إنما هي صلة بالرب ومناجاة للخالق، والنفس في هذه اللحظة القدسية تستشعر العظمة الإلهية، فتتطهر من صنوف الرذائل، وشتى الشوائب.

- أول ما نلاحظ اقتران الصلاة بلفظ {**أَقِيمُوا**}: للإشعار بأدائها بإخلاص لله وحده، مع صدق التوجه إليه سبحانه، والخشوع لعظمته وجلاله، والاستكانة لعز سلطانه، ورعاية ما اقترنت به من أخلاق عليا ومبادئ مثلى، حتى ترتقي بها إلى القبول.

**- اقتران الصلاة بالقول الحسن.** قال تعالى: {**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**}[3]. فينبغي أن يكون المصلي متعاهدًا نفسه لتربيتها على القول الحسن. وليس القول الحسن خاصًا بالمؤمنين فقط، بل لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، فهو على العموم، وذلك أنّ كلام الناس مع الناس في الأمور الدينية إن كان بالدعوة إلى الإيمان، وجب أن يكون بالرفق واللين، كما قال الله لموسى – عليه السلام -: {**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا**}[4]، وقال لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم -: {**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**}[5].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤١٦/٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٤) سورة طه، الآية: ٤٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

ـ **الصلاة مقترنة بالإعراض عن اللغو،** قال تعالى: {**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**}[٦]. الصلاة حين تقام، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي اتصال بالله تعالى، يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها. وهي تطهّرٌ وتجرّد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما: (من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً)[٧]، ومثل هذا لم يقم الصلاة كما هي، وإنما أداها أداء ولم يقمها.. وفرق كبير بينهما.. فهي حين تقام ذكر لله {ولذكر الله أكبر}، أكبر إطلاقاً، أكبر من كل اندفاع، ومن كل تعبد وخشوع[٨].

والآية الكريمة تنهانا عن الجلوس في مجالس اللغو والنميمة، أو الخوض في هذه الأحاديث، وتأمرنا بأن نستبدلها بمجالس تحضُّ على العمل البنَّاء الخيِّر المثمر، وتهدف المسامرة فيها إلى ما فيه خير الأمَّة وصلاحها، وتبيِّن لنا ما يليق بالمؤمن من أحاديث تهدي إلى البرِّ والتَّقوى؛ وأهمُّها ذكر الله، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومناقشة السُّبُل لتحسين أحوال المسلمين في المجالات كافَّة. لذا، كانت المحاور الأساسية الَّتي ينبغي أن يدور حولها حوار المجالس ثلاثة: أوَّلها الترغيب بالصدقة، والحثُّ على الإنفاق، ودراسة شؤون الفقراء والمحتاجين الَّذين لا يجدون ضروريات الحياة، ووضع منهج منظَّم لجمع ما يفيض عن حاجاتنا، واستثماره في خدمتهم، من خلال عمل بنَّاء، يوظِّف الأيدي العاملة، ويعود بالنفع على الجميع.

وثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا خير في مجتمع يعيش أفراده حسب أهوائهم دون رادع أو وازع، ولا بدَّ من وجود عين يقظة ترصد الخطأ، وضمير حيٍّ يقوِّم الاعوجاج ويصلح الخلل بلطف ورويَّة.

أمَّا ثالثها: فهو القيام بالعمل المجدي الخلاَّق، الَّذي نزلت به الشرائع السماوية في بعض ما نزلت من أجله، وهو نشر المحبَّة والسَّلام بين الناس جميعاً، لتسود المجتمع رابطة الأُخوَّة الَّتي تحقق التماسك والقوَّة. إن نشر المحبَّة بين الناس يعني فيما يعنيه الإصلاح بين المتخاصمين، فالخصومات والشحناء تنتشر في كلِّ المجتمعات؛ صغيرها وكبيرها، ففي

(٦) سورة المؤمنون، الآيات: ١ـ٤.

(٧) رواه ابن جرير في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان: ١٧٤/٣، رقم (٣٢٦٢)، والطبراني: ٥٤/١١، رقم (١١٠٢٥).

(٨) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: ٢٧٣٨/٥.

الأســـــرة الواحدة خلافات وخصـومات، وفي الحيِّ الواحد والبلد الواحد أيضـاً، وكذلك بين الدول، ممَّا يؤدِّي إلى الفشل وتردِّي الأخلاق وتدهور المجتمعات.

فالمؤمن لا يدَّخر جهداً لرأب الصـــدع بين المتخاصـــمين، وتحويل ما بينهم من النزاع والعداوة إلى محبَّة وسلام، باذلاً في سبيل ذلك جهده ووقته وماله، إذا اقتضـــى الأمر، لعلَّ المحبَّة تنتشر بين الأفراد، ثمَّ تشمل الشعوب والدول، فتتحوَّل هذه الأرض إلى كوكب تغمره الطمأنينة والسعادة[٩].

وفي الصلاة قوة خلقية، ومدد لضمير المؤمن، يقويه على فعل الخير، وترك الشـر، ومجانبة المنكرات، ومقاومة الجزع عند الشـــر، والمنع عند الخير، فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى، ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقة في المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى، وجوانب الضعف الإنساني[١٠].

وتؤثر الصـــلاة تأثيرًا إيجابيًا فتجعل صـــاحبها يعي ما يتكلم به، بحيث يكون عقله قبل لسانه، فلا يلغو ولا يفحش، وإذا سمعه يعرض عنه: {**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَـــلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**}[١١]، وعن معنى اللغو يقول ابن منظور: اللغو واللغا: السقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع، لقلته أو لخروجه على غير جهة الاعتماد من فاعله[١٢].

وقال الراغب: هو ما لا يعتد به، وهو الذي يرد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا ـ وهو صوت العصافير ـ وقد يسمى كل كلام قبيح لغوًا[١٣].

وفي التعبير بـــ (معرضون) يفيد أنهم على هذه الأخلاق في عامة أوقاتهم - أي: تربوا على ذلك - ، كما ينبئ عنه الاســـم الدال على الاســـتمرار، فيدخل في ذلك إعراضـــهم عنه حال اشـتغالهم بالصـلاة دخولاً أولياً، وإقامة الإعراض مقام الترك؛ ليدل على تباعدهم عنه رأسـاً؛ مباشرة، وتسبباً، وميلاً، وحضوراً[١٤].

(٩) القرآن منهاج حياة: ٢٧٤/٢-٢٧٥.
(١٠) العبادة في الإسلام للقرضاوي: ٢٧١.
(١١) سورة القصص، الآية: ٥٥.
(١٢) لسان العرب: ٤٥٠١/١٥.
(١٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ٤٥١.
(١٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود: ١٢٤/٦ بتصرف.

ـــ **الصلاة مقترنة بتطهير النفس من براثن الفواحش والمنكر**، قال تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**}[١٥]. ومن التطبيق العملي لهذه الآية، ما رواه أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي – صلى الله عليه وسلم - ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلاّ ركبه، فذكر للنبي، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنّ الصلاة ستنهاه) فلم يلبث أن تاب، وصلحت حاله، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (ألم أقل لكم)[١٦].

وأصل الفاحش: "السيئ الخلق. والفحش: كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي. وقيل: كل ما نهى الله عنه. وقيل: كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال"[١٧].

وكفى بصاحبه منزلة، أن قال ابن حجر الهيتمي: "إنّ ملازمة الشر والفحش من الكبائر"[١٨]، مستدلاً بقوله – صلى الله عليه وسلم -: (إنّ شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس ـ أو ودعه الناس ـ اتقاء فحشه)[١٩].

فالصلاة باب مفتوح لمن عزم على اجتناب الفحشاء، وطريق ذلك: أن يحضر قلبه، ويفرغه عمّا سوى ربّه، ويقبل بفهمه لما يتلو، وكم من معان لطيفة يدركها المصلي أثناء صلاته تمنعه من الفحشاء والمنكر. ثم العزيمة والمجاهدة لحسن الخُلق؛ عملاً وسلوكًا. والمسلم الذي يصلي راكعاً ساجداً لربه - جل وعلا - يأبى كل الإباء أن تنحني هذه الجباه إلا لله، فهو عزيز النفس، لا يخشى في الله لومة لائم، لا تستذله الأموال، ولا يعطي الدنية في دينه، ولا يرضى سوى العزة والكرامة لدينه.

وهكذا، تبيّن أن عبادة الصلاة تعوّد المؤمن كل القيم الأخلاقية؛ من الصبر والدأب والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خلقاً راسخاً في النفس؛ فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن (الصلاة خير من النوم)، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء ملبياً لنداء (حي على الصلاة)، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات والأيام والأعوام، فهذا وأمثاله لا بد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية. وهكذا، كما أن الصلاة عماد الدين، فإنها تثبت في نفس المؤمن عماد القيم الأخلاقية.

---

(١٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(١٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ١٧٤/٣ رقم (٣٢٦١).

(١٧) تاج العروس للزبيدي: ١٥٧/٩.

(١٨) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي: ١٥٢.

(١٩) رواه البخاري في صحيحه رقم ٦٠٥٤ ومسلم في صحيحه (٢٥٩١) من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها.

لا يفسد هذا الحال إلا جندي من جنود إبليس، فهو الذي تسره الفوضى، ويسوؤه النظام: (الذي يركع ويسجد قبل الإمام، إنما ناصيته بيد شيطان[٢٠])[٢١].

وهذه الصلاة اليومية المتكررة خمس مرات كل يوم وليلة، أقامها الله تعالى على النظام والتحديد، ولم يدعها مبهمة غامضة متروكة لهوى المرء، الذي قد يضل وقد ينسى، فقال الله – جل وعلا –: {**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**}[٢٢]، أي فرضاً ثابتاً ثبوت الكتابة في اللوح! وموقوتاً أي منجماً في أوقات معلومة محدودة، لا بد من أدائها فيها قدر الإمكان. والله يطالب بها حتى في مواطن عدم الاستقرار، فهو يقبل الصلاة مقصورة في السفر، ومقسومة في حال الحرب، وغير كاملة الهيئات والحركات في المرض المانع من الإتيان بكل حركاتها؛ فذلك الأداء المحدود في الموعد المحدد، خير من تأخيرها عن ميقاتها لتأديتها كاملة فيما بعد؛ وهذا تنظيم بليغ، وربط حكيم بين الوقت والعمل المخصص له.

ونظراً لما للصلاة من أهمية وتأثير في القلب والبدن والحياة، فقد هيأ الله لها بتشريعه الحكيم جواً من الإجلال والتعظيم، ومن الخشوع والرقة، ومن الجد والرزانة، ومن الوقار والسكينة، ومن التعاون والاجتماع، ما لا يوجد له نظير لعبادة أو نسك في دين آخر. فمن ذلك الأذان والإقامة والطهارة والقبلة والوقت والجماعة ومتابعة الإمام والمساواة... إلخ.

روي عن حاتم الأصم وقد سئل: كيف تقيم صلاتك؟ فقال: أتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم آتي موضع الصلاة بسكينة ووقار، فأكبر تكبيراً بتوقير، وأقرأ قراءةً بترتيل، وأركع ركوعاً بتخشع، وأسجد سجوداً بتذلل، وأتمثل الجنة عن يميني، والنار عن شمالي، والصراط تحت قدمي، والكعبة بين حاجبي، وملك الموت على رأسي، وذنوبي محيطة بي، وعين الله ناظرة إليَّ، واعتبرها آخر صلاة لي، وأتبعها الإخلاص ما استطعت، ثم أسلّم وأنا لا أدري أيقبلها الله مني، أم يردها عليّ[٢٣].

ومما لا شك فيه أن أداء الصلاة بهذه الصورة يجعل من مؤديها ملاكاً على الأرض يمشي بين الناس بالخير، ويفيض الخير من بين يديه.

وعن بعض مظاهر النظام في الصلاة تحدث بعض العلماء، فمن ذلك قول السيد أبو الحسن الندوي: "وفي الجماعة حكم دقيقة، ومصالح عظيمة للمسلمين؛ منها ما هي

---

(٢٠) رواه مالك في الموطأ، ورواه الطبراني والبزار وإسناده حسن. المنتقى من الترغيب والترهيب: ١٨٠/١، رقم (٢٥٠).

(٢١) العبادة في الإسلام: ٢٢٤.

(٢٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٢٣) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي: ٣٠٢.

اجتماعية وخلقية؛ كالوحدة والاجتماع والتعاون والتعارف، وقد بحث عنها علماء المسلمين وحملة الأقلام وأفاضـــوا فيها، ومنها ما هي أدق، ولم يفطن لها كثير من الباحثين والكتاب العصـريين، منها:

أن لاجتماع المســـلمين، راغبين في الله تعالى، راجين، راهبين، مســـلمين وجوههم إليه، خاصية عجيبة في نزول البركات وتدلي الرحمة، وهذا هو السر في دعاء الاستسقاء، وفي جمع الحج. ومنها التشـــجيع على العبادة، والمحافظة على الصـــلوات، والتنافس في إحســـانها، وإتقانها، والإكثار منها، وإصـــلاح ما قد يطرأ عليها من فســـاد أو خلل.. ومنها أن إخلاص بعض المخلصـــين، وإخباته، وخشـــوعه، يؤثر في الجماعة كلها، ويوقظ النفوس الخامدة، ويحرك الهمم الفاترة، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع"[٢٤].

لذلك حثت السنة النبوية على صلاة الجماعة، وبينت عظم الأجر فيها، فكان الهدف من هذا الاجتماع على طاعة الله تعالى، تحصـيل منفعة التعارف والتآلف، وإنهاء النزاع، وإزالة الخلاف فيما بينهم.

عن أبي هريرة عن النبي – صـلى الله عليه وسـلم – أنه قال: (صَـلاَةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ)[٢٥].

قال ابن حجر: "وفي المحافظة على صـــلاة الجماعة انتظام الألفة بين الناس، وذلك لاجتماعهم على طاعة الله. ثم قال: وفيه نظام الألفة بين الجيران، وحصـــول تعاهدهم في أوقات الصلاة"[٢٦].

وهناك حقائقُ ومعانٍ تتحقّق للفرد والجماعة والأمّة في إقامة هذه الشـــعيرة العظيمة، والمحافظة عليها، هي أسباب رئيسة فيما ذُكر في الحديث من المضاعفة والدرجات:

١. تحقيق اجتماع كلمة المســـلمين، وتآلفهم وتآخيهم، وتعاونهم على البرّ والتقوى. وفي صـــلاة الجماعة دعم لعاطفة الأخوة، وتقوية لروابط المحبة، وإظهار للقوة، فبالاجتماع تذهب الضغائن، وتزول الأحقاد، وتتآلف القلوب، وتتحد الكلمة.

(٢٤) الأركان الأربعة، الشيخ أبو الحسن الندوي: ٥٦.

(٢٥) رواه البخاري في كتاب الآذان، باب فضل صلاة الجماعة (٦٤٧)،

(٢٦) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٣٤٩/٢.

٢. تثبيت قلوب المؤمنين، وتقوية ضعفائهم، واستبشارهم باجتماع كلمتهم، وقيام كيان لهم، وبخاصّة في البلاد التي يكونون فيها أقلّية مستضعفة.

٣. إظهار شوكة المسلمين أمام أعدائهم، وإرهاب عدوّ الله وعدوّهم.

٤. الدعوة العمليّة لغير المسلمين إلى الإسلام، عن طريق إظهار شعائر الدين، وإسماعهم آيات الله، ورؤيتهم عبادة المسلمين، وما تشتمل عليه من فضائل دينيّة وتربويّة واجتماعيّة متعدّدة.

٥. ذوبان الفوارق الاجتماعيّة، وتحقّق المساواة بين المسلمين، ومواساة الفقراء والمحتاجين، والتكافل الاجتماعيّ بين مختلف فئات الأمّة.

٦. التعارف بين المسلمين، وما يترتّب عليه من أداء حقّ المسلم على المسلم في الحيّ الواحد؛ من عيادة المريض، وإغاثة اللهفان، وتشييع الميّت، والتعزية به، والتهنئة بالأفراح، والمشاركة فيها.

٧. أنّ صلاةَ الجماعةِ في المسجد سبيل التلقّي عن أهل العلم الثقات، والتَّأسّي بهم في علمهم ودينهم، وإشاعة العلم بالصَّلاة وأحكامها بين فئات الأمّة، وتناقُل ذلك جيلاً بعْد جيل، ممّا يُبعد الصلاة عن التحريف أو الابتِداعِ، أو الخروج بهَا عَن هدي النبوَّة الثابت..

وفي الجماعة تربية على الطاعة والنظام، وما أحوج الأمم الناشئة - كالعرب في أيام الرسول - أن يتعلموا عملياً طاعة الأمر، والانقياد للنظام، والخضوع للقانون، واحترام الرؤساء، وهذا ما تصنعه صلاة الجماعة.

وهل رأيت نظاماً أكمل وأجمل من صفوف الجماعة وقد وقفت مستقيمة فلا عوج، متلاصقة فلا فرجة: المنكب إلى المنكب، والقدم إلى القدم، ينذرهم إمامهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، ويعلمهم أن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة وتمامها، ويحدثهم عن نبيهم: أن سدّوا الفرج، وسووا الصفوف، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

فإذا كبّر الإمام كبّروا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا سلم سلموا.

من خرج على هذا النظام فكأنما خرج على الإنسانية. يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (ألا يخشى إذا ركع أحدكم أو سجد قبل الإمام، أن يمسخ الله رأسه رأس حمار[٢٧])[٢٨].

فالسنة النبوية حثت على استقامة الصفوف في صلاة الجماعة، وبيّنت أن عدم الاستقامة فيها يكون سبباً في إيقاع العداوة والبغضاء، واختلاف القلوب. فعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يقول: (لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ)[٢٩]. فظهر بهذا الحديث أن الجماعة في الصلاة، مظهر قوي للتطبيق العملي لمبادئ الإسلام الاجتماعية في النظام والتراص والاعتدال واستواء الصفوف، ووحدة الاتجاه، وهي مرآة تعكس المعاني والأفكار التي يتبناها المجتمع المسلم.

يقول الإمام النووي في شرحه للحديث: (وَالْأَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ مَعْنَاهُ يُوقِعُ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَاخْتِلَافَ الْقُلُوبِ، كَمَا يُقَالُ: تَغَيَّرَ وَجْهُ فُلَانٍ عَلَيَّ، أَيْ: ظَهَرَ لِي مِنْ وَجْهِهِ كَرَاهَةٌ لِي، وَتَغَيَّرَ قَلْبُهُ عَلَيَّ، لِأَنَّ مُخَالَفَتَهُمْ فِي الصُّفُوفِ مُخَالَفَةٌ فِي ظَوَاهِرِهِمْ، وَاخْتِلَافُ الظَّوَاهِرِ سَبَبٌ لِاخْتِلَافِ الْبَوَاطِنِ)[٣٠].

## ثانياً: الزكاة وتأثيرها في الإصلاح

الزكاة تزكي المال وتنميه، وتطهر النفس وتبرئها من أسقامها وأدوائها، ولها آثار كثيرة في إصلاح أخلاق المسلم من جوانب عديدة، فهي من أهم الأسباب في تنقية النفس من أشد الأمراض وأسوأها وهو داء الشح والبخل والإمساك، وهذا الشح الذي يورث الإنسان غضب الله تعالى، وعداوة الخلق، تعالجه الزكاة والصدقات علاجاً جذرياً، لأنها تعوّده دوام البذل،

(٢٧) صلاة الجماعة مدرسة يومية لتعليم القيم والمبادئ الإسلامية، وخصوصاً تلك القيم التي تقوم عليها حياة الجماعة الإسلامية، وهي قيم النظام والتعاون والتساند والتعارف والوحدة والاجتماع على الخير، واستقامة الصف، والطاعة في المعروف، واحترام القيادة، والرد عليها إذا أخطأت، لهذا شدد الرسول الكريم ﷺ فيمن يرفع رأسه قبل الإمام، لأنه يثير الفوضى في الصف، ويقوى الروح الفردية في المصلين، وهذا هو مصدر الخطر. ولهذا كان هذا التهديد في هذا الحديث، والحديث الذي بعده، حتى لا يسبق أحد الإمام وإلاّ كانت ناصيته بيد شيطان.

(٢٨) رواه البخاري (٦٩١) في كتاب الأذان، باب: إثم من رفع رأسه قبل الإمام، ومسلم (٤٢٧) في كتاب الصلاة، باب: النهي عن سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ٤٩٣، رقم (٢٤٧). وأصحاب السنن. المنتقى من الترغيب والترهيب: ١٨٠/١، رقم (٢٤٩).

(٢٩) رواه البخاري (٧١٧)، كتاب الآذان، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها. ومسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها.. رقم ٤٣٦

(٣٠) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ١٥٧/٤.

حتى ولو كان مكرهاً، خائفاً من عذاب الله، فلا يزال العبد يجاهد نفسه حتى يسلس له قيادها، ويلين زمامها، فلا يمسك في مواطن البذل، ولا يحجم في مواضع الإقدام.

إنها تخرج الأضغان من قلوب البائسين، وحقدهم على الأغنياء المترفين، وتملأ قلوبهم بمحبتهم، وتمنعهم من الإساءة إليهم، وبذلك يسود الأمن، وبذلك تكون الألفة والإخاء.

والزكاة إذا عالجت داء الشح في نفس الغني المنفق، فهي تعالج داء الحقد والحسد في نفس الفقير الآخذ من هذه الأموال. ولو تكاثر هذا المرض؛ الحقد والحسد، في المجتمع المسلم – بل أي مجتمع – أفضى إلى تدميره، ويعيش هذا الفقير يمتلئ صدره ناراً ساحقة، وهذا يودي به، ويزري أخلاقه، لكن إعطاءه والحنو عليه يخلق فيه روح الحب، وتدب فيه سلامة الصدر ونقاء القلب، ولا يلبث إذا أفاض الله عليه بخير، أن يبذل هو أيضاً من خاصته ما يحتاج إليه غيره، لأن إعطاءه يدفعه إلى الإحساس بغيره أكثر من إحساسه بخاصة نفسه. وهذا التعايش الآمن معناه أن غاية الإسلام ليست القضاء على الأغنياء، وإنما دائماً القضاء على الفقر[٣١].

والإنسان إذا تطهر من الشح والبخل، واعتاد البذل والإنفاق، ارتقى من حضيض الشح الإنساني {**وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا**[٣٢]}، واقترب من أفق الكمالات (الربانية)، فإن من صفات الحق تعالى إفاضة الخير والرحمة والجود والإحسان، دون نفع يعود عليه. والسعي في تحصيل هذه الصفات - بقدر الطاقة البشرية - تخلّق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية[٣٣].

قال الإمام الرازي: "إن النفس الناطقة - يعني تلك التي صار بها الإنسان إنساناً بها - قوتان: نظرية وعملية، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله، فأوجب الله الزكاة، ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال، وهو اتصافه بكونه محسناً إلى الخلق، ساعياً في إيصال الخيرات إليهم، رافعاً للآفات عنهم.."[٣٤].

وأما الشيخ محمد الغزالي، فيرى أن الزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي -أولاً- غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعاون والألفة بين شتى الطبقات... وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: {**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**

(٣١) الآثار التربوية للعبادات د. صلاح الدين سلطان: ٥٥.

(٣٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(٣٣) فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي: ٨٦٢/٢.

(٣٤) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ٦٥/٨.

**تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**[٣٥]}... فتنظيف النفس من أدران النقص، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل، هو الحكمة الأولى... ومن أجل ذلك وسّع النبي - صلى الله عليه وسلم - في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم، فقال: (تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة)[٣٦].

وهذه التعاليم في البيئة الصحراوية، التي عاشت دهوراً على التخاصم والنزق، تشير إلى الأهداف التي رسمها الإسلام، وقاد العرب في الجاهلية المظلمة إليها[٣٧].

كما أن تشريعات الزكاة تعلم المسلم العفة وعزة النفس، وهي طرقٌ لكل أبواب العمل المباح الذي يعفّه عن ذل السؤال، ويبذل قصارى جهده لينفع نفسه أو يتصدق لتكون يده هي العليا في العطاء. وبذلك يتخلق المسلم بأخلاق الكرم والجود والبذل والتضحية، وتؤثر الزكاة فيه حب الآخرين، والإحساس بهم، وتنمي التربية الجماعية، والميل إلى معرفة الآخرين، وتحري ظروفهم، والنهوض لنجدتهم، والسعي لكفالتهم.

كما يربي القرآن الكريم المتصدق على خلق راقٍ، بأن ينتقي من ماله أجوده وأحبه، وأجلّه وأطيبه؛ فإنه يقع في يد الله تعالى قبل أن يقع في يد السائل: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**}[٣٨].

وفي سبب نزول هذه الآية عن البراء قال: (نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصُفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه، فسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص، فيأتي بالقنو قد انكسر، فيعلقه، فنزلت: {**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**}، قال:

---

(٣٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣٦) رواه أحمد: ١٦٧/٥، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف رقم (١٩٥٦) وقال: حسن غريب. والبخاري في (الأدب المفرد) (٢٢٧).

(٣٧) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي: ٨.

(٣٨) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦٧ـ٢٦٨.

لو أنّ أحدكم أهدي له مثل ما أعطى، ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده)[٣٩].

كما ربّى القرآن الكريم متعلمه على تجرد الصدقة من المنّ والأذى، قال تعالى: {**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**}[٤٠]. و(**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ**): كلمة طيبة، ودعاء لمسلم، (**وَمَغْفِرَةٌ**): أي عفو عن ظلم؛ قولي أو فعلي، خير أن يذكرها المتصدق، ويتحدث بها، أو يستخدمه بالعطاء، أو يتكبر عليه لأجل إعطائه. والأذى: أن يظهرها، أو يعيّره بالفقر، أو ينتهره، أو يوبخه بالمسألة[٤١].

ولهذا قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**}[٤٢]، فأخبر أنّ الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى. ثم قال تعالى: {**كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**} أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه.

والأصل أن يرى المتصدقُ الفقيرَ محسنًا إليه، بقبول حق الله تعالى منه، الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبلها لبقي مرتهنًا به، وأن يستصغرَ الصدقة، وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

ومن التطبيق العملي لهذه الآية، ما روت السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: أتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بضب، فلم يأكله، ولم ينه عنه. قلت يا رسول الله: نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم مما لا تأكلون)[٤٣]. ولهذا قال: {**وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**}، أي: لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

روى ابن جرير بسنده عن البراء، في قوله تعالى: {**وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**}، يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك، لم يأخذه، إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه.

---

(٣٩) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ٨٤/٣.

(٤٠) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

(٤١) موعظة المؤمنين، جمال الدين القاسمي: ٥٧/١.

(٤٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٤٣) رواه أحمد: ١٢٣/٦، رقم (٢٤٩٦١)، والطبراني في الأوسط: ٢١٢/٥، رقم (٥١١٦)، والبيهقي: ٣٢٥/٩، رقم (١٩٢١٠) باب ما جاء في الضب.

فهذا من سوء الأدب مع الله أن يمسك الجيد لنفسه أو لأهله، ولو فعل هذا بضيفه، وقدم له ما يخرجه من رديء ماله، لأوغر صدره.

ولنعلم أن الزكاة هي نصيب الفقراء في مال الأغنياء، وهي الحق الواجب للسائل والمحروم، لم يتركها الله غامضة مبهمة، ولم يكلها - في مقاديرها ومواعيدها - إلى النفوس التي قد تشح، وقد تبخس، بل حدد الإسلام مواعيدها ومصارفها. وأحصت السنة الأشياء التي تجب فيها، وفصلت الكثير من أمورها؛ قال الله تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**}[٤٤].

فزكاة الزرع تجب يوم القطاف والجني، عندما يطيب المزروع، وزكاة المال تجب عندما يحول عليه الحول، ويتم على حيازته العام. والمقدار معلوم، فهو إما العشر، وإما نصف العشر. والمستحقون للزكاة حددتهم آية التوبة، والآية الكريمة السابقة تنهى عن الإسراف وتذم أمره، والإسراف إما إفراط أو تفريط، وليس بينهما إلا التوسط والاعتدال، وذلك هو عين النظام.

والزكاة ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وايتاؤها – مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة – عنوان على الدخول في الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين. قال تعالى: {**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ**}[٤٥]. وقال: {**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**}[٤٦].

إنها فريضة لازمة، يكفر من جحدها، ويفسق من منعها، ويقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها. وحسبنا أن الخليفة أبا بكر - رضي الله عنه - جهز أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة، وقال كلمته الشهيرة: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعوني عقالاً[٤٧] كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)[٤٨].

والزكاة في الاسلام ليست (تبرعاً) يتفضل به غني على فقير، أو يحسن به واجد إلى معدوم. إنها أبعد من ذلك غوراً، وأوسع أفقاً.

---

(٤٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٤٥) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٤٦) سورة التوبة، الآية: ١١.

(٤٧) العقال: الحبل الذى تشد به الإبل.

(٤٨) رواه البخاري رقم ٧٢٨٥ في كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..

إنها جزء هام من نظام الإسلام الاقتصادي، ذلك النظام الفريد الذي عالج مشكلة الفقر، أو مشكلة المال على وجه عام، قبل أن تعرف الدنيا نظاماً عني بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان.

حدد الإسلام الأموال التي تجب فيها الزكاة، والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة، ومتى تجب الزكاة على المال، والمقدار الذي يجب إخراجه في كل منها. فهناك مال يجب فيه العشر، كالزروع التي يخرجها الله من الأرض، بغير جهد يذكر من الإنسان.. فإن كانت تسقى بالآلات، كان فيها نصف العشر، وهذه الزكاة تجب في كل مزرعة.

وهناك مال يجب فيه ربع العشر (٢,٥ بالمئة)، كالنقدين – الذهب والفضة –، وعروض التجارة مقومة بأحد النقدين. وهذه الزكاة تجب في المال كلما حال عليه الحول – اثنا عشر شهراً قمرياً.

وهناك مال يتمثل في الحيوانات، مثل الإبل والبقر والغنم، وقد وضع الإسلام لها نظاماً خاصاً.

والحكمة في تفاوت المقادير المطلوبة من الزكاة: أنه كلما كان جهد الإنسان في المال أقل، وعمل القدرة الإلهية أظهر، كانت النسبة الواجبة أكثر.. والعكس بالعكس.

وقد عبر الإمام الدهلوي عن النظام الدقيق في فريضة الزكاة، فقال: "ومصلحته ترجع إلى المدينة، وهي أنها تجمع - لا محالة - الضعفاء وذوي الحاجة، وتلك الحوادث تغدو على قوم، وتروح على آخرين، فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات، لهلكوا وماتوا جوعاً. وأيضاً فنظام المدينة يتوقف على مال يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها، والمدبرين السائسين لها، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعاً، مشغولين عن اكتساب كفافهم، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها"[٤٩].

وكما أشار الدهلوي إلى الحكمة من مشروعية الزكاة، بيّن الحكمة من تعيينها وتحديد مقاديرها وأوقاتها، وذلك أيضاً لما له المظاهر الدقيقة والرائعة في النظام، فقال: ثم مسّت الحاجة إلى تعيين الزكاة، إذ لولا التقدير، لفرّط المفرّط، ولاعتدى المعتدي. ويجب أن تكون غير يسيرة، لا يجدون بها بالاً، ولا تنجع من بخلهم، ولا ثقيلة يعسر عليهم أداؤها، وإلى تعيين المدة التي تجبى فيها الزكاة، وتجب ألا تكون قصيرة يسرع دورانها، فتعسر إقامتها

(٤٩) حجة الله البالغة للكاندهلوي: ٢٩/٢.

فيها، وأن لا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم، ولا تدر على المحتاجين والحفظة إلا بعد انتظام شديد[٥٠].

وبيّن ابن القيم أن الهدف من هذا التحديد هو مصلحة الجميع، فقال: "إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضر بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة يضر بالمسكين، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة"[٥١].

فالزكاة نظام اجتماعي عام، ومصدر تدخر به الأمة الإسلامية ما تمد به الفقراء وتغنيهم، وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية، ولا عرضية زائلة. وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة، لم يسبق إليه تشريع سماوي، ولا تنظيم وضعي، فهي نظام مالي واقتصادي واجتماعي وسياسي وخلقي وديني معاً.. "ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون فيتكافئوا فيما بينهم، حتى لا يبقى فيهم عار ولا جائع ولا مهين، ويكفل غنيهم فقيرهم، ويعاف فقيرهم أن يبسط يده إلى الغني بالاستمداد، ولا ينفق أحد أمواله في البذخ والترف، ويعلم أن في أمواله حقاً لليتامى والأيامى والفقراء والمساكين من أبناء أمته، وأن فيها حقاً للذين يقدرون على العمل، ولكن لا يجدون إليه سبيلاً لما يعوزهم من المال، وأن فيها حقاً للأطفال الذي فطروا على الذكاء والفطنة، ولكن لا يقدرون على تحصيل العلم بسبب فقرهم، وأن فيها حقاً للعجزة الذين لم يعودوا قادرين على العمل. فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق ظالم، وأي ظلم أشنع من أن يكون عندك من الثروة الضخمة، وأسباب الترف والرفاه، ما لا يكاد يأتي تحت الحصر، وتترفل في قصورك الشامخة، وتتنعم بركوب سيارتك الفاخرة، وحولك ألوف من إخوانك الفقراء الذي لا يكادون يجدون سبيلاً إلى كسرة من الخبز، وألوف من القادرين على العمل يهيمون على وجوههم عاطلين! إن الإسلام يبغض هذا الرجل، ويحارب عاطفة أثرته، وما هذه الأثرة إلا من شيمة الكفار، الذين تعلمهم مدنيتهم أن يدخروا عندهم كل ما تصل إليه أيديهم من الثروة، ويربوا بها، ويجلبوا منها إلى أنفسهم كل ما في أيدي الناس الآخرين. أما المسلمون، فيعلمهم دينهم أنه إذا وهب الله لكم من الرزق ما زاد عن حاجتكم فلا تكنزوه، وأعطوه إخوانكم الذين يفقدونه ليسدوا حاجتهم، ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم، كما تكسبون معيشتكم أنتم"[٥٢].

(٥٠) المصدر السابق.

(٥١) زاد المعاد: ٢٤٦/١.

(٥٢) مبادىء الإسلام، السيد أبو الأعلى المودودي: ١٠٧.

كما أن الزكاة تعمل على إزالة الأحقاد والضـــغائن بين القادرين والعاجزين، وتذهب الشـحناء فيما بينهم، كما أنها نظام خلقي يهدف إلى تطهير نفوس الأغنياء من دنس الشـح المهلك، ورجس الأنانية الممقوتة، وتزكيتها بالبذل وحب الخير، والمشـــاركة الوجدانية والعملية للآخرين، كما تعمل على إطفاء نار الحســـد في قلوب المحرومين، وإشـــاعة المحبة والإخاء بين الناس، وذلك كله من شأنه أن تضعف معه النزاعات ودواعي الخصومات[٥٣] ❐

(٥٣) الصلح في ضوء الكتاب والسنة: ٢٢٣.

رؤى

# دور الهوية الوطنية في استقرار المجتمعات

خليل إبراهيم

انطلاقاً من الإيمان بضـــرورة بناء مجتمع متماسك وقوي ومنفتح، يقوم على دعائم الســـلم الأهلي، والوئام المجتمعي، والوحدة الوطنية، والكرامة الإنســـانية، وســـعياً لتحقيق قيَم الحرية والعدالة والمســـاواة بين أبناء الوطن الواحد، وقراءةً لتجـارب التـاريخ واســـتخلاص الـدروس والعبر، ووعيـاً بســـنن وقوانين نهوض المجتمعات، وبناء الدول وسقوطها، وقيام الحضارات وانهيارها، ومعرفة التحديات والمخاطر والمعوقات التي تواجهنا في مسيرة بناء المستقبل المشـــرق للوطن على قواعد الشـراكة الحقيقية، والمشاركة الفاعلة، والمواطنة المتساوية، وسيادة القانون، ومبادئ الحرية والعدالة، ومن أجل القضاء على عوامل الفرقة والتنافر، ومسببات الفتنة والتناحر بين مكونات الوطن وأبنائه، ولتحريك الطاقات المخزونة، والقدرات الكامنة، وتفعيل الإرادة الوطنية، وصـناعة القرار الجمعي، ورسـم الاسـتراتيجيات الوطنية على ضـوء اسـتشـــــراف المسـتقبل والتحولات والتطورات التي تجري في المنطقة، والتي تشكل تحديات خطيرة أمام التطلعات الوطنية.

انطلاقاً من هذا المنظور، يرى الاتحاد الإسـلامي الكوردسـتاني أن السـبيل الوحيد لتحقيق تلك الأهداف، والوصـــول إلى هذه التطلعات، هو بناء الهوية الوطنية الجامعة، الحاضـــنة، وغرس الشـــعور بالانتماء للوطن، وزرع روح الولاء والوفاء والفداء، في إطار الإقرار بالتعددية السـياسـية والتنوع الاجتماعي والديني والعرقي والمذهبي، واحترام الهويات الفرعية، واعتبارها مصدر قوة وثراء.

ويسـعى الاتحاد الإسـلامي الكوردسـتاني - عبر منهاجه التربوي، ونظامه الداخلي، وبرامجه التثقيفية، وخططه في البناء والتوعية، ووسائله الإعلامية - إلى بناء الهوية الوطنية، والمواطن الصـــالح الواعي باحتياجات الشـــعب والوطن للنمو والتقدم والارتقاء. ويعمل على تعزيز الثقة بين أبناء الوطن، وبناء مجتمع المســـؤوليات المشتركة، والشـــــراكة في الالتزامات والحقوق والواجبات، وتطوير آليات المشاركة، وتحقيق العدالة والمساواة.

ويرى الاتحاد الإسلامي الكوردستاني بأن ترسيخ الأمن والاستقرار، وتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة، وحفظ الكرامة الإنسانية، وضمان حقوق الإنسان وحرياته، لا يتحقق إلاّ برسوخ وتجذر الهوية الوطنية الجامعة لكلّ الهويات الفرعية، في ظل مبدأ المواطنة، وبناء ديموقراطية حقيقية على قيم ومبادئ الحرّية والعدالة والنزاهة والشفافية والمساءلة والمشاركة.

إن غياب الهوية الوطنية المستوعبة، وغلبة الهويات الفرعية الأخرى، تحوّل المجتمعات والأوطان إلى مجتمعات هشة وأوطان ضعيفة لا تصمد أمام الهزات والعواصف، ولا توفر فرص البناء والتنمية والأمن والاستقرار.

إذن، فالمصالحة الوطنية، والهوية الجامعة، هي الطريق الوحيد للتقدم والنهوض والأمن والتنمية، والحيلولة دون تحول الشعب، وأبناء الوطن الواحد، إلى مجاميع متناحرة وكيانات متنافرة يسهل اختراقها واستخدامها لصالح أجندات أجنبية..

إن التنوع الديني والعرقي والمذهبي والطائفي والسياسي يستدعي إقامة شراكة فاعلة في تحمل المسؤولية والنهوض والتنمية، وتعاوناً حقيقياً على تحقيق المصلحة الوطنية العليا، وتنافساً في خدمة الإنسان وقضاياه، والعمل على المشتركات الجامعة، واستشعارها في بناء الوطن والمواطن في دولة القانون والمؤسسات على أسس ومعايير الحكم الرشيد.

لا يمكن أن يتم تصحيح المسار، وإصلاح الأوضاع، دون سيادة الهوية الوطنية الجامعة، وانصهار الشعب - بكلّ أطيافه - في وحدة وطنية، ومصالحة مجتمعية، وتسوية سياسية❐

# مقالات

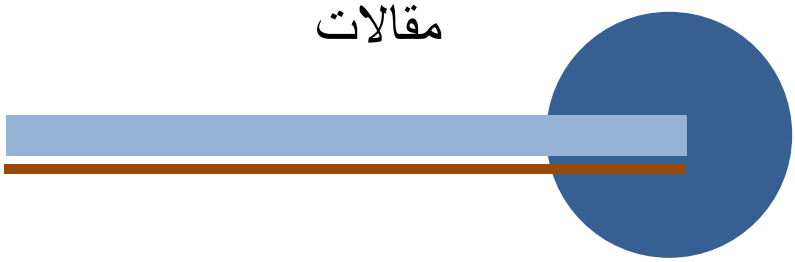

| | |
|---|---|
| - عالم اليوم كما أستقرِؤُه..الحاضر والمستقبل | شوان زنكنة |
| - قيادة صلاح الدين الأيوبي النموذجية وضرورة الاستلهـام منها لهذا العصر | د. هادي علي |
| - الهاجرة .. الوجه القبيح للاستشراق | د. سعد الديوةجي |
| - سلطة الانعتاق وآفاق التجاوز | د. سامي محمود |
| - يوم عاشوراء رمز الاحتفال العظيم باندحار الكفر والظلم | عابدين رشيد |
| - السعادة ودفء النعم | بكر أبو بكر |

# عالم اليوم كما أستقرِؤه..

# الحاضر والمستقبل

**شوان زنكنة**

**مستشار حكومي سابق**

**تمهيد**

✍ أزمةٌ جديدةٌ غَطَّت العالمَ جنبًا إلى جنب مع أزماته السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والصحية العويصة المتراكِمة، أزمةُ تفاقم الصراع بين تيار العولمة الليبرالي وتيار القومية الوطنية (المعتدلة والمتطرفة)، ولِنقلْ: أزمةٌ أمنيةٌ واقتصاديةٌ ونقديةٌ بين الشرق والغرب.

هذا الصراعُ أزَّمَ المشهدَ السياسي العالمي، وعقّدَ العلاقات الدولية.. بل وتسبب بأزمة نظام الحكم في بعض الدول. فكثير من الدول تعاني من نشاط حركة العولمة فيها، في موازاة نمو الشعور القومي والوطني ورعاية المصالح المحلية، إضافة إلى معاناتها من جوائح صحية واقتصادية مزمنة.

فتسيير المظاهرات في العديد من دول العالم، وتحريك السود في أمريكا، والسعي الحثيث للرئيس القومي الأمريكي (ترامب) في تغليب المصلحة المحلية الوطنية، ونمو الحركات القومية المتطرفة في أوروبا، وهيمنة شركات متعددة الجنسيات على التكنولوجيا والاقتصاد

العالمي، وحركات الربيع الشعبية العالمية الساعية إلى الخلاص من الأنظمة الاستبدادية، والسعي لإعادة توظيفها من جديد.. كل ذلك، إنما هو بعضٌ من مظاهر وتجلّيات ذلك الصراع، ومخلّفات الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتراكمة.

وقد ألقَت هذه الأزمات بظلالها على الوضع في العالم، فتأخّر الاستقرار وتعقّد المشهد بتداخل المصالح القومية والوطنية من جهة، وبتصارعها مع جهود الإذابة في العولمة، من جهة أخرى.

وما يهمّنا في هذا المقال، هو بيان ماهية القوى المتصارعة في العالم، والآثار الناجمة عن الصراع والأزمات على حاضره ومستقبله.

أما القوى المتصارعة، فهي أمريكا وروسيا وتركيا وإيران وإسرائيل ودول الخليج، ومن ثمَّ الصين، ولم أذكرُ الاتحادَ الأوروبي، ومِنْ ورائه الرهبنة اليسوعية المتمثلة ببابا الفاتيكان، لأن دوره قد انكمش بسبب نزعات الانفصال والمشاكل الاقتصادية التي عانى منها.. سوى أن فرنسا، ورئيسها ماكرون، تسعى إلى حجز مكان لها في هذا الصراع العالمي كلاعب مخضرم يتحيّن فرصة إحياء إمبراطوريتها ومشاريعها الوطنية.. هذه الدول المتصارعة تعاني من أزمة نظام حكم داخلي، ومن أزمة علاقات متناقضة، ومصالح متقاطعة فيما بينها.

وتَصبُّ هذه القوى المتصارعة زبدة نزاعاتها في بؤر صراعٍ محدّدةٍ في العالم، والتي يمكن أن تكون مواطئ لاندلاع مواجهات ساخنة، أو أنشطة عسكرية، وهذه البؤر الساخنة هي: الشرق الأوسط، وبحر الصين، وبحر البلطيق.

وسنلقي الضوء، بشيء من التفصيل، على أوضاع الدول المتصارعة، من خلال تحليل أنظمة حكمها، وبيان طبيعة علاقاتها فيما بينها، كالآتي:

**١- أمريكا:**

فأمريكا تتصارع في الشرق الأوسط لأهدافٍ، يأتي على رأسها ضمان أمن إسرائيل، بغطاء ديني، ضمن مخطط رسمه تيار العولمة بعد الحرب العالمية الثانية، والذي ظهر على شكل مشروع (ملتقى الحضارات). وقد قادت ثلاث قوى عالمية هذا التيار، وهي: البروتستانتية الإنجيلية؛ المتحكمة في أمريكا، والمسيحية الكاثوليكية (اليسوعية)؛ الحاكمة في الفاتيكان، والصهيونية (اليمينية واليسارية)؛ الحاكمة في إسرائيل.

هذا الثلاثي يعتقد أن مدينة (القدس) ستشهد ظهور المسيح المنقذ الذي يضع العالم تحت إمرة اليهود.

ولتحقيق هذا الهدف لا بد من:

١- تحييدِ دور روسيا في المنطقة.

٢- تحجيمِ دور إيران، وتقليمِ أظافرها، وانكماشِها على ذاتها.
٣- تأسيسِ اتفاقٍ تركيٍّ - كورديٍّ، وإناطة بسطَ النفوذِ والسيطرةِ في المنطقة به، باعتباره صمام الأمان الذي يضمَن أمنَ إسرائيل.

سعت الإدارة الأمريكية برئاسة (ترامب)، في السابق.. الأداة السياسية للبروتستانتية الإنجيلية.. إلى إخراج روسيا من ليبيا وسوريا، ولكنها لم تفلح.. ولهذا أمضت صكًّا على بياضٍ مع تركيا، التي حصلت بموجبه على الدعم اللازم، وحرية الحركة، لتثبيت دعائم نفوذها فيهما.

وليس أمام الإدارة الأمريكية في سوريا إلّا الإسراع في عملية الانتقال السياسي وإزاحة الأسد، وبالتالي إسقاط مبرر الوجود الروسي في سوريا، أو السماح بإنشاء قواعد روسية في (اللاذقية)، وهذا ما لا يسمح به الناتو، أو بتجريد روسيا من حليفتيها: إيران وتركيا، من خلال تحجيم الأولى، وربط الثانية باتفاقية استراتيجية مع الكورد.

كما سعت الإدارة الأمريكية إلى تحجيم دور إيران في المنطقة، وقطعت شوطاً كبيرًا بهذا الاتجاه، وظهرت بوادر وخيوط اتفاقية شفوية غير معلنة بين الطرفين، تكون إيران بموجبها محافظة على أنشطتها النووية السلمية بالحدود المسموحة، مع تواجد سياسي وعسكري محدود في المنطقة.

أما خلفية مساعي أمريكا في تحقيق السلام بين الأتراك والأكراد فتعود إلى عام ١٩٩٩م، حينما رتّبت عملية تسليم عبد الله أوجلان إلى الحكومة التركية، إذ كان الهدف منها هو تجريد المسألة الكوردية من طابعها العسكري، وإضفاء الطابع السياسي عليها.. ولم تبدأ مفاوضات السلام إلّا بعد عشر سنوات، وتحديداً في سنة ٢٠٠٩م، وفي ظل حكومة أردوغان، حيث قطعت المفاوضات شوطًا كبيرًا، وكادت أن تنجح لولا إعلان فشلها المُؤسِف، وانقطاعها سنة ٢٠١٥م.

وقد تصدّت أمريكا، بإدارتيها السابقة والحالية، لمشروع (الحزام والطريق) الصيني، ولأنشطة الصين الاقتصادية التكنولوجية، وحاربت شركاتها، واتخذت تدابير عديدة لتحجيمها، فدخلت بذلك معها في صراع اقتصادي وأمني، يتصاعد بشكل مطّرد، وصل حدّ تحريك القطعات العسكرية، وبناء التحالفات الاقتصادية والعسكرية والتقنية.

وتُعتبَرُ روسيا بقيادة بوتين، المشكلة العويصة في مواجهة أمريكا، فهي تتبنى استراتيجية أوراسية قومية، تنافس بشدة تطلعات تيار العولمة، وبالأخص خططه الرامية لتمدد الغرب في شرق أوروبا، ويعيش العالم اليوم صدى هذه المواجهة في غزو روسيا لأوكرانيا.

وقد مرَّ النظام السياسي الأمريكي بأزمة حادة بسبب تفاقم الصـــراع بين تيار العولمة اليســـاري، المتمثل بالحزب الديمقراطي، والتيار القومي اليميني المحافظ، المتمثل بالحزب الجمهوري، وبلغت ذروتها أثناء الانتخابات الأخيرة، ولا زالت تداعياتها مستمرة.

يبقى أن نؤكّد هنا.. أن التفاهم والتنسيق بين هذه القوى الثلاثة الفاعلة: (البروتستانتية الإنجيلية، واليســوعية الكاثوليكية، والصــهيونية المحافظة) بدأ يضــعف وينتابه التناقض والتردّد، وذلك بسبب الخلافات السياسية في إســـرائيل، وأزمة الحكم فيها، وكذلك تراجع دور الاتحاد الأوروبي في التأثير على الأزمات العالمية، بسبب صـــــراعاتها الداخلية، وتزايد النعرة القومية فيها، والركود الاقتصادي.. وهذا بطبيعة الحال أثّر سلباً على دور (الفاتيكان) في الأحداث العالمية، باعتبار أن أداتها السياسية، وهي الاتحاد الأوروبي، قد ضعفت ولم تعُد قادرة على مواكبة الأزمات. ولو أضفنا إلى كلّ ذلك، الصـــــراعات والخلافات داخل النظام السياسي الأمريكي بين التيارين المتصارعين، فإننا سوف نتمكن من فهم ملابسات التأخير في استكمال مخططات النظام العالمي الجديد، بل وإمكانية تعرضها للتغيير أيضًا.

**٢- روسيا:**

أما روسيا.. فقد نَمتْ فيها المشاعرُ الوطنيةُ والقوميةُ (القيصرية) المَكسُوَّةُ بالأرثوذوكسية، في الولاية الثانية لبوتين سنة ٢٠١٢م. فقد أسس بوتين العقيدة الروسية الاستراتيجية القائمة على الوطنية والقومية (الروســية) والمعتقد الديني الأرثودوكســـــــي، في موازاة العقيدة الاســـتراتيجية الأمريكية القائمة على الوطنية والقومية والمعتقد الديني البروتســـتانتي الإنجيلي، وتيار العولمة الأمريكي اليســاري، حتى أضــحت هذه العقيدة مدرســةً، ســمّاها البعضُ (المدرسة البوتينية)، ولقّبوا بوتين بالقيصر.

بدأت هذه المدرسـة نشـاطها بترسـيخ الوجود الروسي في جمهوريات الاتحاد السـوفيتي القديمة، ثم في حرب أوكرانيا ســنة ٢٠١٤م، ومن بعدها بالتدخّل الروسي في ســوريا ســنة ٢٠١٥م، ومن ثمَّ بالتّدخّل في ليبيا عام ٢٠١٦م، وبتتويج هذا التدخّل مُؤخّراً بإرسال مرتزقة فاغنر مع الطائرات والمعدات العسكرية إليها، واستكملت إثبات وجودها في حلبة الصـراع بغزوها أوكرانيا، في شباط من هذا العام.

لقد حطَّت النزعة البوتينية بظلالها على الشـــــرق الأوسـط، فثبّتتْ أركان حكم الأسـد، ومن أجل هذا التثبيت سَعتْ إلى ضمان الدعم الكوردي له، من خلال محاولة إبرام اتفاقية سـلام بينهما، والتي لم تفلح لحدّ الآن.. وناورَتِ المدرسـتان البوتينية والأردوغانية بحذاقة في إطلاق يديهما في ســـوريا؛ إطلاق يد تركيا في حدود (الميثاق الملي) من الأراضي الســـورية (إدلب، عفرين، كوباني، شـرق الفرات)، وإطلاق يد روسيا في اللاذقية وما حولها.

وتُخطّط روسيا لجعل (بانياس) ميناءً لتجميع النفط الروسي والإيراني ونفط كركوك ونفط سوريا، وتحميلها إلى أوروبا من دون المرور من تركيا. وقد تم وضع هذا المخطط في موازاة المخطط التركي في جعل تركيا نقطة توزيع للطاقة في العالم، وفي موازاة المخطط الإسرائيلي في جعل (حيفا) مركزًا لتجميع نفط كركوك، ونفط مصر، ونفط البحر الأبيض المتوسط، والنفط الإسرائيلي، لتزويد أوروبا عن طريق قبرص واليونان.

تسعى روسيا إلى ضمان أمن إسرائيل من منطلق المصلحة المشتركة، فهي الغطاء الذي يسترها أثناء ضربها وتَحييدِها للوجود الإيراني في سوريا، في الوقت الذي تتغاضى فيه إسرائيل عن جهود روسيا في إسناد الأسد.

وهذا، على الرغم من أن سياسة الدولتين قائمة على التَّدَيُّن القومي.. فالأرثودوكسية دين القومية الروسية السياسية، واليهودية الموسوية دين القومية اليهودية السياسية، وهما متناقضتان ومتنافستان وتسعيان لبسط النفوذ في المنطقة نفسها.

ويُعَدُّ الغزو الروسي لأوكرانيا في شباط الماضي، ذروة الصراع الأمني والاقتصادي بين روسيا والغرب، مُمثَّلًا بالاتحاد الأوروبي وأمريكا، فأخذت بذلك الحرب الهجينة بينهما طابعًا عسكرياً ساخناً، وإن كانت هذه الحرب تُقاد من قبل الغرب بالنيابة؛ من خلال أوكرانيا، ويبدو أن مآلات هذا الغزو ستظهر على شكل نظام سياسي ونقدي عالمي جديد.

**٣- تركيا:**

وأما تركيا.. فقد تَبنَّى النظامُ القومي التركي المحافظ (العثماني) فيها، مهمة بسط النفوذ في الشرق الأوسط؛ بَرِّهِ وبحرِهِ، وذلك من المنطلقات الآتية:

أ- من منطلق أمني: فالنظام القومي المحافظ يعاني من المسألة الكوردية، وما صاحبها من مشكلة الإرهاب، وإن لم يكن لها دخل فيها. وهو كذلك يعاني صراعًا على البقاء مع قوى العولمة وأدواتها الداخلية، وتُعدُّ جماعة غولن من أهمّ أدواتها الداخلية الفاعلة.

ب- من منطلق وثيقة (ميثاق مللي): وهي وثيقة من ستة بنود، أقرها مجلس مبعوثان العثماني في ٢٨ يناير ١٩٢٠م. وفيها رسمٌ لحدود الدولة التركية ما بعد الحرب العالمية الأولى، يدخل فيها كلٌّ من شمال سوريا، وكوردستان العراق، ومياه شرق البحر الأبيض المتوسط.

ج- من منطلق اقتصادي: تسعى تركيا إلى الدخول في قائمة الدول العشر الأوائل، وستكون للموارد الطبيعية في مناطق (ميثاق مللي)، ومواردها البشرية، أثر كبير في تسريع العملية التنموية في تركيا.

لا ينطلق النظام السياسي التركي، في بسط نفوذه في الشـرق الأوسط، من منطلق المصالح التركية فحسب، وإنما هو يعمل ضمن أطر وأهداف المخطط الذي يسـّـرَ له سبيل الحكم، وأعانه في إنجاز مهماته بكفاءة، وساهم في حفظ استدامته.

توافقت تطلعات قيادة النظام السـياسي التركي الحالي في التسـعينات، مع التوجهات العالمية الداعية لإسـناد التيار الإسـلامي السـنّي المعتدل، وتزامنت مع وضـع الخطوط العريضة للنظام العالمي الجديد، وتوصيف الدور التركي فيه كقوة إقليمية فاعلة في الشـرق الأوسط. ويتلخص هذا الدور في:

١- إنهاء المسألة الكوردية في إطار اتفاقٍ للسلام يحقق المطالب الكوردية، ويُنهي الصـراع العسكري.

٢- ضمان أمن إسـرائيل، من خلال اتفاقيه السلام، بوساطة وضمانة تركية.

٣- تعزيز العلاقات مع إيران، في موازاة تحقيق التوازن معها، ضـمن إطار الدور الذي ستلعبه إيران في المنطقة.

٤- اسـتكمال إجراءات الانضـمام للاتحاد الأوروبي، في موازاة تعزيز العلاقات مع الدول العربية والإسلامية، ولعب دور الوسيط في حلِّ القضية الفلسطينية.

٥- تهيئة الأرضية للتصالح القومي مع الروم والأرمن والعرب، وبناء علاقات حسن جوار، وتصفير الخلافات، والمساهمة في تخفيف التوترات، وإحلال السلام والاستقرار.

وفي ظلّ مسـيرة الحكم في تركيا، طرأت مسـتجدّات جعلت تنفيذ مخطط التغيير في الشـرق الأوسط، والدور التركي فيه، على المِحكّ. فالمسألةُ الكوردية التي بدأت عملية حلّها في ٢٠٠٩م، قد توقفت بانقطاع مفاوضـات السـلام في ٢٠١٥م، نتيجة عوامل داخلية وخارجية، كانت النزعة القومية لدى الجانبين من أبرزها، إضـافةً إلى انعدام بناء الثقة، ومعاداة جماعة فتح الله غولن لعملية السـلام، والضـغط الخارجي لإعاقة السـلام من قِبَل إيران، ومن قِبَل التيار المناوئ لأردوغان في الإدارة والكونجرس الأمريكي.

تَزايدُ النفوذِ التركي في ليبيا وسـوريا، لا بدَّ من أن تُصـاحبَه مفاوضـات علنية بين النظام التركي والكورد، إذا ما أُرِيدَ لهذا النفوذ من أن يصـمد ولا ينكمش.. والطرفان الكورديان المُؤهّلان لهذه المفاوضات هما السيدان مسعود البارزاني، وعبد الله أوجلان.. وعلى الرغم من العداء المزمن والصـراع المستميت على تمثيل الكورد بينهما، إلّا أن البارزاني يُمكِنه أن يلعب دور المبادر والوسيط بين النظام التركي والكورد في التهيئة لمفاوضات مثمرة تؤول إلى سـلام دائم في المنطقة. وسـتكون محاولات التفاهم بين المجلس الكوردي السـوري، وحزب الاتحاد الديمقراطي السـوري، الأرضـية المناسـبة لتأسـيس حوار كوردي - كوردي ينتهي إلى

تحديد الطرف الكوردي المُخاطَب في مفاوضات السلام التركية - الكوردية. وقد تلجأ أمريكا إلى فصل القضية الكوردية في تركيا، عن مثيلتها في العراق وسوريا، فتسعى إلى فكِّ الارتباط بين حزب الاتحاد الديمقراطي السوري، وحزب العمال الكوردستاني، وتجمع الفصائل الكوردية السورية - وبدعم من السيد مسعود البرزاني - في صيغة اتفاق يؤول إلى تشكيل أرضية لتفاهم كوردي -كوردي في العراق وسوريا، بعيداً عن ملف أكراد تركيا؛ كي تضمن أمريكا دخول الأتراك في حوار السلام في المنطقة، وستدعم أمريكا الحكومةَ التركية في إنهاء الوجود العسكري الكوردي المسلح في تركيا. وأعتقد أن التيار القومي التركي سوف يدعم هذا الحوار والسلام المُصاحِب له، إذا ما اطمئنَّ إلى عدم سعي الكورد للانفصال، وحصل على ضمانات بهذا الخصوص، إضافة إلى نزع السلاح، وترك الصراع المسلح، والعودة إلى ممارسة الحياة الطبيعية. وأعتقد أن هذا ممكن الوقوع، ضمن التغييرات السياسية التي ستحصل في المنطقة.

أمّا العلاقات التركية الإسرائيلية، فقد بدأت بالتحسّن بعد زيارة أردوغان لإسرائيل سنة ٢٠٠٥م، ولولا الحروب الثلاث التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة، وتخلّيها عن عملية السلام القائمة على حلّ الدولتين، وتحوّلها إلى دولة يهودية قومية عاصمتها القدس؛ لكانت العلاقات تمتدّ وتتنوع وتأخذ طابعًا استراتيجيًا تفضي إلى سلام واستقرار دائم في المنطقة.

ورغم كل هذه التطورات والمستجدّات، فإن الطرفين حافظا على مستوى معيّن من العلاقات، بحيث يمكن البناء عليه وتأهيله.. ذلك لأنهما يعلمان أهمية أحدهما للآخر؛ فتركيا صمام الأمان الذي يحمي حدود إسرائيل من أي اعتداء عربي أو أعجمي، ومن خلال الاتفاقية التركية - الكوردية. وإسرائيل مهمة للنظام الحاكم في تركيا، لأنها قادرة على تقديم الدعم والمؤازرة له لتثبيت ركائزه، وضمان دعم الإدارة الأمريكية له. هذا.. ناهيك عن المصالح الاقتصادية والعسكرية والأمنية المشتركة بينهما.

ولا يُشكّل دعم إسرائيل للكورد، ودعم النظام التركي لحركة حماس، تهديدًا لهذه العلاقة، لأن الدعم الإسرائيلي للكورد إنما هو في إطار تأسيس اتفاق تركي - كوردي يضمن أمن إسرائيل، والدعم التركي لحماس، يصبّ في عملية السلام القائم على حلّ الدولتين.

أمّا العلاقات التركية الإيرانية، فقد سارت بصورة جيدة، وبوتيرة ثابتة، كما كان مرسوماً لها منذ نهاية الدولة العثمانية ولحدّ الآن؛ على الرغم ممّا يعتريها من صراعات خفيّة على النفوذ في المنطقة، ولم تتغير وتيرة العلاقة الجيدة هذه بعد وصول الخميني إلى سدة الحكم في إيران، وإنشائه نظاماً سياسياً شيعياً فيها، على الرغم من سياسة الحكومات التركية العلمانية الأتاتوركية المعادية للعالم الإسلامي، التي حكمت البلاد في تلك الحقبة من

التاريخ.. وهذا أمر لافت للنظر، يستوجب التوقف عنده، لأنه يعني - وبكل وضوح - أن الحفاظ على هذا النمط من العلاقة بين الطرفين كان مطلوباً ومُخطَّطاً له من خارج إرادة الطرفين. وبعد وصول السيد رجب طيب أردوغان إلى سدة الحكم في ٢٠٠٢م، تعززت العلاقات السياسية والاقتصادية، وأخذت طابعاً استراتيجيًّا، خاصة وأن السيد أردوغان كان مؤيداً للثورة الخمينية، ونظامها السياسي؛ حاله حال الكثيرين من الراديكاليين الإسلاميين الأتراك في تلك الحقبة من الزمن، فأضاف هذا الموقف طراوة على تلك العلاقة، وأكسبها زخماً إضافيًّا تجلّى في اهتمامه الشخصي بهذه العلاقة، وتفاعله معها. فارتفع حجم التبادل التجاري، وازداد اعتماد تركيا على الغاز الإيراني، ونشطت السياحة، وبناء الحسينيات، والأنشطة التشيُّعية في تركيا.. كلُّ ذلك، بالإضافة إلى إسناد السيد أردوغان شخصياً لإيران إبّان الحصار الأمريكي الأول والثاني لها، وتعرّضه للعقوبات الأمريكية جراء هذا الدعم، هو وحكومته.

ولم يُعكِّر صفو هذه العلاقات الطيبة إلّا دعم إيران لحزب العمال الكوردستاني، والصراع على النفوذ في المنطقة. فإيران دعمت – ولا زالت – النشاط العسكري الكوردي المسلح لهذا الحزب ضد تركيا، على الرغم من تعهداتها لتركيا في المشاركة معها في محاربة الإرهاب ضمن الاتفاقية الأمنية المبرمة بينهما.. ويعود سبب دعم إيران لهذا الحزب الكوردي المسلح إلى:

١- الاتفاقية الأمنية المبرمة بين الطرفين، والتي بموجبها يحمي الحزب الحدود الشمالية الغربية لإيران من الجماعات المسلحة المعادية لإيران، في مقابل الدعم اللوجستي الإيراني لهذا الحزب وحماية تواجده في المناطق الحدودية من إقليم كوردستان العراق.

٢- نشاط هذا الحزب المعادي لتركيا يصبّ في مصلحة إيران، إذ يدفع تركيا إلى الإحساس بأهمية ودور إيران في إنهاء الوجود العسكري المسلح لهذا الحزب، وحاجتها إلى الدعم والتعاون معها في هذا المجال، مما أجبر تركيا لإبرام اتفاق أمني معها.

٣- تواجد حزب العمال الكوردستاني على الساحة الكوردية بقوة، يعزز شقّ الصفّ الكوردي، ويساعد إيران على فرض نفوذه في إقليم كوردستان العراق، مع ملاحظة الإجراءات الإيرانية للحفاظ على التوازن في قوة هذا الحزب وجعلها تحت السيطرة الدائمة، تماماً مثل سياسة إسرائيل تجاه حركة حماس، فهي تدعم وجودها، وتعينها على البقاء من جهة، وتُلزمها حدّها، من جهة أخرى، وذلك لتعميق شقّ الصّف الفلسطيني، لضمان أمنها القومي.

أما الصـراع على النفوذ بينهما، فهو تاريخي وقديم، أسدلت اتفاقية سايكس بيكو الستار عليه.. والتي رســمت مع اتفاقياتٍ لاحقة الدور التركي في المنطقة، وحدّدت ملامح النفوذ الإيراني.. ومع الاقتراب من نهاية القرن العشــرين، تمت صياغة نظام عالمي جديد، أسقطَ نظام الشـاه في إيران، وأنشـأَ نظامًا إسـلاميًّا شـيعيًّا على أنقاضـه، وعبّد الطريق أمام التيار الإسـلامي السـنّي المعتدل المتنامي في تركيا للوصـول إلى السـلطة، فهيّأ بذلك الأرضـية لبروز قوتين إقليميتين تفرضان نفوذهما في المنطقة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

تعاظمَ النفوذ الإيراني أولاً حتى غطّى الهلال الخصيب (العراق والشام) واليمن، وسنتكلم عن هذا النفوذ في معرض الكلام عن إيران.. ثم تلاه تعاظمُ النفوذ التركي، الذي شــكّل في الداخل جبهة إسـلامية قومية، مكّنته من احكامِ السـيطرة داخليًّا، وفرضِ النفوذِ خارجيًّا، في العراق وسوريا وليبيا وشـرق البحر الأبيض المتوسط.

ظهرت بوادر لعبة التوازن هذه بدايةً في العراق، بعد احتلاله في ٢٠٠٣م، إذ دخلته إيران بقوة داعمةً التيارَ الشـيعيَّ، ودخلته تركيا بشـكل أخفّ بكثير، داعمةً السـنةَ. ثم توسـعت ساحة التنافس، وتقاطعت المصالح بين الطرفين إلى سوريا وليبيا.

ولكن يبـدو أنّ مهمـة النظـام الإيراني قـد شــارفـت على النفـاد، فظهرت بوادر تحييـده وانكماش نفوذه، في مقابل تزايد النفوذ التركي في الشـرق الأوسط، الذي سيقوم - وبالتنسيق والتفاهم مع الكورد - بملء الفراغ الذي تتركه إيران في الشــــرق الأوسـط.. وهذا بالطبع سيمهّد لسحب أمريكا جيوشها من المنطقة، وتقليل نفوذها، وحصــــره في صيغة اتفاقات سياسية وأمنية؛ الهدف الأساسي منها هو ضمان أمن إســـرائيل، وتحقيق التوازن، وسلاسة تدفّق النفط.

أما التوازن في العلاقة مع الغرب والانضـمام للاتحاد الأوروبي، وفي العلاقة مع الشــــرق العربي والإسـلامي، فهو أيضـاً قد طرأت عليه بعض المسـتجدّات التي أثّرت على الدور التركي في عملية التغيير في المنطقة.

فالعلاقة مع الغرب قد تطورت بشــكل ملموس، واســتكملت تركيا معظم الأســس والضوابط والتعليمات التي وضعها الاتحاد الأوروبي كشــــروط لقبول عضوية تركيا، ولكن ممانعة بعض الدول - لأسباب عرقية ودينية - منعت تركيا من الانضمام، حتى أضحى هذا الانضمام حبراً على ورق، في ظل الحكومة القومية المحافظة التي تحكم البلاد الآن.

وعلى الجانب الآخر، انفتحت حكومة السـيد أردوغان على العالم العربي والإســلامي مع بدايات تأسيسـها، وأبرمت عقودًا اقتصادية وسياسية وأمنية عديدة مع العديد من الدول العربية والإسـلامية.. إلا أن الصــــراع العربي - العربي، ووقوف حكومة أردوغان مع طرف

منه، من جهة، واســـتخدام التيار المعادي لأردوغان داخل الإدارة الأمريكية لبعض الدول؛ كالسـعودية ودولة الإمارات العربية، في السـعي لإسـقاط حكومته، من جهة أخرى، أفسـد العلاقة التركية العربية، وأقحمها في دوامة التناقضـــات، وحصـــل أردوغان بموجبه صـــفة الصـديق العدو عربياً، وعلى الصـعيدين الشـعبي والحكومي. ويبدو أن هذه الصـفة، وهذه الصـــورة، هي الصـــورة المثلى لما هو مرســـوم في النظام العالمي الجديد.. فعلاقة الصـــداقة والعداء هذه كفيلة بالسيطرة على كل تحرك عربي معاد لإســـــرائيل، وصمام الأمان لأمنها القومي.

أما بخصـــوص تصـــفير المشـــاكل مع دول الجوار، فقد كان هو الأســـاس الذي بنت عليه الحكومة التركية سـياسـتها الخارجية، فتبنّت سـياسـة الانفتاح على أرمينيا واليونان، لمعالجة جملة المشاكل الموروثة، وإيجاد الحلول الوسط التي تحقق المصالح المشتركة والحدّ المقبول من المصـــالح القومية التي تُرضي كل الأطراف.. وفي هذا الإطار جرت العديد من الزيارات المُتبادَلة بين الأطراف المعنية. كما وعززت الحكومة دورها في تنشـيط التعاون الاقتصـادي بين أعضـــاء منظمة التعاون الاقتصـــادي للبحر الأســـود. أما العلاقات مع العراق وســـوريا والأردن، فقـد تطوّرت إلى حـدّ إلغـاء التـأشـــيرات بينهـا، وتوقيع العـديـد من الاتفـاقـات الاقتصادية والأمنية.. لكن جهود الانفتاح وتصفير المشاكل هذه، اصطدمت بواقع متناقض معقّد.. فتنامِي النعرةِ القومية بشـكل عام في العالم، وتبنّي (بوتين) سـياسـةَ الصـــــراع على النفوذ في العالم، من منظور قومي أرثودوكســـــيّ، من خلال تصـدّيه للمشـهد السـياسي والأمني في أوكرانيا وســـوريا وليبيا، وإنهاء محادثات الســـلام التركية الكوردية؛ الذي دفع الأتراك إلى تعزيز تواجدهم العسكري في سوريا والعراق، وعمليات تقاسم النفوذ في شـــرق البحر الأبيض المتوســـط على النفط والغاز، كل هـذه العوامـل والمؤثّرات تظافرت لتكون العوائق التي حالت دون تصفير المشاكل وإنهاء الأزمات.

عليه.. فإن تركيا تأخرت في تقمّص شـخصـيتها كقوة إقليمية فاعلة، ويُعدُّ هذا سـببًا من الأسباب التي أثّرت بطبيعة الحال في تأخّر تنفيذ النظام العالمي الجديد، بل وتغييره أيضًا.

**٤- إيران:**

أمّا إيران.. فقد بدأت تأخذ دورها في حلبة الصـــراع على النفوذ في الشـــرق الأوسط بعد سقوط الشاه، وإعلان الثورة ومجيء الخميني إلى السلطة. هذه الثورة الفارسية التي تبنّت الفكر السـياسي والمذهب الديني الشـيعي، سـعت منذ اندلاعها إلى تصـدير هذا الفكر إلى العالم، وإعادة مجد الإمبراطورية الفارسية في الشـــرق الأوسط. ولهذه الميزة بالذات.. ميزة الفارسـية المتشـيعة، تم تسـهيل نقل الخميني من باريس إلى طهران، بعد إسـداء النصـح

للشـاه بترك البلاد، وتأسـيس نظام فارسي شـيعي جديد. وكان معلومًا أن هذه الميزة قادرة على أداء دور في غاية الأهمية ضمن مخطط النظام العالمي الجديد.

أرعـبَ النظامُ الإيراني معظمَ الـدول العربيـة، وبـالأخصّ الخليجيـة منهـا، كما تبنّى هـذا النظام الدفاع عن القضـية الفلسـطينية وتحرير القدس، ورفع - منذ نشـوئه - راية العداء لأمريكا وإســـــرائيل. ويبدو - لأول وهلة - أن هذه الميّزات تتنافى مع عملية إعانة الثورة وتســهيل إنشــاء نظامها الســياسي، ولكن الحقيقة أن النظام الإيراني، وبهذه الميّزات، تمكن بجدارة من أداء الدور المرسوم له في ظل النظام العالمي الجديد.

فالمحصّلة النهائية من تأسيس نظام عالمي جديد، هي ضـمان أمن الدولة الإســـرائيلية ضــمن حدود ثابتة، وعاصــمتها القدس، إضــافة إلى نتائجها الأخرى بالطبع. وضــمان أمن إســـرائيل يتطلّب كســـر الطبع اللاسامي عند العرب؛ وبمعنى آخر: إخماد طبيعة العداء لإســـرائيل عند العرب؛ وعلى المستويين الشعبي والحكومي، فإســـرائيل تعتقد، بل هي متأكّدة، من أنه لا أمان لها في بيئة يحيطها عداءٌ عربي متأصّل.

أدّى النظـام الإيراني، وبهـذه الميّزات الفريـدة، دوره بكـل جـدارة.. فســـاهم في حمايـة إسـرائيل، وضمان أمنها، بالصيغة المرسومة في إطار النظام الجديد، فحقّق ما يلي:

١- دفعَ الأنظمة العربية، الخليجية منها بالأخصّ، إلى التطبيع مع إســـــرائيل، وقبولها (الاحتلاب) من قبل أمريكا. وذلك من خلال تفَرعُنه عليها، وتهديده المســـتمر لأمنها.. فسـارعت هذه الأنظمة إلى التطبيع مع إســـرائيل؛ من خلال فتح القنوات الدبلوماسـية، وتوقيع الاتفاقيات الأمنية والاقتصـادية والثقافية والسـياسـية؛ العلنية والســـريّة، وتبادل الزيارات، وممارسة الأنشطة المشتركة.. حتى غدت إســـرائيل مُطمئنّة على أمنها في المديين القريب والمتوسط، أي: خلال المئة عامٍ القادمة على الأقلّ.

٢- دفعَ الشعب العربي والإسلامي - بشكل عام - إلى التخلّي عن نزعة العداء لإســـرائيل؛ المتأصّـــلة في ذهنه وروحه وتربيته.. وذلك من خلال الممارســـاتِ العنيفة والدموية التي صـاحبت عمليات تصـدير الثورة وبسـطِ النفوذ في الشـــــرق الأوسـط، وخاصـة في العراق وسـوريا ولبنان واليمن، وتأسـيس جبهة الممانعة، التي يعتبرها الشـعب العربي والإسـلامي السنّي جبهةً تستهدف السنّة وليس إســـرائيل.. وقد دقّ صدام حسين الإسفين في نعش العروبة وطبعها الأزلي المعادي لإسرائيل، وذلك من خلال احتلاله للكويت، فقلع بذلك كل معاني الوطنية والعروبة من جذورها لدى الكثير من العرب والمسلمين.

٣- تبنّى النظام الإيراني القضـــية الفلســـطينية، إيماناً منه – كما يدعّي بطبيعة الحال – بهذه القضـية من منظوره الإسـلامي؛ على الرغم من أن التاريخ يؤكّد عكس هذا الادعاء، إذ

التاريخ حافل بتعاون التشيّع الفارسي مع اليهود والغرب الصليبي. واستطاع النظام - بهذا التبنّي - استقطاب التأييد الشعبي، جنبًا إلى جنب مع تبنّيه لقضية الحسين - رضي الله عنه -.. فتمكّن من إسناد الثورة، من خلال الضرب على وتر المشاعر الدينية، وإثارتها عند الحاجة، وتأمين القاعدة الجماهيرية اللازمة لديمومته وصموده وتحقيق غاياته، ليس داخل إيران فحسب، ولكن داخل الأراضي الفلسطينية أيضاً، من خلال دعم وإسناد حركتي الجهاد وحماس، اللّتين تُعتبَران قاعدتي الممانعة الإيرانية في فلسطين.. وهنا يكمن بيت القصيد!؛ إذ إن هذا الدعم والإسناد قد عمّق الشرخ في البيت الفلسطيني، فأصبحت إمكانية الاتفاق بين هاتين الحركتين ومنظمة التحرير الفلسطينية شبه مستحيلة، وستبذل إيران قصارى جهدها لتأمين وإدامة الخلاف الفلسطيني - الفلسطيني، وهذا ما تريده إسرائيل وتتمناه في العلاقات الفلسطينية الداخلية، وهذا - في الوقت نفسه - هو الدور المناط بالنظام الإيراني في ظلّ مخطط النظام العالمي الجديد.. فدوام الخلاف الفلسطيني - الفلسطيني ضمان لأمن إسرائيل، وتحقيق لدولتها القومية بعاصمتها القدس، كما تدّعي، وما تلك الحفنة من الصواريخ التي تسقط بين الفيّنة والأخرى على إسرائيل، وتلك الهتافات والتهديدات الجوفاء الصادرة عن رجالات النظام الإيراني، إلّا عقاقير مخدّرة تساهم في تشكيل القاعدة الجماهيرية العاطفية والتفافها حول الثورة والنظام.

٤- يبقى هنا أمر لا بد من توضيحه بهذا الصدد، وهو: أن الإمبراطورية الفارسية، وعلى مدار التاريخ، لم تحمل بُنْيَتُها أيَّ عداءٍ لإسرائيل واليهود، بل بالعكس؛ فقد ساهمت في إنقاذ اليهود، ودعمتهم وحمتهم، في إطار توافق المصالح القومية المشتركة للطرفين. كما أن التشيّع لم يكن، في يوم من الأيام، عبر التاريخ، معاديًا لإسرائيل.. بل على العكس، فقد كان هناك تعاون مشترك بين الطرفين في إطار تحقيق المصالح المشتركة.. واليوم؛ امتزجت الفارسية بالتشيّع، وتأسّسَ نظامٌ سياسي فارسي شيعي.

هذا النظام، أصبح يسعى إلى إعادة مجد الإمبراطورية الساسانية في الشرق الأوسط، بحُلّةٍ شيعية وقاعدة شعبية مسلحة تُسمّيها الممانعة.. فتضاربت هذه المساعي مع مصلحة الصهيونية المتديّنة، وأخذت تُزاحمها على النفوذ في المنطقة.. وغدا بذلك هذا النظام يغرّد خارج السرب، ويحيد عن المسار المرسوم والدور المناط له؛ ناهيك عن أنه قد أكمل وظيفته الأساسية في دفع الشعب العربي وأنظمته الحاكمة إلى أحضان التطبيع.. وانتهى تاريخ صلاحيته للاستعمال، وأصبح وجوده مضرًا يُشكّل خطرًا على المحيط الذي هو فيه، لذلك وجب تقليم أظافره وتحييده، وحصر نفوذه السياسي والعسكري ضمن التغييرات السياسية التي ستحصل في المنطقة.

ومع فوز (إبراهيم رئيســي) برئاسة الحكومة الإيرانية، سلك بحكومته - التي شكلها من عناصر وقيادات الحرس الثوري - سـياسـتين رئيسـيتين، هما: سـياسـة إتمام مفاوضـات فيينا وإنهائها باتفاق جيد، حسـب تعبير المسـؤولين الإيرانيين، وسـياسـة الدبلوماسـية الاقتصـادية والانفتاح على دول الجوار وبناء الثقة معها.

**٥- إسـرائيل:**

أمّا إســرائيل، فهي السكين الغادر في خاصــرة الأمة العربية والإسلامية، الذي ثبّته (وعد بلفور) قبل مئة عام مضت، تاركًا جرحًا عميقًا غائرًا في قلب هذه الأمة، يصعب تداويه.

خلال المئة عام الماضية، خاضت إسـرائيل ثلاثة حروب رئيسية.. في (١٩٤٨م)، و(١٩٦٧م)، و(١٩٧٣م)، ضمّت إسـرائيل بعد كل حرب منها جزءًا من الأراضي الفلسطينية إليها. أعقبت هذه الحروب محاولاتٌ عديدة لإرسـاء سـلام دائم في الشــــرق الأوسـط، بدأت باتفاقات (كامب ديفيد)، سنة ١٩٧٨م، ومعاهدة السلام بين مصـــر وإسرائيل، سنة ١٩٧٩م، ومؤتمر مدريد، سنة ١٩٩١م، واتفاقات أوسلو سنة ١٩٩٣، ومعاهدة السلام بين إســـرائيل والأردن سـنة ١٩٩٤م، وقمة كامب ديفيد سـنة ٢٠٠٠م، تلتها سـلسـلة مباحثات ومفاوضـات بين الجانبين العربي والإسـرائيلي، حتى أعلن (جاريد كوشنر) عن اتفاقية جديدة سمّاها (صفقة القرن) سنة ٢٠١٩م، والتي تلغي اتفاقات الحلّ على أساس الدولتين، التي تمت بين الأطراف المعنية، والمدعومة دوليًا في القرن الماضي.. صــفقة القرن هذه قائمة على أســاس الاعتراف بإسـرائيل كدولةٍ يهوديةٍ، بحدودٍ آمنة من الغور إلى البحر، وعاصمتها القدس.. تحاذيها من الشــــرق ما تبقّى من الضـفة الغربية، ومن الجنوب قطاع غزة، تحكمهما حكومتان، قد تُشكّلان دولةً فلسطينية؛ إذا اتفقتا!

الصهيونية، حركة سياسية يهودية تأسست في أواخر القرن التاسع عشـــر، بهدف تأمين هجرة اليهود في العالم إلى الأرض الموعودة - في معتقدهم - وتأسيس دولة إســرائيل، وهي حركةٌ سياسيةٌ دينيةُ البدايات، استخدمت كافة الوسائل المتاحة لديها للتأثير على السياسات العالمية، لتحقيق هدفها في تأسيس دولة إســـرائيل.. فقد أسس قادة الصهيونية منظمات ســـــرية لهذا الغرض، كالماسـونية والروتاري، ووضـعوا يدهم على الكثير من البنوك؛ وعلى رأســها البنك الدولي، وأثّرَوا على الكثير من مراكز القرار الســياســية في العديد من الدول الفاعلة في العالم، ودعموا حركات التبشير المسيحية في البلاد الإسلامية، بل وانغمس بعضهم في معتقدات بعض المذاهب المسيحية، واستحوذوا عليها، كمدرسة الرهبنة اليسوعية التي تتحكم في الفاتيكان اليوم من خلال البابا فرنسـيس اليسـوعي، والإنجيلية التي تتحكّم في المذهب البروتستانتي الأمريكي، فهاتان المدرستان المسيحيتان تؤمنان بضــرورة إنشاء دولة

إســـرائيل وظهور المسيح المنقذ - لا يقصدون عيســـى عليه السلام - من القدس، الذي سيحكم العالم وفق مصالحهم ومعتقداتهم، وهو نفس المعتقد الذي تؤمن به الصهيونية، وتدعو له.

الصـهيونية، هي الوجه السـياسي للديانة اليهودية والقومية اليهودية، التي تؤمن وتدعو إلى إنشـاء وطن قومي آمن لليهود، وعاصـمته القدس في فلسـطين.. وهي وإن بدأت بداية دينية، إلّا أنها اليوم انقسـمت إلى ثلاث فرق سـياسـية متناحرة ومتنافسـة على الحكم في إسرائيل: الصـــهيونية المتدينة؛ ويقودها بنيامين نتانياهو. الصـــهيونية الليبرالية؛ ويقودها أفيغادور ليبرمان. والصهيونية الوسط (يحتضن اليسار أيضًا)، ويقودها بيني غانتس.

هذه الاختلافات، وإن كانت بعضها شخصية، فإنها عقّدت المشهد السياسي في إســـرائيل، باعتبار أن الحكومات الإسرائيلية هي الأداة السـياسـية للصـهيونية، فهي قد تسـبّبت في تشـكيل حكومة هشـة، بعد مخاض صـعب جدًّا.. وأدّت إلى تأخير تنفيذ مخططات النظام العالمي الجديد، ناهيك عن أنها قد تسـبّبت في تأخير ضـمّ غور الأردن، وأجزاء من الضـفة الغربية.

الصهيونية؛ المتدينة والليبرالية واليسارية، لا تُعادي النظام الفارسي الشيعي، وإنما تخشـى مطامعه في بسط النفوذ على الشـــرق الأوسط، لذلك ستسعى إلى منعه من امتلاك سلاح نووي، وتحييد تواجده السياسي والعسكري في الوطن العربي، وتقزيم برنامجه الصاروخي، وفق ما هو مرسوم في النظام العالمي الجديد.

الصـهيونية؛ المتدينة والليبرالية واليسـارية، لا تتخذ موقف العداء من نظام الأسـد، وإن كانت تتمنّى رحيله، باعتباره المقنِّن للوجود الإيراني والروسي في سوريا، ولولا أنها تخشى من وصول التيار السنّي العربي الى سدّة الحكم في سوريا، لكانت تسعى بجدّ لإسقاطه.

الصـهيونية؛ المتدينة والليبرالية واليسـارية، تُعادي بشـدة التيار الإسـلامي العربي السـنّي، وبالأخصّ (الإخوان المســلمون)، وذلك لأنه يحمل في ذاته الطبعَ اللاســامي المعادي للصـهيونية منذ نشـأته، ولم تسـتطع أيّ جهة أو قوة في العالم إجبارَه على التخلّي عن هذا الطبع، أو إغراءه بهذا الخصوص، فشكّل هذا التيار – بهذه الخصوصية – تهديدًا صـــريحًا لأمن إســـرائيل، ولهذا أصبح الوقوف ضده، وتحييده سياسياً، ركناً من أركان النظام العالمي الجديد، فقامت الأنظمة الوظيفية العربية، والخليجية منها بالذات، بمحاربة (الإخوان المسلمون)، وبالأخصّ بعد خطاب (بوش) الأب، سنة ١٩٩٠م، الذي أعلن فيه العدّ التنازلي لإنشاء نظام عالمي جديد، بحضورِ (تاتشـــر)، ودعمِ (غورباتشوف). حينها اتفق رؤساء كلّ

من أمريكا وبريطانيا وروسيا (بوش و تاتشـــر و غورباتشوف) على خلق عدو جديد بعد سقوط الإتحاد السوفيتي، اسمه الإسلام السياسي، المتمثل بالتيار الإسلامي السنّي.

ويبدو أن التيار الإسلامي السني، وبالأخصّ تنظيم (الإخوان المسلمون)، يشعر بالضغوط المفروضـــة عليه، فأخذ يتأقلم مع الوضـــع الجديد، ويتّخذ التدابير اللازمة للخروج من أزماته.. ولكن يبدو أنه لم يستشـــرف المستقبل، ولم يفهم أن المئة عام القادمة لن تكون في كل تفاصـيلها وحيثياتها كالمئة الفائتة، وأنه يجب أن يتحوّل إلى تيار جماهيري يخاطب كل المواطنين ويعيش أحداثهم، فالمواطن في المئوية القادمة ســيكون محور التغيير ورأســماله الاجتماعي.

طوّرت إســـــرائيل علاقتها مع الصـين، على غير رغبة أمريكا، بعد قيام الرئيس الصـيني (جيانغ زيمين) بزيارة إلى إســـرائيل عام ٢٠٠٠م، أعقبتها زيارة رئيس وزراء إسرائيل (إيهود أولمرت) إلى (بكين)، عام ٢٠٠٧م، وتوّجت الدولتان علاقتيهما بعدة اتفاقات اقتصـــادية وعسـكرية وثقافية وسـياحية. ولا يُسـتَبعَدُ إبرام اتفاق اسـتراتيجي بينهما مسـتقبلاً، يحل محل العلاقة الاستراتيجية الإســـرائيلية الأمريكية، بعد أفول نجم أمريكا، إذا ما استطاعت إسـرائيل الصمود والبقاء لذلك الحين.

**٦- دول الخليج:**

أمّا دول الخليج، وعلى رأســـها دولة الإمارات العربية والمملكة الســـعودية وقطر، فقد دخلت حلبة الصـــــراع على النفوذ من خلال النظام العالمي الجديد، وذلك لقيادة عملية التطبيع مع إســـــرائيل، وتأمين الأموال اللازمة لتنفيذ أجزاء من المخطط، وتحقيق التوازن الاسـتراتيجي مع إيران، وتهيئة الأرضـية للتواجد العسـكري والسـياسي الأمريكي في الخليج، وإعطائه المبرر القانوني.

وليس لدول الخليج دور يُذكَر في رسم سياسات الشـــرق الأوسط، وذلك لانعدام أهلية قادتها، وضـــحالة اهتماماتها، وســـهولة تســـييســـها من قبل القوى الفاعلة، من جهة، والصـراعات الخليجية-الخليجية، من جهة أخرى. فعداء السعودية والإمارات لقطر، جعلها تلجأ إلى إيران وتركيا وأمريكا.. فأسـست معها شـــــراكات سياسية واقتصادية وعسكرية، حمتها من غضب السعودية والإمارات، اللّتين كانتا تُعِدّان العُدّة للانقلاب فيها. ودعم قطر للحركات الإسـلامية السـنّية العربية، كحركة (الإخوان المسـلمون)، و(حماس)، و(الجهاد)، يُعتبَر عنصـــــراً آخر من عناصـــــر الصـــــراع الخليجي، الذي ينسجم كثيراً مع الإطار العام المرسوم في النظام العالمي الجديد.

وهناك صـــــراع سعودي إماراتي على النفوذ في اليمن، وبالأخصّ في جنوبها، مما أدّى إلى إطالة أمد الحرب مع الحوثيين، وإدامة حالة اللااسـتقرار فيها، واسـتنزاف الكثير من الموارد في البلدان الثلاثة، ناهيك عن العدد الهائل من الضحايا البشـرية.

ولهاتين الدولتين (السعودية والإمارات) اهتمام خاصّ بالكورد، منذ التسعينات من القرن الماضي، وهي اهتمامات مصـالح ضـمن المخطط العام للنظام الجديد، وتقومان - بالتعاون مع أمريكا - بدعم قوات سوريا الديمقراطية الكوردية في الشمال الشـرقي من سوريا، وعلى الرغم من سطحية وسـذاجة وتذبذبِ العلاقات الكوردية الخليجية، إلّا أنها يمكن أن تتطور في المسـتقبل، بحسـب اسـتيعاب قيادات الطرفين لمتطلبات النظام الجديد، وقدرتها على التجاوب مع مستجدّاته.

وتحمل هاتان الدولتان عداءً شديدًا تجاه النظام السياسي التركي بقيادة أردوغان، فحاربتا اقتصـاده، ودعمتا أعداءه، وشـاركتا في محاولة إسـقاطه، لأنهما تشـعران بأن هذا النظام سـيقود العالم الإسـلامي السـنّي، وأنه ملاذ وملجأ لكل مسـلم مضـطهد في العالم، وبالأخصّ حركتي حماس والإخوان المسلمون، العدوين اللدودين لهما.

وتحذر السـعودية، ومعها الإمارات، من النفوذ الإيراني في الشـــــرق الأوسـط، وتعتبرانه خطرًا على أمنيهما القومي، فاندفعتا إلى تأســـيس تحالفات أمنية واقتصـــادية مع أمريكا وإسرائيل، أملاً في الحماية من هذا الخطر الشـــــرقي المحدق بهما. ولكن هذا الأمل كان يَخفَتُ بين حين وآخر، مما جعل باب المفاوضات مع إيران مفتوحاً على الدوام.

ومع بدايات إدارة (بايدن) الأمريكية، هبّ نسيم تخفيف التوترات في الشـــرق الأوسط، فتحســـنت العلاقات التركية - العربية، وتم التوقيع على جملة اتفاقات بين تركيا وكل من الأمارات والسعودية، وتوافق ذلك مع سياسة حكومة رئيســـي، الإيرانية الجديدة، القائمة على الدبلوماسـية الاقتصـادية، فتجلت هذه السـياسـة في صـورة فتح باب المفاوضـات بين إيران والسعودية.

**٧- الصين:**

أمّا الصين، فقد بدأت بالانفتاح على العالم سنة ١٩٧٨، في عهد زعيمها ومهندس انفتاحها الرئيس السـابق (دينغ شـياو بينغ)، وكان هذا الانفتاح اقتصـادياً بالدرجة الأولى، وأدّى بالفعل إلى نهضـة كبيرة، بنت الصـين عليها نقلتها الضـخمة لبسـط نفوذها على العالم.. فحينما تسـلّم الزعيم (شي جين بينغ) الحكم في الصـين عام ٢٠١٣، أطلق مبادرته الفذّة، مبادرة (الحزام والطريق)، ليمدّ النفوذ الصـيني إلى مناطق واسـعة من العالم، وخلاصـتها: أنها مبادرة حجمها ١,٤ تريليون دولار، لتمويل أكثر من ٩٠٠ مشـــروع ضخم في كثير من

سـواحل دول العالم وممراتها البرية، والتي تهدف إلى السـيطرة على الاقتصـاد العالمي وحركاته التجارية، والدخول من خلالها في النظام العالمي الجديد، كقوة جديدة عالمية فاعلة ومؤثّرة.

ظهر الرئيس الصـيني مُطلِقًا مبادرتَه هذه، في نفس الفترة التي ظهر فيها نظيره الروسي (بوتين) كرئيس وطني قومي أرثودوكسـي يسعى لإحياء الإمبراطورية القيصـرية الروسية، ومن نفس المنطلق الوطني القومي العقائدي لإحياء الإمبراطورية الصـينية.. فدخلَ مُعتَرَكَ الصّـراع على النُّفوذِ في كلِّ البُؤَر السَّاخِنةِ في العالَم.

وأهَمُّ بؤرَةِ صِـراعٍ تسعى الصّين إلى أن يكون لها موطأ قدم فيها، هي منطقة الشـرق الأوسط؛ فهي تقترب من إسـرائيل رويداً رويداً، وتبني شـراكات معها، وتستعد لأن تكون الشـريك الإستراتيجي البديل عن أمريكا في العقود القادمة من هذا القرن. واستطاعت أن تسـتغلّ الحصـار الأمريكي على إيران، واختناقاتها المالية، وصـعوباتها في تصـدير نفطها، فوقّعت مع إيران اتفاقية اسـتراتيجية لمدة ٢٥ سـنة، وبحجم ٤٠٠ مليار دولار، في مجالات الطاقة والنقل والموانئ والقواعد العسـكرية. فرَسّـخَتْ بذلك قدمها في الخليج، على الرغم من المعارضـات الشـديدة؛ في داخل إيران وخارجها. وأظهرت الصـين اهتمامها بسـوريا، فعززت تواجدها العسـكري والاقتصـادي والسـياسي فيها، جنباً إلى جنب مع القوى الأخرى المتصـارعة فيها، وإن كان هذا التواجد متأخراً ومحدوداً. ووقّعت الصـين اتفاقات تعاون مشـتركة مع العديد من الدول؛ كالعراق والإمارات العربية والكويت والسعودية ومصـر والسـودان وأثيوبيا والصـومال، وسـتسـتثمر بموجبها في كافة المجالات الحيوية؛ كالطاقة والنقل والموانئ والبنى التحتية.

ينطلق الرئيس (شـين جين بينغ) من نفس منطلق الزعماء المنافسـين؛ كبوتين ونتانياهو وترامب وأردوغان والخامنئي؛ منطلق العرق والمعتقد.. فالرئيس (بينغ) شـيوعي المعتقد والممارسة؛ وينتمي لعرق الـ(هان) الصينية، التي بنت أمجاد الإمبراطورية الصينية.. وهو بالتالي، ومن هذا المنطلق، سيسعى الى بناء المئة سنة القادمة للصين كإمبراطورية منافسة تحتل مكانتها التي تستحقها في النظام العالمي الجديد.

تحتل الصين موقعاً حساساً ومهماً في حلبة الصـراع العالمي، فهي تخوض حرباً هجينة، جنباً إلى جنب مع روسـيا، ضـد أمريكا وحلفائها الغربيين؛ وفي كافة المجالات السـياسـية والاقتصـادية والسـيبرانية والاسـتخباراتية والإعلامية. وقد بدأت بوادر الحرب العسـكرية السـاخنة تظهر في ملامح الحرب الهجينة هذه، وخاصـة بعد الأزمة الأوكرانية. وسـتلعب العملة الصينية (يوان) دورها الفاعل في هذا الصـراع، وستفرض نفسها كعملة احتياط

بديلة للدولار الأمريكي، وكعملة تبادل وتجارة عالمية، وخاصة في عمليات مشتريات النفط، وقد يؤدي ذلك إلى ظهور نظام نقدي جديد.

**٨- الاتحاد الأوروبي:**

يعاني الاتحاد الأوروبي من أزمة صـــــراع داخلي بين القوى اليمينية القومية المتصاعدة، وتيار العولمة اليساري، جنباً إلى جنب مع أزماته الاقتصادية، وتقاطعات مصالح أعضائه. وقد أنبرت فرنســـا لقيادته، وبدعم محدود من ألمانيا، فأدخلت الاتحاد الأوروبي في دوامة الصـــــراع العالمي؛ فقد تصدّت لتركيا في شـــــرق البحر المتوسط، وجدّدت تبنيها للقضية الكوردية، وســـعت بجد لإحياء الاتفاق النووي بين إيران وأمريكا، وأخيراً حرّضـــت - هي وألمانيا - حكومة زيلينسكي في أوكرانيا على المقاومة، وذلك لتحييد الدور الروسي في شـــرق أوروبا، فدخل العالم في دوامة الأزمة الأوكرانية، التي قد تتسبّب في اندلاع الحرب العسكرية الساخنة، ضمن الحرب الهجينة المستعرة في العالم منذ سنوات.

**طبيعة الصـراع، والآثار الناجمة عنه:**

تتمثل طبيعة الصـــــراع بين القوى العالمية الفاعلة، في سعي الأطراف إلى بسط النفوذ الخارجي، بهدف ضمان الأمن والاستقرار الداخلي، وفي تفادي تقاطعات المصالح، من خلال حرب هجينة، يتم فيها استخدام كافة أدوات الحرب؛ الاقتصادية والسياسية والسيبرانية والإعلامية والاســتخباراتية، من دون اللجوء إلى القوة العســكرية. ولكن.. يبدو أن الأزمات الاقتصادية العالمية، وأزمات أنظمة الحكم في العديد من البلدان، والتناقضات العميقة في علاقات ومصالح الدول، وانقسام العالم بوضوح إلى معسكرين: معسكر شرقي ومعسكر غربي.. كل ذلك جعل الحفاظ على توازن الحرب الهجينة، وتحجيمها في إطار وســائلها المعتادة، وعدم تصعيدها وتسخينها بالوسائل العسكرية التقليدية والنووية، أمراً في غاية الصـعوبة، وذلك بسـبب انكماش مجال المناورة حول طاولة التفاهم والمفاوضـات، وهذا ينذر بتعاظم احتمالات نشوب حرب عالمية نووية ثالثة.

**الخاتمة:**

بعد صـــراعاتٍ كانت قد تركّزت على كســـر الإرادات بين القوى الفاعلة المتصارعة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وتنامي المشـــاعر القومية والوطنية ضـــد العولمة والليبرالية الجديدة، دخل العالم في دوامة أزمات: أزمة جوع، وأزمة حرب، وأزمة مرض.. فالتضـــخم، وانكسـار سـلاسـل الإمدادات، والركود الاقتصـادي، والبطالة، وتباطؤ النمو، برزت كعوامل اقتصـادية سـاهمت في تصـعيد وتيرة الجوع والفقر حول العالم.. وأخذت الحرب الهجينة

بإضـافة الوسـائل العسـكرية إلى أدواتها المتعددة الناعمة، بدءاً من غزو روسـيا لأوكرانيا، ومرورًا بسخونة الأجواء في بحر الصين، والشـرق الأوسط، حتى ظهرت تصـريحات لرؤساء دول تُحذّر، بل وتُهدّد باسـتخدام الأسـلحة النووية.. وما جائحة كورونا، ومتحوراتها، التي انتشـــرت على حين غفلة من أهل الأرض، إلا شكل من أشكال تلك الدوامة من الأزمات الطاحنة التي تنخر عظام البشرية وهيكلها العظمي.

ولا يلوح في الأفق أيُّ جهدٍ فعالٍ مبذولٍ من قبل دول العالم، كفيلٍ بمعالجة هذه الأزمات الثلاثة: الجوع، والحرب، والمرض، بل وتظهر بين الحين والآخر أياد خفية تُؤَجِّج شـرارةَ هذه الأزمات، وكأننا أمام مخطط لإحياء وتنفيذ نظرية مالتوس في النمو السـكاني، التي تفترض عدم كفاية الغذاء للبشـرية بسبب نموها المطّرد، لذلك تقترح النظرية اللجوء إلى الوسائل التقليدية لتقليل نسـبة السـكان من خلال الجوع والحرب والمرض، ومن ثمَّ تأسـيس نظام سياسي واقتصادي عالمي جديد.. ويبدو أن الحصار الاقتصادي الغربي على روسيا سيؤدي إلى تأسـيس نظام نقدي عالمي جديد بديل عن الدولار الأمريكي، وإلى نظام سـياسي عالمي من خلال تحالفات وتكتلات جديدة.

تعقيدات المشهد العالمي اليوم على المحكِّ، فإما تفاهمٌ وتقاسمٌ للنفوذ ترضى به الأطراف، وبالتالي، نظام عالمي جديد، وسلام واستقرار ونمو، أو حربٌ عالمية ثالثة، قد تتطور إلى حرب نووية مدمرة، يتشكل على أنقاضها نظام عالمي سياسي واقتصادي واجتماعي جديد.

إن العقد الاجتماعي الذي سيتأسّس على مخلفات هذه الأزمات، سيكون – حتماً – عقداً أكثر إنصـافاً، يأخذُ حقوق الإنسـان بنظر الاعتبار، ويؤسّـسُ نظاماً ليبرالياً اجتماعياً، ميّالاً للإعانة والدعم التنموي، يحقّقُ السـلام والاسـتقرار إلى حدٍّ ما في هذا القرن، وإلا فإن الأزمات سـتسـتمر، وتداعيات الحرب سـتُلقي بظلالها على العالم، وسـتعود الأوضـاع إلى ما كانت عليه قبل الحربين العالميتين السـابقتين، اللتين اندلعتا بسـبب شـعور بعض الدول والشعوب بالظلم والإجحاف❐

**بمناسبة ذكرى تحرير مدينة القدس والمسجد الأقصى بقيادة صلاح الدين الأيوبي في ٢/ أكتوبر/ ١١٨٧ المصادف ليوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ**

# قيادة صلاح الدين الأيوبي النموذجية وضرورة الاستلهام منها لهذا العصر

**د. هادي علي**

✍ قليلون أولئك القادة العظام في التاريخ القديم والحديث، الذين يكونون موضع الإعجاب والاحترام لدى الأصدقاء والأعداء في آن واحد، وعلى مستوى عال جداً، مثل شخصية القائد صلاح الدين الأيوبي، الذي يعترف أعداؤه قبل أنصاره ومحبيه بقيادته النموذجية، ودوره في توجيه مسار الأحداث التي مرت بها الأمّة الإسلامية في مواجهة غزو خارجي استهدف وجودها ومستقبلها..

ومن جانب آخر، فإن شخصية هذا القائد العظيم ليست مجرد حدث وقع في الماضي وانتهى، بل لنا أن نقول بأنه يمثل ظاهرة حية وضرورية لكيفية نهوض الأمّة وبلوغها قمة الانتصار بعد حالة الانحطاط والانكسار التي دامت لعقود من السنين، بحيث جعلتها فريسة سهلة في أيدي أعدائها..

لقد ظهر القائد صلاح الدين الأيوبي في منطقة الشام ومصـــر، التي تمثل قلب منطقة الشـــــرق الأوسـط على مرّ الزمان، في مرحلة تاريخية حسـاسـة ومعقدة، ومشـابهة كثيراً للظروف والأوضاع التي تمرّ بها المنطقة في هذا العصر.

لذلك، فإن محاولة فهم هذه القيادة، وكيفية ظهور هذه الشـخصـية على مســـــرح الأحداث، ضرورية ومفيدة لفهم طبيعة هذا العصـــر، وكيفية مواجهة التحديات والتعامل معها..

إن شـخصـية هذا القائد ما كانت حدثاً منفرداً حدث فجأة واسـتطاع أن يلعب هذا الدور التاريخي المشـــهود له بالعظمة، بكلّ ما في معنى الكلمة من معان وأبعاد، بل كان ظهوراً طبيعياً نابعاً من تسـلسـل الأحداث والتغيرات التي حصـلت خلال الحقبة الزمنية التي تعاقبت على المنطقة نتيجة للهجمات الأوروبية التي باتت معروفة بـــــ(الحروب الصـليبية)، والتي قادتها الكنيسـية الكاثوليكية ضـد العالم الإسـلامي، وتمكنت خلالها من السـيطرة على مناطق شـاسـعة ومهمّة على سـواحل البحر المتوسـط، ومن ضـمنها احتلال مدينة القدس والمسجد الأقصـى المبارك، بعد أن قاموا بارتكاب أبشع جرائم القتل الجماعي داخل المدينة المقدسة.

هذه الأوضاع الشاذة على المنطقة، والجرائم الأليمة بحق سكانها، أحدثت صدمة كبيرة لدى المســلمين في جميع أنحاء العالم الإســلامي في حينها، بحيث أيقظتهم من ســباتهم وغفلتهم. وعلى أثر هذه الأحداث، بدأت محاولات النهوض التي كانت تهدف إلى تقوية روح المقاومة ومواجهة الأعداء المحتلين، والتي تحولت فيما بعد إلى قضية أساسية لعموم المسلمين في ذلك العصر.

**وقد مرت حالة النهوض هذه والوصـول إلى القدرة على مواجهة الأعداء وإنجاز الانتصارات بمراحل ثلاث:**

**المرحلة الأولى:** بدأت بحالة اليقظة، ومن ثمّ ظهور علماء ومربّين كبار؛ من أمثال الأمام أبو حامد الغزالي، والشيخ عبدالقادر الكيلاني، وغيرهم، الذين لعبوا دوراً أساسياً في إصلاح المجتمعات المسلمة، وتربية جيل جديد من المسلمين، وإعداد قادة سياسيين وعسكريين قادرين على إحداث تغييرات جذرية في الواقع السـياسي المتخلف، بهدف توجيه الطاقات والإمكانات لمواجهة الأعداء ومقاومتهم؛ ابتداءً من (عماد الدين الزنكي)، وابنه الملك (نور الدين الزنكي)، الذي مهّد السبيل لبروز القائد صلاح الدين الأيوبي، الذي استطاع بحكمته وحنكته القيادية أن يعمل على إنهاء الدولة الفاطمية، التي كانت تسـيطر على مناطق واسعة في مصـــــر وشمال أفريقيا لأكثر من قرنين من الزمان، ممّا ساعده على استخدام

الطاقات المجمدة والثروات المخزونة لتلك الدولة في خدمة أهالي تلك البلاد، وإنشاء القلاع، والإعداد لمواجهة الصليبيين.

وفي **مرحلة ثانية،** وبعد موت الملك (نور الدين محمود الزنكي)، عمل صلاح الدين على ملء الفراغ القيادي الذي تركه (نورالدين) في بلاد الشام، واستطاع أن يسيطر على الدويلات والإمارات المتناحرة والمتصارعة فيما بينها، والتي كثيراً ما كانت قيادات بعض تلك الإمارات تستنجد بالأعداء من أجل بقائها وبسط نفوذها على حساب المصالح العليا للمسلمين.

وبعد ذلك عمل صلاح الدين على توحيد بلاد الشام ومصـــــر، بالإضافة إلى مناطق الحجاز وكوردســـتان واليمن وغيرها، وتكوين جيش قوي، تمهيداً للمواجهة الكبرى ضـــد الصليبيين.

**والمرحلة الثالثة والأخيرة**، هي مرحلة التحرير، أي تحرير المناطق المحتلة من قبل الصـــليبيين، والتي بدأت بالمعركة الفاصـــلة في جبل (حطين)؛ تلك المعركة المشـــهورة التي انتهت بانتصار حاسم لصالح المسلمين، ودحر القوات المعادية، والتي أصبح الطريق بعدها مفتوحاً لتحرير مناطق واسعة كانت ترزح تحت الاحتلال الصليبي منذ عشـــرات السنين، وصـولاً إلى تحرير مدينة القدس والمسـجد الأقصـــــى المبارك، وذلك في ٢/ أكتوبر/١١٨٧ الميلادية، المصادف لـ ٢٧/ رجب/٥٨٣ هجرية.

و كما أشـــــرنا إليه في البداية، فإن شخصية القائد صلاح الدين الأيوبي ما كانت حدثاً عابراً في الماضي القديم وانتهى، بل هو يمثل ظاهرة حية جديرة بالاقتداء والاســـتلهام ومحاولة تكرارها بصورة أو بأخرى من قبل الشعوب المسلمة، خاصة في هذا العصـــر، وفي منطقة الشـــرق الأوسط بالذات، التي تمر بظروف مشابهة لتلك الظروف التي كانت تعاني منها شـعوب المنطقة في تلك المرحلة التاريخية التي ظهر فيها القائد صـلاح الدين الأيوبي. فوجود دولة الاحتلال الإسرائيلي، ووقوع مدينة القدس والمسجد الأقصـــى مرّة أخرى تحت الاحتلال، وتعرّضـــها للاعتداءات المتكررة من قبل العصـــابات الصـــهيونية بين حين وآخر، والصـــمت المشـــبوه والمقصـــود من قبل ما يســـمى بالمجتمع الدولي وكثير من حكومات المنطقة.

**هذا الواقع المرير يذّكرنا بضـــرورة الاستلهام من التاريخ، ومن العصـــر الذي ظهر فيه صلاح الدين، والاستفادة منه، في ثلاثة أبعاد مختلفة:**

**البعد الأول** هو بعد إســلامي عام، حيث إن الظروف الشــاذة والاســتثنائية التي تمر بها الشعوب الإسلامية في هذه المنطقة، بحاجة ماسة إلى حالة من اليقظة والنهوض التي تمهد لإحداث إصلاحات وتغييرات جذرية، خاصة في الواقع السياسي الســـيء والمتخلف، بهدف

تهيئة الظروف والأسباب الضـــــرورية للتقدم وتحقيق العدالة الاجتماعية، بالإضافة إلى الإعداد لمواجهة المخططات المعادية التي تستهدف إبقاء حالة التخلف والفوضى والتبعية السياسية والاقتصادية التي تعاني منها شعوب المنطقة.

**البعد الثاني** يتعلق بالشـــعب الكوردي، الذي ينتمي إليه القائد صـــلاح الدين والأسرة الأيوبية، وقيادته لشعوب المنطقة في تلك المرحلة التاريخية الحساسة التي مرّ بها العالم الإسلامي. وهذا الأمر بحد ذاته مفخرة وموضع اعتزاز لهذا الشعب، حيث إن قسماً من أبنائه تمكنوا من بناء دولة مترامية الأطراف، وقادوا شـــعوب المنطقة، لتحقيق إنجازات سياسية وانتصارات عسكرية مهمّة ضد الاحتلال الصليبي. ومعلوم أن الكورد شاركوا بشكل فعّال مع صـلاح الدين في المجالات العسـكرية والإدارية؛ من أربيل جنوباً، وحتى الهكاري شـــمالاً.. ممّا يدلّ على أن هذا الشـــعب بإمكانه أن يلعب أدواراً مهمة في مراحل تاريخية أخرى، وأن يكون جزءاً فعالاً ومؤثراً، كغيره من الشعوب الإسلامية في المنطقة.

**والبعد الثالث** والأخير يتعلق بقضية فلسطين، خاصة مدينة القدس والمسجد الأقصـــى، والتي - كما هي عليه الحال - تعاني من الاحتلال، وذلك بمســـاندة القوى الغربية؛ وريثة القوى الصـليبية التاريخية، مسـتغلين ضـعف وصـمت بعض الأنظمة العربية والإسـلامية. وهي حالة مشـابهة تماماً لما كانت عليه هذه المنطقة في زمن صـلاح الدين الأيوبي، غير أن هذه الأوضاع السيئة هي بلا شك أوضاع غير طبيعية، فرضت على المنطقة بشكل أو بآخر، ولا بد أن تشـهد تغيرات ضرورية وجذرية بالاتجاه الصـحيح لصـالح الشـعوب وقضـاياها، وعلى رأسها قضية مدينة القدس والمسجد الأقصى المبارك، وتحريرها من الاحتلال الإسرائيلي الصهيوني.

لهذه الأسباب نرى أنه من الضـــــروري أن تعمل الشعوب المسلمة، ونخبتها المثقفة والمخلصة، على الاستفادة من نموذج قيادة صلاح الدين الأيوبي، وكيفية مواجهة الأحداث في عصـــره، بهدف استلهام الدروس في كيفية النهوض ومواجهة التحديات، والخروج من هذه الأوضاع المقيتة التي تعاني منها هذه الشعوب❐

# الهاجرة .. الوجه القبيح للاستشراق

**د. سعد سعيد الديوه جي**

✍ الهاجرية (Hagarism) مصطلح استشـــراقي ظهر في السبعينات من القرن الماضي على يد المستشـــــرقة (باتريشـا كرون)، و(مايكل كوك)، في كتاب يحمل هذا المصـطلح (Hagarism: The Making of the Islamic world). وهذا المصطلح مستنبط من كلمة (هاجر)، وهي الأَمة (عَبدة) التي أهداها فرعون مصـــــــر لإبراهيم (ع)، في واحدة من الأساطير المخلة بسير الأنبياء، والمملوءة بها أسفار التوراة، حيث تدعي التوراة بأن إبراهيم (ع) عندما هاجر نحو مصـــر بسبب الجوع، قال لزوجته سارة - وكانت جميلة جداً - بأن تدعي أنها أخته، حتى لا يأخذها المصـــريون الى فرعون مصـــر، حيث قال لها: "قولي إنك أختي، فيحسنوا معاملتي، ويبقوا على حياتي"(١٢، ١٢، التكوين)!

وهو ادعاء ينتقص من إبراهيم (ع)، لأنه في مكان آخر، وفي ســيناريو مشــابه، يقول لأبي مالك - أحد ملوك الفلسطينيين -: "بالحقيقة هي أختي؛ ابنة أبي، لا ابنة أمي، فصارت امرأة لي"، (١٢، ٢٠، التكوين).

وعندما يمد فرعون مصــر يده نحوها، يقوم الرب بضــرب فرعون ضــربات كبيرة، فيوقن بخطئه، ويســمح لإبراهيم (ع) بالمغادرة، بعد أن أنعم عليه بالهدايا، "فصــار له غنم وبقر وحمير وأُتن وجِمال"(١٦، ١٢، التكوين)، وكانت ضــمن الهدايا: الأَمة (هاجر)، التي طردتها

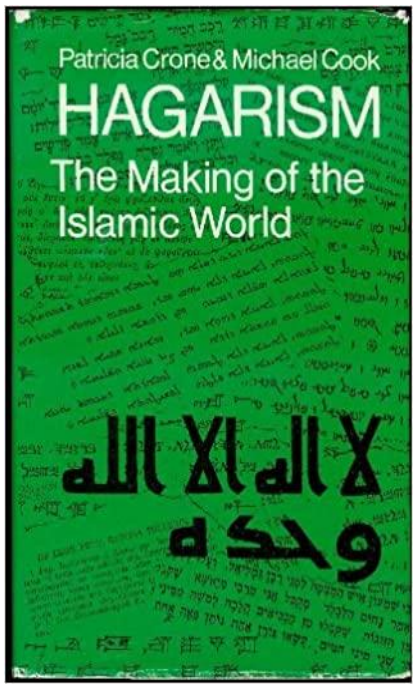


سارة بسبب الغيرة، بعد أن تزوجها إبراهيم، ثم ولد له منها إسماعيل (ع)، بينما خلّفت له سارة إسحق (ع)؛ والد يعقوب – إسرائيل – (ع).

ولا تذكر التوراة مطلقاً رحلة إبراهيم (ع) إلى منطقة الحجاز (مكة)، وبناءه للكعبة مع ولده إسماعيل (ع)، وهو ما يقوله القرآن، في قوله تعالى على لسان إبراهيم (ع): {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}(إبراهيم/٣٧).

والاسم (هاجر)، اسم عربي خالص، ولكن مما يؤسف له أن هذه الرواية الإسرائيلية بكون (هاجر) أَمة مصرية، قد دخلت في الفكر الإسلامي، وصار يُستشهد بها في معظم التفاسير.

وكان الدافع التوراتي لجعل هاجر أَمَةً، أن أبناء الأَمَة لا يرثون البركة والنبوة من آبائهم، ولهذا تمّ تأطير هذه الرواية التوراتية بهذا الشكل، ليتم استبعاد إسماعيل (ع)، وذريته، من النبوة، ومن بركة إبراهيم (ع).

ويتزوج إبراهيم امرأة أخرى اسمها (قطورة)، وتلد له ستة أولاد، حيث ينطمس ذكرهم إلى الأبد، لأن إبراهيم (ع) وهب إسحاق البركة والنبوة، "وأما بنو سراريه، فأعطاهم عطايا، وصرفهم"، (٦، ٢٥، التكوين).

هذه الإسرائيليات اعتبرها بعض المستشرقين حقائق لا تقبل النقاش، لكي ينسجوا قصصاً حول نسب العرب المستعربة إلى هاجر، وأهملوا النسب لإبراهيم (ع)، علماً أن النسب في الموروث الإسلامي لا يقدم شيئاً ولا يؤخر، والأصل هو في العقيدة الصالحة. ثم ينسجون روايات وقصص حول العرب بعد الإسلام، استناداً إلى أساطير التوراة، وهم يدعون الموضوعية والعلمية في كتاباتهم.

ومن هؤلاء - كما ذكرنا – المستشرقة الدانماركية الأصل، الأمريكية الجنسية: (باتريشا كرون)، والتي صدر لها - كما ذكرنا آنفاً – كتاب بعنوان (الهاجرة) عام (١٩٧٧م)، بالاشتراك

مع مستشـــــرق آخر اسـمه (مايكل كوك)، عن التاريخ المبكر للإسـلام، يدعيان فيه أنه وبالاعتماد على اللغات الشـــــرقية وغيرها؛ كالعبرية والآرامية واللاتينية والســـــريانية والقبطية... إلخ، ينسفان به تاريخ الإسلام المعروف.

و(باتريشـا كرون) تحمل دكتوراه في الفلسـفة، وهي مؤرخة عملت في الكلية اليسـوعية، وأعطت محاضـرات في جامعات شهيرة؛ مثل كمبريدج وأوكسفورد. وأما (مايكل كرون)، فلا يقل شـــهرة عن زميلته، ونال عدداً من الجوائز؛ بعضـــها من دول إســـلامية، وكان تلميذاً لـ(برنارد لويس).

في هذا الكتاب أعطى المؤلفان تصوراً مختلفاً عن الإسلام، ويعودون به الى أُسس (يهودية – مسـيحية)، وذلك على عكس ما كتبه المؤرخون المسـلمون. وهي نظرية لا تقوم إلا على زرع الشـــك بالموروث التاريخي الإســـلامي، وإعطاء المصـــداقية لكل ما كُتب من قِبل غير العرب والمسلمين، على أساس من الأحقاد والبغضاء.

وقد يعتقد القارئ أن السـبب في ذلك هو الجهل بالتاريخ العربي – الإســـلامي، ولكن المسألة غير ذلك تماماً، أي أنها مسألة مقصودة بالتمام والكمال.

ففي كتاب (باتريشـا كرون) مع (مارتن هيندز)، المسـمى (خليفة الله – السـلطة الدينية في العصـور الإسـلامية الأولى)، نلاحظ معرفةً واطلاعاً عميقين في المصـادر الإسـلامية حول الموضـــوع، التي تُعد بالمئات، حيث بلغ عدد المراجع العربية (١٤٣) مرجعاً، والأجنبية (١٣٠)، وقائمة بالمطبوعات التي نشـــرتها كلية الدراسات الشـــرقية في (جامعة كمبريدج) (٣٦) مرجعاً!، وفيه تفاصيل حول موضوع الخلافة؛ بدءاً من وفاة الرسول – صلى الله عليه وسـلم –، والى منتصـف القرن الثالث الهجري، بشيء من الدقة نادراً ما احتواه كتاب آخر حول الموضـوع، وبمعرفة عميقة بالمصـادر الإسـلامية، مما يُعد تناقضـاً صـارخاً مع ما طرحته في كتاب (الهاجرة)، وهي مسألة محيرة الى أقصـــى الحدود أن يكتب مؤرخ كتابين يناقض أحدهما الآخر تماماً.

وعليه، فإن كتاب (الهاجرة) قد وضـع عن قصـد، لتضـليل القارئ الغربي، وإبعاده عن الإسلام الصحيح. فالعرب – المستعربة – في هذا الكتاب هم أبناء وأحفاد هاجر، كما ذكرنا، وهي مسألة تافهة، لأن النسب يعود للأب وليس للأم.

ومسألة حصـــر نسب العرب – المستعربة – بإسماعيل (ع)، ابن هاجر، مسألة خيالية، لأن من غير المعقول أن تكون منطقة الحجاز آنذاك - أي حوالي ٢٠٠٠ ســـنة قبل الميلاد -، خالية من السكان العرب، وأن كل من جاء بعد ذلك كان من سلالة إسماعيل (ع).!

فإبراهيم (ع) كان من القبائل الأمورية، وهي من القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى العراق، وتشترك بالنسب الجزري العربي مع باقي القبائل، فصِلتُه عربية خالصة.

ووفقاً لهذا الكتاب، فإن الفتوحات العربية كانت حركة يهودية – مسيحانية، شكلت فيما بعد ما عرف بإسلام الخلافة.! ويقول أيضاً بأن القبائل العربية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية قد احتلت مركز الصدارة في هذه الفتوحات، في محاولة لاستعادة الأرض الموعودة من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية.

وعليه، فالقرآن - وفق هذا التصور - هو كتاب تم تأليفه بالكامل في القرن الثامن الميلادي، أي بين القرن الثاني والثالث للهجرة، وهذا ربط خاص بفكرة استعادة أورشليم – القدس – على يد المسيح المنتظر، التي تسيطر على فكرة الخلاص في المعتقدين اليهودي والمسيحي، وكُلاً له مسيحه الخاص، فكان الاستنتاج المتهافت بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم –لم يكن إلا مبشراً بمسيح خاص هو عمر بن الخطاب (رض)، الذي فتح بيت المقدس.

وهذا تصور ساذج ومهلهل الى أقصى الحدود، وكأنما هنالك اتفاق بين اليهود والمسلمين لانتزاع بيت المقدس من المسيحيين، علماً أن كل المصادر تشير إلى استلام المدينة من قبل عمر (رض) بدون حرب، وأن الروم خرجوا منها صاغرين، وأن بطريك المسيحية (صفرونيوس) قد سلم مفاتيح المدينة بيديه إلى عمر (رض)، وأن سكان أورشليم – القدس – قد استقبلوا الفاتحين الجدد الذين خلصوهم من ظلم الرومان بالترحاب، كما يقول (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام).

وضمن هذا الهراء، تدعي (باتريشا كرون)، وزميلها، أن أحداث حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – لم تكن في (مكة) كما يُعتقد، بل على بعد أميال شمالاً!. وأن القبائل العربية التي غزت مساحات كبيرة من الأرض في القرن السابع الميلادي، لم يكونوا مسلمين بل وثنيين، ثم تم جمع القرآن من الكتابات الطقسية المسيحية واليهودية المبكرة لاحقاً، وأن الإسلام الحالي لم يكن موجوداً إلا بعد قرنين أو ثلاثة من التاريخ الإسلامي المتعارف عليه، أي حوالي (٨٥٠ ب.م).

إن كتاب (الهاجرة) يعرض ويؤكد، بصورة غير مباشرة، بأن التاريخ الإسلامي، وأصول القرآن، ما هي إلا من وحي الخيال، وأنه تم تأليفها وجمعها كتعديلات في صناعة هوية عربية إسلامية دينية لا أساس لها.

إن هذه الطروحات عندما تصـــدر من مراكز دراســـات مشـــهورة، وجامعات لها وزنها الثقيل، لا تعتبر أخطاءاً عابرة، وإنما أعمالاً مقصودة، تأخذ مكانها حسبما يخطط لها بعض الذين يوجهون هذه الدراسات.

إن العلمية والموضـوعية عند هؤلاء تنكر وجود مسـقط رأس الرسـول – صـلى الله عليه وسـلم – في مكة المكرمة، وأنه عاش بعد الهجرة في المدينة المنورة. وتدعي أن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وحتى الحجاز، هي مناطق خارج حدود شبه الجزيرة العربية.!

وهذه الفرضـيات سـيتبعها إنكار وجود قبيلة (قريش) نفسـها، وإنكار للفتوحات التي قادها خلفاء الرسـول خارج الجزيرة العربية، وأن قسـماً من القرآن هو من تأليف محمد – صلى الله عليه وسلم –، أو خلفائه، وبالتالي إنكار الرسالة الإلهية للإسلام.

إن هذه الأسـاليب التي تحاول أن حط من قيمة المسـلمين والعرب، على أسـاس أنهم لا يسـتحقون بركة إبراهيم (ع)، سـتقود بالتالي الى إنكار الرسـول – صـلى الله عليه وسـلم – كنموذج أخلاقي، وأن مصادر الشـــريعة الإسلامية هي نسخ مشوهة مأخوذة من كتبهم المقدسة.

والحقيقة أن هذا المنهج الأعوج القصد منه إبعاد غير المسـلمين عن رسـالة الإسـلام؛ كونه ديناً مصطنعاً، ويعمل على تشكيك بعض ناقصـــي الثقافة من المسـلمين في أصول دينهم، كون من يكتب هذه الأشـــياء يحملون ألقاباً علمية طنانة، ويحتلون مراكز عالمية في مراكز للبحوث والاستشراق، في جامعات لها سمعتها التي لا تضاهى في أوروبا وأمريكا.

إن هذه الطروحات هي التي تجعل من بعض الذين يعتقدون أنهم دعاة أشـــخاصـــاً يعملون للإساءة إلى الدين الحقيقي، يعد أن يحصلوا على تغطية إعلامية مفتعلة، والله من وراء القصد❐

# سلطة الانعتاق وآفاق التجاوز

## واقعنا المحجوب بتقنية الوعي المحدب

**الدكتور سامي محمود إبراهيم**
**رئيس قسم الفلسفة - كلية الآداب/ جامعة الموصل**

✍ مرايا الواقع السياسي وعينا مزيف ومحرف، يبحر في الإشاعة، ويتيه في لجة بحر الأنا الغارق في هموم الدنيا.

لهذا، علينا أن نزيح من ذهنيتنا الاحتجاج بما يفعله السلاطين والآخرون. علينا أن نقرأ التاريخ قراءة واعية، وأن نتهم أنفسنا ونفهمها، وإذا اتهمنا أنفسنا وقفنا على أحوالنا، فإن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وذلك هو الوعي بالواقع والحال والوجود..

هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أن الوعي الحقيقي يتطلب التوازن بين الفرد وذاته، فمعظم الانتكاسات تأتي من عدم التصالح مع الذات، فينشأ الصراع.. وللأسف الغالبية يركزون على ما لا يريدون، فتكبر الفجوة الداخلية التي تجعل المرء محدود الرؤية والتفاؤل والانسجام مع ذاته، وهذا يعني عدم التناغم مع عالمه الخارجي. وهنا يضع الفرد العتب على الظروف، مع أن الخلل ليس فيها، وإنما في داخله. لذا، من الضروري التصالح مع اعتقاداتنا وأفكارنا وطروحاتنا ورؤانا.. عندها سنكون، وهكذا لن تبقى مشكلة.

وفي هذا الصدد: يروى أن صياداً عاد من رحلة صيد وفيرة، وفجأة رأى قارباً يتجه نحوه.. انزعج الصياد، وصار يصرخ على صاحب المركب أن توقف.. لكن المحظور وقع.. فقد ارتطم القارب بالقارب.. ثم تبين أن لا أحد كان يقود القارب الآخر، فقد كان فارغاً. لذا شعر بمزيد من الأسى والحزن، فلا يمكنه أن يحمل المسؤولية أحداً.

حياتنا مليئة بالمراكب السابحة على غير هدى، ومعظمها فارغة.

من السهل التفكير في أن الآخر خاطئ، أو سيء، بدلاً من تقاسم المسؤولية.. يمكن أن تشعر بالإحباط عدة مرات، لكنك لست فاشلاً حتى تبدأ في إلقاء اللوم على شخص آخر والتوقف عن المحاولة.

كما أن لعبة اللوم تقتضي أيضاً البحث عن كبش فداء لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وهكذا من السهل إلقاء اللوم على الأشخاص، أو الجماعات، الذين لا حول لهم ولا قوة. مجموعة مهمشة، تعد هدفاً سهلاً، عندما لا نستطيع التعامل مع شعور بالذنب، نرغب في أن نرمي به إلى الآخرين، من خلال إبراز المشاعر السيئة فيهم، والتي قمنا بإلحاقها بهم قصداً، حتى نتمكن من الظهور بشكل جيد.

نحن نعيش ثقافة اللوم والشكوى، لأن الجميع يبحثون دائماً عن أشياء يشتكون منها، فنحن باستمرار نريد أن نكون خيرين.

إذاً، نحن بحاجة إلى الوعي روحياً ومادياً لنتمكن من آليات النهوض.. نستثمر الذات الإنسانية في الوجود، فنتوسع داخل فلك الحضارة. وبذلك نتخلص من حتمية السقوط والانحدار، إلى حتمية النهوض في مسار الحياة العالمية.

هذا التحول يتزامن مع رؤية عقلية عالمية، تمتلك بصراً حاداً يغوص في الأعماق لينتشل سر كينونتنا الغامض، خاصة أن الوعي حالة من الاستنفار العقلي والذهنية الثائرة التي تتجاوز الاعتبارات الظرفية إلى رحاب المسائل الكلية..

إن الوعي الحقيقي هو ذلك المرتكز على الشمولية والعمق التفسيري، إنه ذلك الذي يبحث عن النواميس والسنن الناظمة لهذا الكون، ويربط بين العلل ومعلولاتها.

نعم، العقل الواعي القادح لزناد فكره، لا يملك تجاهل دهشته، ومناهضة حب الفضول المغري باقتحام المجاهيل، ومقاومة التوق الجبلي نحو سبر أغوار الأشياء، لكن إن لم يضبط ويقنن، فمصيره إلى التيه والتخبط.

إنها دعوة للخروج بالعقل من أزمة اللاوعي، حين يكون العقل انتقائياً، حين يكون عقلاً للاحتلال، والبحث الدؤوب عن عقلنة التوسع من أجل السيطرة والأسواق، بل حين يتحور العقل إلى ملكة وأداة باعثة على التدمير والتخريب.

ولهذا، فإن علينا أن نسعى دائماً إلى تفحص برامجنا، وقراءة أحوالنا، وإقامة علاقات نقدية مع ذواتنا، ومع العالم. فطعم الحقيقة المطلقة أسعد وألذ من طعم الحيرة المعذبة، مهما طرأ على الحيرة من التمجيد.

لنقلب صفحات العالم، ونقرأها من جديد، علّنا ننتج في قاموس الحضارة انبعاثاً ونهضة تحتضن الحياة، وتجعل من الإنسان وعياً جديداً يحتمل سعة العالم اللاواعي اللامنتمي وثقله المطرد. لا بد من تحديد بعدنا الذاتي في أرض الواقع، وننسى أثرنا المعكوس تحت الوصاية سنين طويلة.

لنتذكر أن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية. فنشهد عندئذٍ وعياً وانسجاماً تاماً مع سائر مفردات الحياة..

لنتذكر أخيراً أننا أمة واعية قادرة على النهوض رغماً عن جميع ما يعتريها من عارض المحنة الحاضرة.. فلنتفكر بمداد العقل والإيمان، بجدلية الوعي والإنسان، عندها سنتجاوز لجة البحر المظلم، لنصل إلى بر الأمان.

وعبر ثنايا الزمن تتشكل ملامحنا بانتظام جميل، يبقينا أحسن مما كنا بانتظام متلاحق. وأن أية حياة - مهما كانت بسيطة - ستكون جميلة وممتعة إن رويت بصدق.

فحين نرى الجمال نود أن نكون أمماً وجماعات وشعوباً وحضارات وأنساباً وقبائل. فبعض المشاهد والانفعالات والأحاسيس تجعلنا نضيق بكوننا واحداً، إذ لا بد من وجود آخر يقاسمنا مشهد الحياة، يحمل عنا شيئاً من فرح وسرور مباغت، خاصة أن حياتنا مليئة بالمفاجآت.. هي تجربة مفعمة بالمعاناة في مسيرة عبورنا نهر الزمان، الذي نقطعه ونحن نحمل أثقال وجودنا على أكتافنا، إلى أن نصل جزيرة الأمل المفقودة في أبدية جميلة متصلة بكل معاني الوجود. وكأن روح الحياة وجمالها قد اختزلت في حكمة تعطي الزهد أقصى معانيه. معانٍ تفجر لدينا الإحساس بالتفاؤل برغم التشرب البطيء للمأساة التي نعانيها. وفي رحلة البحث عن الذات نقطع المسافات، فبيننا وبين السعادة صحارى مجهولة، وهواجس لا تنتهي. خاصة أن الوجود المشروط غياب، ومساحة الصبر قليلة، تنتهي بحرف، وعلى حافة جرف، بعدها يعلن الوداع إلى غياب بنكهة الحضور.

وما زلنا تلامذة في مدرسة الدنيا، نتعلم أبجديات الحياة، وأسماء الواقع، وجدول الضمير، وكيمياء السعادة، وفيزياء الوجود، وفن الواقع، وجمال الحقيقة.

إن إنساننا بحاجة اليوم، أمس الحاجة، إلى خطاب روحي يوقظ فيه سبات الضمير، ويضخ النور في الإرادات الإيجابية البناءة.. نرغب دائماً ببرمجة مسيرة المستقبل إلى إشغال مكان بين نجوم السماء، قريباً من موقع الثريا ومشهد سحر الوجود الخلاق.

فلنتفكر بمداد العقل والإيمان، بجدلية الوعي والإنسان❐

# عاشوراء

## رمز الاحتفال باندحار الكفر والظلم

**عابدين رشيد**

✍ أجل يا أخوة الحب والإيمان والجهاد، إنَّ لله - عزَّ وجلَّ - لأياماً ذات حِكم وأسرار وذكريات وبركات، يغفل عنها الناس غالباً، بل وقل دائماً ولا تبالِ، وبصورة أخص المسلمون اليوم، وكأنَّها لا تعنيهم ولا تهمهم لا من قريب ولا من بعيد – يا للغفلة العجيبة! – فتمرُّ بهم أو يمرّون بها مرَّ الكرام، بينما المفروض والحق والأصل أن يغتنموها ويستخرجوا منها لآلىء العِبر، ودرر الدروس، فيتخذونها خرائط هادية؛ كالنجوم في ظلمات ليالي حياتهم، وفيافي دنياهم، ليجتازوها بسلام وأمان ورجاء ورضوان.

فالحياة كالمحيطات الواسعة المخيفة الهادرة العاصفة، تموج أمواجها بالمخاطر والمهلكات كالجبال الشامخات، تضمُّ في طيّاتها وأعماقها ألف نوع ونوع من الموت والحتف والفناء، والناس في فلكها تضربهم بأمواجها الثائرة الفائرة، وتقذفهم يمنةً ويسرةً، توشك أن تغرقهم وتبتلعهم كالحيتان الزرقاء العملاقة! لولا لُطف الله ورحمته – غالباً – عزَّ وجلَّ .

ومن هذه الأيام - الأيام الإلهية العظيمة، وهي ما أكثرها وما أروعها ! .. يوم (عاشوراء)!!

فإذا تأملنا مليّاً بتدّبر وتفكّر في بعض ما في هذا اليوم من حقائق وبصائر، بعيداً عن الغفلة والنسيان والأُلفة والروتين، نرى أن لهذه القصة التاريخية الخالدة عبراً ودروساً وآياتٍ للناس عامة، وللمسلمين خاصة؛ وأمة محمد – صلى الله عليه وسلم - خاصة.

والآن، حان لنا أن نذهب ونتشـــرّف إلى حضـــرة (الحديث النبوي الكريم)، ونجلس بين يديه بكل أدب وشوق ووقار، لنســـــمع ماذا يقول قبل ما يقارب خمسة عشـــر قرناً -يا للتاريخ الصدوق المجيد!- منذ فجر عصـر النبوة المحمدية الـسعيدة المباركة الخاتمة (على صاحبها صلوات الله وسلامه):

(عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن رســـول الله ﷺ ، قدم (المدينة)، فوجد اليهود صُيّاماً، يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصـومه. فقال رسـول الله ﷺ: فنحن أحق وأَولى بموسى منكم. فصـامه رسـول الله ﷺ، وأمر بصيامه) **صحيح مسلم (٢٥٧٧).**

وفي رواية أخرى: عن أبي غطفان بن طريف المريّ، قال: سـمعت عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: حين صـام رسـول الله ﷺ يوم عاشـوراء، وأمر بصـيامه، قالوا: يَا رَسُـولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. فقال رسول الله ﷺ: (فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ صُمْنَا يَوْمَ التَّاسِعَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ). قال: (فلم يأتِ العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ) **صحيح مسلم (٢٧٢٢).**

وفي الحديث الثالث، كما رواه الإمام الترمذي: عن أبي قتادة : أن النبي ﷺ قال: (صـــيام يوم عاشوراء، إني أحتسب على الله أن يكفّر السَّنة التي قبله) **الترمذي (٧٤٩).**

هذا، وأرى هنا - قبل أن أخوض في استنباط بعض ما في تلك الأحاديث الصحيحة المطهرة التي تتعلق مباشـرة بـ (يوم عاشوراء) العظيم - أن أنقل شـرحاً واضحاً عن (يوم عاشوراء):

(يَروي عبْدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ -رَضيَ اللهُ عنهما- أنَّ النَّبيَّ ﷺ هاجَرَ إلى (المَدِينةِ) مِن (مكَّةَ)، ووَجَدَ يَهُودَ المدينةِ يَصُومُون يَومَ عاشُورَاءَ، وهو يومُ العاشرِ مِن شَهرِ اللهِ المحرَّمِ، فسَألَهم عن سَببِ ذلك، فذَكَروا أنَّ هذا يَومٌ صالِحٌ وَقَعَ فيه خَيرٌ وصَلاحٌ، حيثُ نَجَّى اللهُ فيه بَنِي إسرائِيلَ مِن عَدُوِّهِم فِرعونَ بإغراقِه وجُنودِه في البحرِ، فَصـــامَه نَبيُّ اللهِ مُوسَى – عليه الســـلام-، فلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك، أخبَرَ أنَّه أحَقُّ بمُوسَى مِنهم، حيثُ إنَّهما أخَوانِ في النُّبوَّةِ، ولأنَّه (عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ) أطوَعُ وأتبَعُ للحقِّ منهم، فهو أحَقُّ أن يَشكُرَ اللهَ تعالَى على نَجاةِ أخيهِ مُوسى، ولذلك صـامَهُ ﷺ، وأَمَرَ المسـلِمينَ بصِـيَامِه؛ لأنَّنا -نَحنُ المسـلِمينَ- أوْلَى بِحبِّ مُوسى – عليه السـلام -، ومُوافقَتِه، مِنَ اليهودِ، حيثُ إنَّهم بَدَّلوا شـــــريعتَه وحَرَّفوها، ونحنُ أتباعُ الإسـلامِ الَّذي هو دِينُ كلِّ الأنبياءِ (عليهم السـلام)، لما جاءت بيانات بيّنات في كتاب الله القرآن الخاتم الأقدس في قصص الأنبياء فيه.

وقد روَى ابنُ عبَّاسٍ أيضـاً أنَّ من السُّـنَّة أنْ يَصـومَ المسـلِمُ اليومَ التَّاسـعَ معه؛ مُخالفةً لليهودِ.

وفي الحديثِ: مَشـــروعيَّةُ شُكرِ اللهِ تعالَى بالصَّومِ لِمَن حَصَلَ له خَيرٌ مِن تَفريجِ كُرَبٍ، أو تَيسيرِ أمرٍ).

وبعد، فيا أخي القارئ الكريم!

لقد فتح الله لي بفضـله ولطفه، بعد ما أخذت أتأمل بتدّبر وتعمّق في الأحاديث النبوية الواردة في حق (يوم عاشـوراء)، أن أجد فيها جملةً من الحِكم والعِبر والفَوائد الجديرة بالعلم والتسجيل والنـشر، عسى الله أن تنفع المؤمنين المهتمّين الجادين المجاهدين، تذكرةً وتبصـرةً إن شاء الله:

**فمن تلك الحكم والفوائد**؛ مثلاً:

**(أولاً):** أن المسلم بفطرته الإيمانية الحيّة الشَّهمة يفرح ويبتهج باندحار الظلم وزواله، بل ويحتفل بالنصـــــر الإلهي العزيز أيّما احتفال قلباً ولسـاناً وعملاً، ولكنه لا يحتفل كأهل الغفلة والمنكر بإعلان المجون والمعاصي والمحرمات والخروج بلا حياء عن الآداب والأعراف الطيّبة الراقية، بل يحتفل بما يليق بشخصيته ومستواه من الخلق الرفيع والنـسب العريق، وذلك بإعلان الشـكر لله ربه ومنقذه والمنعم عليه. والطاعة الحسـنة؛ بعبادة الصـوم أو غيره، كثير، وهو كل ما يحبّه الله ويرضـاه من عباده الذين أنعم عليهم بنعمة الحرية والعزّة والكرامة، سواء لهم أو لآبائهم وأجدادهم، كذكرى من ذكريات أيام الله!

**(ثانياً):** أن المسلم لا ينبغي أن يقبل الظلم بأي شكل من الأشكال، ولا يخضع ولا يرضى به مطلقاً، بل يجب أن يرفضـه رفضـاً، وأن يحاربه حرباً؛ بيده إن اسـتطاع، أو بلسـانه، أو بقلبه، وهو أضـعف الإيمان والرجولة.. بل وبكل وسـيلة مشـــــروعة متاحة، بلا جمود ولا خمود ولا جبن ولا بخل، أينما كان، وحيثما كان، وممن كان، كائناً من كان، ذلك لأن الظلم كفر، كما أن الكفر ظلم، وإذا دام الظلم دمرَّ، كما نرى اليوم في كل مكان.

ويقول الربُّ تبارك، في الحديث القدسي: (يا عبادي، إني حَرمتُ الظلم على نفســـــــي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا) **صحيح مسلم (٢٥٧٧).**

ثم إن المســلم رجلُ (لا إله إلا الله)، فكيف يجوز أن يســكت عن الظلم، أي نوع كان - حتى ولو كان كلمة معتادة، فيها إســاءة ظاهرة ولو بأخف وأدنى درجة - إلا إذا قَبِل أو رضي أن يكون شيطاناً أخرس!

فلقد علّمتنا السيرة النبوية الشـــريفة الحكيمة المباركة، درساً لن ننساه إلى يوم القيامة، وهو أن لا يقبل المســلم أدنى درجات الظلم والاعتداء، حتى ولو كان صـــادراً من أخيه

المسلم، الجارح لمشاعره ومظاهره، وذلك في قصة تاريخية مشهورة مؤسفة مشينة، وقعت بين صحابيين جليلين: بلال الحبشـــي، وأبي ذر الغفاري - رضي الله عنهما -، إذ عيّر أبو ذر أخاه بلالاً وشتمه بقوله له: يا ابن السوداء!

فما كان من بلال إلا أن يســرع إلى الرسول الأكرم – صلى الله عليه وسلم- يشتكي إليه ما بدر من أبي ذر من قول سيّءٍ له، فدعاه رسـول الله بين يديه. ولما تحقق له صِـدق ما قاله لبلال، قال له – عليه الصـلاة والسـلام - وهو مسـتاء وغضـبان: «يا أبا ذر، أعيّرته بأمّه، إنك أمرؤ فيك جاهلية»! **البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)، وأحمد (٢١٤٦٩).**

ولعل بقية القصة معروفة للجميع. وهكذا يحتفظ المسلم بعزّته وكرامته الغاليتين.

**(ثالثاً):** وهذه لفتة بارعة ومهمّة، وهي أن لا يكون احتفالهم الســعيد الكريم تقليداً لطريقة احتفالات اليهود والنصــارى، بل ينبغي أن يتميّزوا عنهم، وأن يخالفوهم، حتى لو كانت الاحتفالات دينية أو عبادية، فاليهود كانوا يصومون يوماً واحداً وهو (يوم عاشوراء)، ونحن نصومه ونصوم اليوم التاسع معه كذلك، إشارة صــريحة واضحة من نبيّنا الحبيب القدوة الحسـنة الخالدة لنا في كل سُـننه وخطواته، الذي قال وأكّد: (فإذا كان العام المقبل، إن شاء الله، صمنا اليوم التاسع).

وهذه تذكرة جديرة جداً بالتدبر والتأمل، لئلا تكون أمته أمة مقلدة للآخرين الأغيار من الأُمم حتى في الأفراح! فالتقليد للأجانب المغضــوب عليهم والضــالين، بغيض بغيض في الإسلام؛ ذلك الدين الكامل الخاتم الحق، لا كما هو حال الـمسلمين اليوم.. يا للأسى والخزي والانحطاط!

هذا، وما أعظم ما يرمز إليه الحديث النبوي الكريم: (صـيام يوم عاشـوراء، إني أحتسـب على الله أن يكفّر السـنـــة التي قبله)، من مكافأة المسـلم من عند الله لاحتفاله بانتصار الحق على الباطل، والتوحيد على الآلهات المزيفة المزورة المدعاة، بالصــيام يوماً واحداً، بإزالة ذنوب سنة ماضية كاملة، يا لرحمة الله!

فأين نحن من هـذه الدروس والفوائد؟ وأين نحن من حقائق هـذه الحادثة العظيمة الفريدة في تاريخ البشرية، وفي تاريخ الدين الحق، دين الإســلام ، منذ سيدنا آدم – عليه السلام- إلى سيدنا الخاتم محمد – صلى الله عليه وسلم-؟!

هذا، وما أشـد عجبي واسـتغرابي للبشـــرية المؤمنة المهتدية، وفي مقدمتها أمة العلم والإيمان والبطولة والجهاد: أمة الإسـلام، لماذا وكيف لا تحتفل - على مدى الدهور- قياسـاً واقتفاءً على (يوم عاشــوراء) المجيد، بالأيام العظيمة الأخرى؛ كيوم نجاة (نوح) – عليه السلام- وسـفـينته، من طوفان غضب الله على قومه؟ وكيوم نجاة إبراهيم الخليل – عليه

السلام- من نار نمرود؟ وكيوم نجاة عيسى – عليه السلام- من محاولة قتله، فرفعه الله إلى السماء؟ وكيوم نجاة يونس – عليه السلام- من الظلمات الثلاثة في بطن الحوت؟!

وهكذا غيرها وغيرها.. كيوم (إقرأ)، وكيوم (الإسراء والمعراج)، وكيوم (الهجرة)، وكيوم (بدر الكبرى)، في حياة النبي الخاتم الأعظم والعبد الأكرم محمد – صلى الله عليه وسلم؟! أليس كل هذه الأيام من أعاظم أيام الله في تاريخ الدنيا، للإنسانية المكرّمة ؟!

فلماذا لا يحتفل بها كذلك لكي تبقى وتستمرّ مواسم وذكريات حيّة مباركة، في ذاكرة الأقوام والشعوب والأمم - مادامت الأيام والإنسان على وجه الأرض – شكراً لله ، وحمداً لله ، ومجداً لله ، على ما أنقذ عباده الصالحين الأولياء الصادقين ، من شرور الطغاة الكفرة الفجرة تثويراً للغيرة الشَّماء وتحفيزاً للبطولة القعساء وتثبيتاً للمقاومة والتحدي الدائمين ضد كل ظلم وظالم وطغيان وطاغية ولكي تبقى البشرية الكادحة الباسلة ترفض بحكمة وعبقرية كل أنواع الجور والحيف والعدوان. ولكي لا يستمرىء الناس الخضوع والخنوع والذّل والعبودية لجبابرة الأرض وأنظمتهم الفاسدة العفنة النّتنة وفلسفاتهم الإعلامية الدّجالة الخبيثة الضالة الخدّاعة ، فرداً أو حزباً أو قوماً أو أمة !

ذلك لأنه لا خطر على الحياة الإنسانية ألعن من الظلم في الكون الذي يجعل الدنيا كلها فرناً من أفران الجحيم، قبل نار جحيم الله الموقدة المؤبدة .

يا لشر الشرور ، ويا لشقاء الشقاءات !

وفي الختام أقول وأسأل: فهل وعينا حكمة ذكرى (يوم عاشوراء) حقَّ وعيها، كما المراد في كُنه حقيقته؟

أرجو ذلك من صميم قلبي. وأول وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين!❐

# السعادة ودفء النعم

# وحياة الشكر

**بكر أبو بكر - فلسطين**

✍يُحكى أن أعرابياً دخل على الخليفة هارون الرشـــيد فقال: يا أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النِعَم التي أنت فيها بإدامة شـكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسـن الظنّ به ودوام طاعته، وعرّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشـــكرها. فأعجب الرشـــيد بذلك، وقال: ما أحسـن تقسيمه! حيث جمَعَ له النِعَم الثلاث: النعمة الحاصلة، والنعمة المنتظرة، والنعمة التي لا يراها.. فاللهم عرّفنا بالنِعم عند وجودها، وعند زوالها، يا أكرم الأكرمين! وحقق لنا النجاح والسعادة.

ومما كتبه د.صـــالح النهام في مقالة له بمجلة (الوعي الإســـلامي) الكويتية مشـــكوراً: أن القرطبي ذكر في تفسـيره لقوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْـكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢]، أن شـكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذلك لإحسـانه إليه، وشـكر الحق سـبحانه للعبد

ثناؤه عليه بطاعته له؛ إلا أن شـــكر العبد نطقٌ باللســـان، وإقرارٌ بالقلب بإنعام الربّ، مع الطاعات.

الشُّـكر اصـطلاحاً: قال المناوي: الشُّـكر شُـكران: شُـكر باللسـان؛ وهو الثناء على المُنعِم، والآخر شُكر بجميع الجوارح؛ وهو مكافأة النِّعمة بقدر الاستحقاق. والشُّكور: الباذل وسعه في أداء الشُّكر بقلبه ولسانه وجوارحه؛ اعتقادًا واعترافًا.

وقال ابن القيم: الشُّـكر ظهور أثر نعمة الله على لسـان عبده؛ ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه؛ شهودًا ومحبةً، وعلى جوارحه؛ انقيادًا وطاعةً.

ويضيف النهّام: لقد قرن الله تعالى الشُّكر بالذكر في كتابه، مع أنه قال سبحانه: {وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت/ من الآيـة:٤٥]، وقـال تعـالى: {فَـاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْـــكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة/ من الآية:١٥٢]. وقال ســـبحانه: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْـكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة:١٧٢]. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}[آل عمران:١٤٥].

ويشير، ناقلًا عن صهيب الرومي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسـلم-: عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كلّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصـابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له.

وقال الإمام الشـافعي: وشـاكِرُها يحتاج شُـكرًا لشُـكْرِها ** كذلك شُـكرُ الشُّـكرِ يحتاجُ للشُّكرِ.

قال بعض أهل العلم: "مَن أُعطي أربعًا، لم يُمنع أربعًا: مَن أُعطي الشُّـــكر، لم يُمنعِ المزيدَ، ومَن أُعطي التوبـةَ، لم يُمنعِ القبولَ، ومَن أُعطي الاســـتخـارةَ، لم يُمنعِ الخِيَرَةَ، ومَن أُعطي المشورةَ، لم يُمنعِ الصوابَ".

وفي ذات الأمر قال الفيروز آبادي: الشُّـكر أعلى منازل السـالكين، وفوق منزلة الرضـا، فإنه يتضـمن الرضـا وزيادة، والرضـا مندرج في الشُّـكر، إذ يسـتحيل وجود الشُّـكر بدونه، وهو نصف الإيمان، ومبناهُ (أي الشكر) على خمس قواعد:

-خضوع الشَّاكر للمشكور.

- حبّه له.

-اعترافه بنعمته.

-الثناء عليه بها.

-ألا يستعملها فيما يكره..

فمتى فُقِد منها واحدة، اختلت قاعدة من قواعد الشُّكر.

قال ابن حجر: الشُّكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبرُ عن المعصية. وقال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشُّكر، ولا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرْضُه الشُّكر والصبر، أما الشُّكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية. ومن كان في بليّة، ففرْضُه الصبر والشُّكر، أما الصبر فواضح، وأما الشُّكر فالقيام بحق الله في تلك البلية، فإن لله على العبد عبوديةً في البلاء، كما له عليه عبوديةٌ في النَّعماء .

ويشـــير د. عبدالدائم الكحيل قائلًا: إن أكثر ما لفت انتباهي في أقوال الخبراء في علم النجاح والسعادة وتطوير الشخصية والإبداع، هو أنهم يبدأون صباحهم بالشكر لله، وربما أتذكر نبينا - عليه الصلاة والسلام - الذي كان يبدأ يومه بعد الاستيقاظ مباشرة بحمد الله تعالى، فيقول: (الحمد لله). فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسـلم - كان إذا انتبه من الليل قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشـور) [البخاري ومسلم].

ولذلك، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أراد لنا الخير والنجاح والسعادة، وأمرنا أن نشكر الناس باستمرار على أي معروف يؤدونه لنا، بل جعل الشكر للناس موازياً للشكر لله تعالى، والذي لم يتعود على شـــكر الناس لا يمكن أن يشـــكر الله، ولذلك يقول النبي الأعظم - صلى الله عليه وسلم-: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) [رواه الترمذي].

قام باحث يسمي (ماكراتي)، وزملاؤه، في دراسة عام (١٩٩٨)، بتعليم ٤٥ شخص (تنمية التقدير والمشاعر الإيجابية الأخرى). وكانت نتائج الدراسة ملموسة، حيث وُجد انخفاض ملحوظ بهرمون (الكورتيزول) بنسـبة ٢٣٪، وهو الهرمون المسـؤول عن الإجهاد. وأثناء استخدام التقنيات التي وجههم لها الباحثون، حدث أن حوالي ٨٠٪ من المشاركين أصبح معدل ضـــربات القلب لديهم اكثر اتزاناً وانضباطاً، وهذا يعتبر دليلاً على انخفاض مستوى التوتر لدى المشتركين.

هذا، وفي إطار تحقيق النجاح والسعادة - كما يشير علماء النفس - فإن القواعد السبع هي:

١-تصالح مع ماضيك، حتى لا تفسد واقعك.

٢-لا أحد يتحكم بسعادتك إلا أنت؛ بقيمك وأخلاقك وجهادك النفسي.

٣- لا تفْرط بالتفكير المرهق.

٤-ابتسم، تتفتح الأزهار، فليس لديك كل مشاكل العالم.

٥-لا تقارن نفسك وحياتك بالغير، ولا تحكم على الآخرين.

٦- دع الوقت يأخذ مجراه، فقد يبلسم جراحك.

٧-دعهم يقولون ولا تُعِرهم انتباهًا، ما دمت سائرًا بالطريق الصحيح.

يقول البابا شنوده الثالث: "إن حياة الشكر مرتبطة بأمور أخرى تسبقها وتندمج معها.. فحياة الشكر تلزمها حياة الإيمان، الإيمان بالله في صفات معينة، بدونها لا يمكن أن نصل إلى حياة الشكر.. فلا بد أن تؤمن أولاً أن الله صانع الخيرات، وثانياً أنه محب للبشر- فالله لا بد أن يصنع خيراً - لا يصنع إلا الخير - وهو باستمرار يصنع خيراً معك ومع باقي الناس.. ولا بد أن تؤمن ثالثاً أن الله قادر على كل شيء - هو يحبك ويريد أن يصنع معك خيراً، وهو قادر على صنع الخير.. هذه الصفات الثلاث تجعلك تثق بأن الله يصنع دائماً خيراً".

حثت المسيحية، كما حثّ الإسلام، على الشكر والامتنان (والشكر والامتنان مرتبطان بالقلب والروح والنفس من جهة، وبالعمل المصدق)، في عدة مواضع، منها:

* منذ لحظة الاستيقاظ تقول الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا.

* وفي أذكار الصباح والمساء، بمجرد النظر، تجد الكثير من الأدعية والأذكار التي تشير للشكر في جوانب مختلفة من حياتنا، وتذكرنا بالنعم دائماً.

* تأمل الصلاة، تجد في كل ركعة تقول: الحمد لله رب العالمين، وقت القيام من الركوع تقول: سمع الله لمن حمده، أي حوالي ٣٤ مرة يوميًّا في الصلاة فقط.

* عند تناول أي شيء تقول أذكار الطعام، وقت إنهاء الأكل تقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين. والحمد لله والشكر والامتنان له أوله وآخره❐

مرافئ

# حتى مل منه الانتظار!

د. يحيى عمر ريشاوي

✍ مسـكين هو المواطن العراقي! عاش ويعيش حياته في حالة ترقب وانتظار لما سـيأتي ولما ستؤول إليه الأيام والأحداث، انتظار جيل بعد جيل لسلطة بعد سلطة، ورئيس بلاد بعد رئيس بلاد، وحكومة بعد حكومة، حتى بات (الانتظار) صـفة ملازمة له منذ ما يقارب القرن من الزمان:

- فقد كان منتظراً، وبفارغ الصـبر، زوال الاسـتعمار، كي يتمتع - كباقي خلق الله - بحكومة عراقية، سـادته من دم ولحم أبنائه، حتى نصـب عليه ملك جيء به من آخر الدنيا، وكل يوم ينتظر (نادماً) اليوم الذي يليه، أملاً بحياة كريمة وعيش رغيد.. ويا ليته لم ينتظر!

- وانتظر طويلاً طويلاً زوال الملكية، كي ينعم بثورة شـعبية، وحكومة جمهورية مدنية، تنسيه - ولو لبرهة من الزمان - فشل الملكية وتوابعها، وكي ينخرط رافعاً رأسه سياسياً واقتصادياً في المجتمع الدولي، ويقول للعالم: ها أنذا.. ويا ليته لم ينتظر!

- وانتظر بعد هذا وذاك عهد الانقلابات المتتالية، والإطاحة بكراسي السـلطة؛ واحداً تلو الآخر، عسى ولعل أن يأخذ قسطاً من الراحة في ظل إحداها، وأن يذوق - ولو لسنوات - طعم الاستقرار والراحة الأمنية والسياسية!... ويا ليته لم ينتظر!

- انتظاره الأيوبي والطويل آل به إلى دكتاتور دموي، وحزب قمعي، أجبراه على الانتظار مرة أخرى ثلاثة عقود، خاضَا به ثلاثة حروب خاسـرة، وجعلا من بلده ساحة للمغامرات الطائشة والإعدامات والحروب والأزمات الكارثية... ويا ليته لم ينتظر!

- وانتظر هذا الشـعب المغلوب على أمره المجتمع الدولي، و(المنقذ!) العم سـام، كي يخلصـه من هذا المغامر الطائش والدكتاتور الخاسر والحزب الجائر، ولكي تعود للبلد حياته المسلوبة بالأغلال، وينعم بشيء من الحرية والتنمية والازدهار... يا ليته لم ينتظر!

- وها هوذا منتظراً - وأيّ انتظار - منذ ما يقارب العقدين من الزمان، رئيس دولة بعد رئيس دولة، ورئيس وزراء بعد رئيس وزراء، وحكومة بعد حكومة، وبرلماناً بعد برلمان، وأحزاباً بعد أحزاب.. انتظار وانتظار وانتظار.. حتى ملّ منه الانتظار!!

فبالله عليكم، هل هناك شـعب على وجه هذه البسـيطة جرّب (الانتظار) كما جرّبه الشـعب العراقي؟! ووحده الله يعلم في أي جيل سـوف يتوقف هذا الانتظار، ويتحرّك قطاره من جديد نحو الأفق المنشود!❐

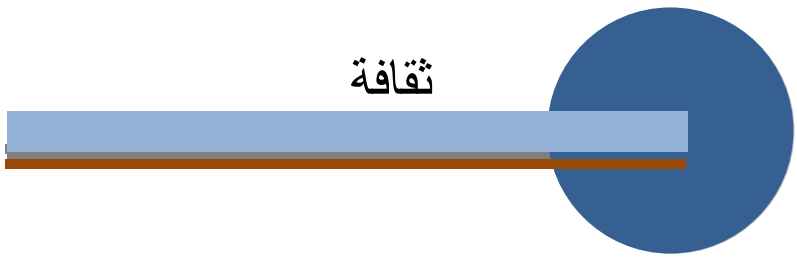


| | |
|---|---|
| - لم يعد دارا..! | عبد الخالق البرزنجي |

قصة قصيرة

# لَمْ يَعُدْ دارا..!

**عبد الخالق البرزنجي**

ذات أمسية معتدلة الهواء من يوم الخميس على الجمعة لشهر نيسان، وفي أعقاب تناول وجبة العشـــاء.. انهمك دارا، وعائلته، وأفراد بيت والده، بتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم بفرح غامر.

أدارت والدة دارا طلعتها نحو ابنها دارا قائلة: يا بني، لِمَ لا نَقُوم بســـفرة إلى مدينة (قلعة دزة).. لكي نتفسح قليلاً ونشترِي لأنفسنا شيئاً من الكماليات البيتية، والسلع الإيرانية الجميلة؟..

حدّق أفراد الأسـرة ببعضهم البعض مشدوهين.. لكن قبل أن ينطق دارا، قاطع والده حديث والدته، قائلاً لها :

يا امرأة، ألا تدرين بأن نجلك دارا قد اشـترى هذه السـيارة المسـتهلكة عبر الاقتراض والاستلاف من هذا وذاك، وأن أسـرته تعتاش على هذه السيارة، وعلى راتبه المتواضع، بشق الأنفس؟! الآن ليس زمن الســـبعينيات، بل نحن في زمن الثمانينيات.. الحرب المســـتعرة وصلت إلى حد الغليان.. الحكومة تستشيط غضباً مع كل صغيرة وكبيرة، وتستفز المواطنين العزّل بالحجج الواهية.. وها أنتِ ترين آثار الحصـــار الاقتصـــادي الدولي المفروض على العراق.. حصـــار اقتصـــادي داخلي خانق، التف حول رقبة الشـــعب المظلوم.. ناهيك عن تجريم التعامل مع السـلع المهربة من قبل الحكومة.. أو هل تودين ذر الوحل فوق رؤوس عائلته وعائلتنا معاً؟ دعيه وشأنه، وتخلي عن عنادكِ وتعنتك، لأن طريق السـفر بعيد جداً، علاوة على خطورته.!

ردت عليه والدة دارا قائلة: لا تهول الأمر، فنحن نذهب لسفرة لا تطول أكثر من يومٍ واحد، ولا نود أن نُحمل كواهلنا مالا طاقة لنا به.. نشـــتري بعض الســـلع البيتية، وبعض الكماليات، علاوة على تغيير الجو، والتمتع بالمناظر الخلابة لجبال كوردســـتان، ثم نعود إلى البيت!..

عقب دردشـــة عائلية كثيفة، وإصرار والدة دارا على رأيها.. قبل دارا طلب والدته كُرهاً..

في صباح اليوم التالي، انطلق دارا بسيارته، ومعه والدته وزوجته وطفلتهما الرضيعة، في مسار قضاء (كويسنجق).. مع أخذ شيء من الطعام معهم.. خلف جبل (هيبت سلطان)، ترجل الكل من الســـيارة في موقع ملائم بالقرب من منتجع (جناروك) المتواضـــع، وتناولوا الفطور بأســـــــرع وقت ممكن.. لم يتوقف دارا في أي مكان آخر حتى وصـــلوا إلى ناحية (سنكســـــر)، بالقرب من (قلعةدزة).. هناك نزل دارا من السيارة، واستفســـــر من أحد المواطنين عن ظروف قضاء (قلعة دزة) الأمنية، وشـــرح له نيتهم في زيارة المنطقة.. فيما رد المواطن عليه بأن ظروف المدينة في الداخل والخارج غير آمنة.. بينما محيط المدينة لا يسلم من القصف المتبادل بين طرفي العراق وإيران المتحاربين.. أرواح الناس موضوعة على كف عفريت.. علاوة على حظر بيع وشـــراء السلع المهربة.. أنصحكم ألاّ توقعوا أنفسكم في التهلكة!.. تقبل دارا نصـيحة ذلك المواطن، وقفل راجعاً دون اســتشـــارة والدته، حتى بلغ مجمع (تووه سووران) السكني.. هناك في الجانب الأيمن رأوا سوقاً مشيداً بالحصير والألواح المعدنية، مليئاً بالسلع المهربة.. كانت نقطة تفتيش (تووه سووران - رانية) قريبة من هذا المجمع المشـبوه.. وبناءً على رغبة والدته، ركن دارا السـيارة أمام السـوق المذكورة.. حينما ترجلوا من السـيارة، ودخلوا السـوق جماعياً.. كانت السـوق خالية من الزبائن.. لم يدر في خلدهم ما السبب الذي يقف وراء كساد هذه السوق.. لذا بادروا بشـــــراء بعض السلع والكماليات ســريعاً، ثم عادوا إلى داخل سيارتهم، وانطلقوا في مسار نقطة التفتيش القريبة من هناك..

حين بلغوا نقطة التفتيش، أوقف الجندي المسؤول سيارة دارا، وقال له:

من أين أنتم عائدون؟

دارا: من (سنكسر).

الجندي: إذاً، لِمَ دخلتم إلى تلك السوق القريبة من نقطة التفتيش هذه؟

دارا: كلفتني والدتي بالوقوف إلى جانب السوق لشـــــراء بعض السلع البيتية، لا أكثر ولا أقل.. إن تود أن تفتش سيارتنا تفضل افعل ما تشاء، على الرحب والسعة..

الجندي: ألا تعلم بأن شـراء السلع المهربة محظور؟

دارا: كلاً.. (متجاهلاً ما كان سمعه في سنكسر)..

الجندي: إذن، ارجع إلى الخلف، واركن سيارتك بالقرب من غرفة التفتيش، وانتظر!..

حين سمعت والدة دارا، وزوجته، هذا الحديث، نزلتا من السيارة، وشـــرعتا بالتوسل إلى الجندي، وإفهامه بأن دارا ليس له ذنب، وقالت له والدة دارا بأنها هي التي أرغمت ابنها على الدخول إلى السوق المذكورة، وإلا لم تكن في نية دارا أن يفعل ذلك!

الجندي: ألا ترون أن لا أحد يتجرأ بالدخول إلى تلك السوق؟

والدة دارا: نحن لا علم لنا بأنكم وضعتم الحظر على التعامل مع تلك السوق!

لِمَ لا تنصبون لوحة الحظر أمامها، حتى لا يدخل إليها أحد..

الجندي: كفاكم ثرثرة.. تفضلوا، اذهبوا إلى داخل السيارة، وانتظروا الإجراءات.. لأن عمر ابنكم قد انتهى أجله هنا!..أنتم مغامرون عنيدون.. وتتجاهلون كل ما ترونه أمام أعينكم عمداً.

توسّلت والدة دارا من الجندي منتحبة، كي يدع دارا وشأنه.. لأنهم ليس لديهم علم بهذه المعمعة.. لكن التوســلات والبكاء لم تكن ذات جدوى.. وفي هذه الأثناء لمحوا رجلاً مرتدياً الزي الكوردي.. بدا عليه أنه موالٍ للحكومة.. وهو يقترب منهم شــيئاً فشــيئاً.. ثم حادث والدة دارا قائلاً: أختي، أنتم انتظروا داخل الســيارة.. أنا كنتُ واقفاً في الطرف الآخر من الشــارع العام أراقب ما يدور بينكم وبين الجندي.. كنتُ أعلم بأن هذا الجندي يتحرش بكم ويستفزكم.. يتبين لي بأنكم بريئون.. لذا آلمني ضـميري ووجداني.. لهذا السـبب جئتُ لمساعدتكم.. تفضلوا إلى داخل السيارة، وانتظروا رحمة الله سبحانه وتعالى..

ردت عليه والدة دارا قائلة: حسناً أخي.. فداك روحي..

بادئ الأمر، مضى الرجل إلى دارا وسأله: ابني ما مهنتك، ومن أين جئتم؟

دارا: أنا مدرس، وجئنا من محافظة أربيل.

الرجل: لِمَ جئتم إلى هنا؟.

دارا: من أجل شـراء بعض الحاجيات البيتية.

فهم الرجل قصــد دارا.. وعرف بأنهم قادمون إلى هذه المنطقة بنية حســنة.. ثم عاد إلى جوار الجندي، وحادثه بلسان مرن وهادئ، لكن الجندي لم يكن يستوعب كلام الرجل، وكانت اســتجابته صــعبة المنال، لذا قال للرجل: كاكه، دعني وشــأني، هؤلاء يتظاهرون بالبراءة، وقد فعلوا المحظور، فلا بد أن ينالوا جزاءهم.. انظر إلى الطرف الآخر من الجسـر.. ها هي ذي سيارة المخابرات العسـكرية المغلقة قادمة نحونا.. نحن ندفع هؤلاء المتمردين

عبر تلك السيارة إلى معتقل الموت.. دعهم وشأنهم، لأن هؤلاء صم وبكم، ولا يستخلصون العبر من أي شيء.

لكن الرجل المُحسن واصل حديثه مع الجندي، بلسان لطيف، وأسلوب متسم بالتوسل، وشرح ظروف وهدف العائلة المنكوبة التي لم ترتكب أي جنحة متعمدة.. وأضاف: لمَ نجعلهم رماد المتهمين الحقيقيين؟.. كرر توسلاته مرات عديدة أمام الجندي قائلاً له: أخي الجندي، لأجل خاطري هذه المرة، كن رحيماً معه، وافرج عنه.. لأنك لو قمت بحجز هذه العائلة هنا.. فلن يجدوا من يوصلهم إلى مدينتهم.. علاوة على ذلك ستكتب لنفسك إحساناً كبيراً، ربما يغفر لك الله سبحانه وتعالى ما تقدم من ذنوبك جزاء هذا الإحسان.. أخيراً، استثار وجدان الجندي، وعاد إلى رشده، قائلاً للرجل: هيا اذهب، وادعوه إلى هنا قبل وصول سيارة الاستخبارات..

في أثناء المحادثة المتبادلة بين الجندي والرجل ذي اللحية البيضاء، وصلت السيارة المرعبة إلى هناك، ووقفت بجانب نقطة التفتيش العسكرية.. ثم ترجل السائق من السيارة، وتوجه نحو الجندي قائلاً له: هل لديك مشكلة ما؟

الجندي: كلا، شكراً، بإمكانك المغادرة.

عرفت أم دارا، وزوجته، بأن الرجل المحسن قد أقنع الجندي بالعدول عن تصلبه إزاء الموقف المتأزم.. قرأتا الشهادة، وحمدتا الله عز وجل لنجاتهم من المأزق الذي وقعوا فيه.. ثم جاءتا إلى الجندي، ووعدتاه بعدم تكرار مثل هذه المخالفات.. وشكرتا الجهود المبذولة للرجل الخَيِّر، ورفعتا أيديهما بالدعاء له بالخير، وذلك لإخراجه العائلة من المأزق المرعب، وإعادة الحياة لدارا من الموت المحقق.. بينما بادر الرجل الخيِّر بالحديث مع والدة دارا، قائلاً لها: أنا يكفيني هذا الدعاء لكي يغفر لي رب العالمين ذنوبي، ويجنبني نار جهنم..

في أعقاب توديع الرجل والجندي.. ركب دارا وأسرته السيارة وتحركوا في مسار مدينة (رانية).

كان الوقت ينحدر نحو العصر.. عرج دارا بسيارته صوب حديقة عامة داخل مدينة (رانية).. وتناولوا وجبة الظهيرة بعجالة.. بعدها توجه دارا بالحديث إلى والدته قائلاً: أماه، الآن نحن في عصر متأخر.. والوقت يداهمنا شيئاً فشيئاً.. فلا تكلفيني بالوقوف في أي مكان آخر، لأن نقطة التفتيش في قضاء كويسنجق ستمنعنا من العبور إلى مسار أربيل بعد أوان غروب الشمس.. ماذا تقولين؟

ردت عليه والدته بالقول: كما تشاء يا بُني العزيز لن اعترض على رأيك هذه المرة أبداً.. هيا تحرك.. فلتنكسر رقبة الشيطان!..

بلغوا جوار نقطة التفتيش الواقعة خلف تقاطع (كويسنجق- أربيل- ناحية طقطق) في وقت الأصيل.. توجه مسؤول النقطة بالسؤال إلى دارا قائلاً: إلى أين تتجهون؟

دارا: إلى أربيل.

المسؤول: ألا تعرف أن الطريق ينغلق من هذا الوقت فصاعداً؟!

دارا: لا والله ليس لنا علم بذلك.

المسؤول: ينبغي لكم أن تعودوا إلى كويسنجق، لكون الطريق نحو أربيل غير آمن.

دارا: أيها الفاضل، نحن ليس لدينا معارف لكي نبيت لديهم.. ولدينا طفل رضيع.. من الصعب لنا أن نبقى الليلة هنا.. علاوة على ذلك والدي، وأعضاء أسرتي، سيظلون في ظروف قلقة بسبب عدم عودتنا الليلة.

استغرق تبادل الحديث بين المسؤول والعائلة بعضاً من الوقت.. لكن المسؤول أكد لهم كرة أخرى: الطريق غير آمن.. لعلكم تواجهون خطر الموت أو الاحتجاز.. أنا أتحدث لمصلحتكم.. لِمَ لا تسمعون كلامي؟!

أصرت أم دارا على العودة مخافة إدانة والد دارا لها، لأنه لم يكن راضياً بالقيام بهذا السفر.. في الختام قال لهم المسؤول: بإمكانكم أن تتحركوا على مسؤوليتكم.. فيما أشاد دارا ووالدته بموقف المسؤول..

وفي الحال تحرك دارا بسيارته في مسار ناحية (ديكلة) بأسرع ما يمكن.

وصلوا إلى المرتفع الذي ينحدر صوب ناحية (ديكله)، وكانت عُتمة الليل قد غطت بجناحها على السماء تماماً.. كان المصباح الأمامي للسيارة مضاءً.. حين رأى المسلحون المرتدون للزي الكُوردي، داخل نقطة التفتيش، سيارة دارا وهي قادمة باتجاههم.. انتشروا كلهم على جانبيها، ووجهوا فوهات بنادقهم صوب السيارة، وشرعوا بإطلاق زخات الرصاص فوقها.. وأشاروا له بإطفاء مصابيح السيارة الأمامية، كي يتأكدوا فيما إذا كانت السيارة تحمل مسلحين أم لا؟.. اضطر دارا لإطفاء المصابيح، وانحدر صوب الجسر، رويداً رويداً، حيث نقطة التفتيش.

كانت قرينة دارا جالسة في صدر السيارة، وطفلتها الصغيرة ترتمي في حضنها.. كلف دارا قرينته برفع طفلتهما إلى مستوى الزجاج الأمامي للسيارة، لكي يمنحا الاطمئنان للمسلحين بأن السيارة القادمة إليهم ليست معادية لهم..

فعلت زوجته ما أُمرها به، فيما أخرج دارا ذراعه اليسرى، ولوح بيده بقطعة قماش، لكي يمنحهم تطميناً أكثر.. وفي المقابل، كان المسلحون يواصلون إطلاق زخات الرصاص فوق سيارة دارا.. فيما كان دارا وعائلته قد انتهبهم الفزع والهلع.. وهم يتضرعون إلى الله عز

وجل أن يحميهم من هذا البلاء النازل عليهم في هذا الوقت العصيب..

على أي حال شـــرع دارا البائس النزول من التل المتوجّه إلى الجســـر شيئاً فشيئاً، وسلم نفسه إلى قدر الله سبحانه وتعالى. حين اقتربوا من نقطة التفتيش، وصاروا على بُعد خطوات منها، كان مسـؤول النقطة واضـعاً أصـبعه على زناد بندقيته وجهاً لوجه زجاج السـيارة الأمامي.. لكنه حين رأى رأس الطفلة الصـغيرة، نكَّس فوهة البندقية إلى الأسـفل، وتقدم إلى الأمام موجهاً كلامه إلى دارا بغضب شديد قائلاً: قسماً بالله، لو لم أرَ رأس الطفلة لأطلقتُ النار عليكم، وبعثتكم إلى جهنم وبئس المصير.

أنزل المسـؤول ركاب السـيارة بغضـب.. وتوزع المسـلحون الآخرون حول السـيارة مشـدوهين.. فيما رفعت أم دارا أصبعها الأيمن، وقرأت الشـهادة، ثم قالت لمسؤول النقطة:

- يا بني، والله اليوم هي المرة الثانية ننجو من الموت المحقق..

انفجر المسؤول غضباً، وتوجه بعصبية إلى أم دارا قائلاً لها:

- حسـناً.. كيف سـمح لكم رجال نقطة تفتيش كويسـنجق أن تتحركوا من هناك باتجاه أربيـل؟! هـل تودون أن تُخاطروا بأرواحكم، أأنتم إلى هـذه الـدرجـة من الجنون؟! أولئك الرجال كم هم مجردون من الإحســاس والوجدان، ليســمحوا لكم بالتحرك في هذا الظرف الخطير؟!

- أم دارا: قســماً بالله نحن نقدر موقفك إزاءنا، وندعو لك بالخير يا أخي.. والآن ها نحن قد اقتربنا من أربيل.. نرجو أن تسـمح لنا بالعودة، لأن أســـــرتنا تعيش في قلق كبير هذه الليلة!

المسؤول: لن أسمح لكم بالعبور بأي شكلٍ من الأشكال.. ستبقون هذه الليلة هنا في (ديكلـة)، ولن أكرر خطأ نقطـة تفتيش (كويســـنجق) إزاءكم.. لعـدم وجود أي ضـــمان لعودتكم إلى أربيل بســلام.. ما خلا ذلك، إن تعرضــتم في الطريق إلى أي طارئ أو مصـيبة فسنتعرض نحن إلى أقصى المساءلة القانونية!..

فشلت مساعي أمّ دارا لإقناع المسؤول بالعدول عن رأيه، ولم تجد نفعاً.

قاطع المسؤول كلام أم دارا قائلاً لهم: تفضلوا اتبعوني..

قادهم إلى بيت مختار الناحية، وباتوا الليل في ضيافته..

بعد تناول الفطور في صـباح اليوم التالي، شـكر دارا ووالدته حسـن ضـيافة المختار، ثم عادوا إلى أربيل بعد أن مروا بمسـؤول نقطة التفتيش فوق الجسر- شـاكرين جميله وحماية حياة الأسـرة في الليلة الفائتة.

قبيل الظهر وصلوا إلى أربيل.. كان أفراد عائلة أم دارا ينتظرونهم بين مصـراعي الباب

على أحر من الجمر، واستقبلوهم أحسن استقبال بمناسبة عودتهم سالمين.. لكن علامات الارتباك والقلق كانت بادية على وجوه الكل..

سألت أم دارا ابنتها الكبيرة:

- ها ابنتي، ماذا دهاكم.. هل حدث شيءٌ ما، لا سمح الله؟!

ردت عليها ابنتها قائلة:

- لم يحدث أي شيء يا أماه.. لكن عصـــــر الأمس قدم أحد سعاة البريد إلى بيتنا طالباً والدي، لكنه لم يكن موجوداً في البيت.. فاضــطر أن يُســلمني طرداً وقال لي: حين عودة والدكِ سلّميه هذا الطُرد دون تأخير..

وفي المساء عندما عاد والدي إلى البيت سلمته الطُرد.. فارتبك والدي قليلاً ثم قال لي: ابنتي العزيزة، أنت تعلمين أنا لســتُ بقارئ.. افتحي لي الطُرد واقرأي لي مضــمونه.. وحين فتحت الطُرد، وقرأتُ مضمون الرسالة، اضطرب والدي في الحال وامتقعت طلعته.. قسماً بالله نام والدي بقلق بالغ في الليلة الماضية، وتقلب على جنبيه حتى الصباح..

كان دارا يرهف السمع إلى أخته بدقة، وقال لها:

ألم يقل ساعي البريد شيئاً آخراً؟

ردت عليه أخته قائلة:

فقط قال لي هذا تبليغ لأخيكم الكبير، لا أكثر ولا أقل..

اضــطرب دارا أكثر من والدته، وغرق في بحر من التخيلات لا قاع له.. ريثما عاد والده وقت غروب الشمس لم يستقر له قرار.. كان يتصور نفسه كائناً ليس له وجود فوق سطح هذه الدنيا.

عاد والد دارا المشدوه والمشتت الفكر إلى البيت من الكسب المعيشـــــي اليومي مساءً.. بلا ترحيب بعودتهم، قال لوالدة دارا:

- ماذا ارتكبتم من أخطاء في سفرتكم النحسة هذه؟!

ردت عليه والدة دارا :

- لم نرتكب أي شيء.. ألا ترى بأننا عدنا إلى البيت سالمين؟!

والد دارا:

- ألم أحذركم بعدم القيام بمثل هذه السفرة، لأن الظروف الحالية لا تساعد على ذلك؟!

والدة دارا:

- يا رجل، الآن نحن عائدون إلى البيت بسلام.. لِم أنت مرتبك هكذا؟!

والد دارا:

- انظري لهذه الرسالة.. إنها تبليغ من مديرية أمن أربيل لابننا دارا.. ينبغي له أن يحضر غداً هناك، ويعطي لهم توضيحاً بخصوص هذه السفرة!

والدة دارا:

- إنه شيءٌ عادي.. بالطبع ابننا دارا لم يرتكب خطأً مشبوهاً بالنسبة للحكومة.. نحن كنا مرافقين له.. فليذهب إليهم، ويقدم لهم التوضيح المطلوب ويعود إلى البيت..

في صباح اليوم التالي راجع دارا دائرة أمن أربيل المرعبة برجليه الاثنتين.. لكنه ما إن وطأت قدماه الدائرة حتى اختفى أثره ولم يَعُد إلى البيت إلى اليوم.. أما والده البائس، فقد أصيب بالمرض قهراً وجزعاً.. بعد فترة وجيزة اشتد مرضه، وانتقلت روحه إلى جوار ربها في فراش المرض، وهو يردد على لسانه أوان الاحتضار: دا.. را..دا..را..أ..ي..ن..أ..ن..ت..يا..دا..را حتى لفظ أنفاسه الأخيرة❐

أواخر شهر حزيران ٢٠٢٠

بصراحة

# عندما أقول: وأنا من المسلمين!

**صلاح سعيد أمين**
Selah١٤٣٤@gmail.com

يشير القرآن الكريم إلى نقطة جوهرية في إحداث التغيير، وهي بداية التغيير والخطوة الأولى فيه: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، الرعد:١١

إن المسلمين اليوم - مع الأسف الشديد - يعيشون في واقع لا يحسدهم عليه أحد.. وقد تأخر المسلمون اليوم، وتقدم غيرهم، في كل مفاصل الحياة، وهم يعانون أزمات مختلفة في كل شبر على وجه المعمورة، وقائمة مآسينا اليوم تطول إلى أبعد الحدود، ومشكلاتنا المتنوعة لا تعد ولا تحصى. والسؤال المطروح هنا هو: لماذا يعلمنا القرآن الكريم - المرجع الرئيس لتصورنا وتفكيرنا - طريقة التغيير، وبداية هذا الطريق، لكننا لا نخطو خطوة بسيطة باتجاه تجاوز محننا الكثيرة؛ تبشِّرنا بمستقبل مشرق قريب؟!

الإجابة بسيطة جداً، لا تحتاج إلى التفلسف، ولا إلى التفكير العميق، بل تحتاج إلى حركة بسيطة في حياة كل واحد منا؛ وهي أن نقرر البدء بالتغيير من الآن فصاعداً، ونقرر فعل ما يطلبه منا ديننا الحنيف الداعي إلى الأفضل والأحسن دائماً، والرافض لكل ما هو أسوأ في هذه الحياة التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

بناءً على ما سبق، ينبغي أن يراعي كل واحد منا حدود شريعتنا في حياتنا اليومية: في البيت، وفي الدوائر، وفي المؤسسات الخدمية؛ سواء في القطاع العام أو الخاص، في رياض الأطفال والمدارس والجامعات، وفي مؤسسات الدولة المختلفة؛ في الأسواق، وأثناء البيع والشراء، وفي كل مساحة نعيش فيها.. وقتئذٍ نشعر بتغيير كبير لا بأس به في حياتنا، تغيير يبشر بإصلاح آخر هذه الأمة، ورجوع دورها الحضاري المطلوب في هذا الكوكب.

وعليه، {وأنا من المسلمين}، ليست فقط كلمات عابرة تقال بعد تكبيرة الإحرام، وقبل التعوّذ لقراءة الفاتحة، وهو ما يعرف بدعاء الاستفتاح.. ولكنّه إن دلّ على شيء، فإنما يدّل على أنني مسلم ينعكس سلوكه في جوانب حياته كافّة: في الأسرة، والعمل، والجيرة، والسوق ...وإلخ!❐

| | |
|---|---|
| - الشيخ عبد الحميد عبدالخالق البيزّلي الريكاني سيرة ومواقف | د. فرست مرعي |

# الشيخ عبد الحميد عبدالخالق البيزّلي الريكاني

## سيرة وموا قف

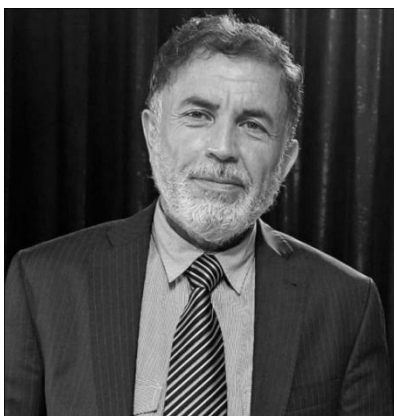

**أ.د. فرست مرعي**

✍ ينتمي الشيخ عبد الحميد عبدالخالق البيزلي إلى عشيرة الريكان، وهي إحدى العشائر الكوردية التي تقع ديارها على الحدود العراقية – التركية، ضـــمن ناحية نيروه وريكان، التابعة لقضاء العمادية في محافظة دهوك. وتتكون العشيرة من حوالي (٦٢) قرية، وتنقسم إلى ثمانية بليكات(= صـــفوف)، ولكل بليكة رئيس خاص بها، كما للعشـــيرة رئيس يبت في شؤونها، يطلق عليه الآغا.

ويظهر للباحث أن لفظة (بيلك) ربما جاءت من البايلك، فهو مصـطلح تركي قديم، أخذه الأتراك عن المغول والســـلاجقة. وأول من تولى إمارة البايلك عند الأتراك هو عثمان بن أرطغرل، مؤسس الدولة العثمانية، وذلك سنة ١٢٨٠م. ومصطلح بايلك أصله (بكلك)، وهو مشكل من مقطعين: بك+ لك، فأما بيك – وتلفظ باي – في الأصل، فهو لقب أبناءالسلاطين الحـائزين على لقب البـاشوية وذريتهم، ثم استعمل لقباً لمعظم كبـار الموظفين والقـادة

الشيخ عبدالحميد الريكاني

الذين يكلّفون بإدارة الولايات، ويسمّون وزراء الخارج، وقد اعتمده العثمانيون كلقب لحاكم الولاية أو المقاطعة، واشتق منه لفظة بيكلربك التي تعني أمير الأمراء، وهي الرتبة الثانية من رتب الباشوية، وكلمة بايلك صارت اصطلاحاً لكل ما هو مُلك للدولة، فيقال طريق البايلك، وأرض البايلك. ينظر: (فارس كعوان، المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر).

وعلى أيّ حال، فإن هذا المصطلح قد صحّف قليلاً عندما دخل إلى اللغة الكوردية لكي يناسب بنائها اللغوي، فأصبح يطلق عليه لفظة (بِليك) عند العشيرة الريكانية، ومعناها إحدى مقاطعات أو أراضي القبيلة. أما أفراد العشيرة الأرتوشية، بمختلف فروعها، فيطلقون عليه لفظ (بِلوك). وكما هو معروف، فإن القبيلتان المارتا الذكر متجاورتان جغرافياً.

وقد اختلف المؤرخون في التعريف بلفظة الآغا، فالبعض يقول إن المصطلح فارسي الأصل، ويعني السيد، وجمعه: آغاوات، استعمله الأتراك لدلالات؛ منها تسمية الضباط الأميين كالإنكشاريين، وقيل: كلمة مشهورة. وأغلبهم يتلفظونها بالهمز لا بالمد. ينظر (مجلة لغة العرب العراقية، التي كانت تصدر في بغداد بداية القرن العشرين). وفي الحقبة الأخيرة من العهد العثماني أطلق اللقب على ذوي المكانة العالية في المجتمع.

وذكر محمد فريد وجدي: "... أن هذه الكلمة محرفة من كلمة (آقا) المغولية". ينظر: (محمد فريد وجدي، تاريخ الدولة العلية العثمانية). وكان مدراء مكاتب الوزراء يسمون (آغا أفنديم). أما (آغا باشا)، فكان يطلق على الوزراء الإنكشاريين. و(آغا بك) يعني الأخ الكبير، يستخدم من قبل الطبقات الاجتماعية المتوسطة. و(آغا الحرم)، هم الذين يستخدمون في أقسام الحريم في قصور السلاطين، وهم من الزنوج المخصيين.(علي الكاش، الألقاب الرسمية معناها وأصولها)http://www.shbabmisr.com

وهي في الحقيقة كلمة مغولية معناها (الأخ الكبير). وبعد سيطرة المغول على المشرق الإسلامي، في أعقاب سقوط الخلافة العباسية عام٦٥٦هـ/١٢٥٨م، تغير مفهوم هذا المصطلح، فدخل إلى القاموس الفارسي بمعنى الآقا أي السيد، ومن ثَّم تغَّير مفهومه لدى الكورد، في تاريخ متأخر، يبدو أنه جاء في أعقاب سقوط الإمارات الكوردية في العصر العثماني، بعد عام ١٨٣٦م، ليصبح مصطلحاً يطلق بصورة محددة على (رئيس القبيلة أو العشيرة الكوردية تحديداً)، كما أن لفظة (الشيخ) تطلق على رئيس القبيلة العربية، ومماليك أو ملك يطلق على رئيس القبيلة النسطورية – أتباع كنيسة المشرق (الآثوريون – الآشوريون).

يحد قرى عشيرة الريكان من الغرب قرى عشيرة النيرويي، ومن الجنوب جبل لينك، وهو امتداد لسلسلة جبال (متينا)، التي تنتهي عند (مضيق رشاوه)، التابع لمنطقة (نهله)، ليبدأ منها جبل لينك. ويحدّ قرى الريكان من الشرق قرى عشيرة **مزورى بالّا** (= العليا)، وقرى عشيرة (**هركى بنه‌جه**) باتجاه الشمال، بالإضافة إلى مضيق (**گلى بالّنده**)، ونهر (**روى شين**) (= أورمار، سابقاً). ويحدها من الشمال الشرقي، قرى عشيرة (**الدوسكى ژورى**)(= العليا)، بالإضافة إلى الحدود التركية، حيث تقع ثلاث قرى من عشيرة الريكان ضمن أراضي كوردستان الشمالية (= التركية)، وهي: **برجيله**، **شيڤا ره‌زا**، **جانمندا**، مجاورة لعشيرة (الأرتوشي)، التي تقع ديارها إلى الشمال من خط الحدود الذي يقابل عشيرة الريكان، فيما تقع ديار قبيلة (**بنيانش**) في كوردستان الشمالية، مقابل أراضي عشيرة النيروه.

وقد جاء ذكر عشيرة الريكان بصيغة (رادكان) في كتاب (الشرفنامه)، الذي ألفه المؤرخ الكوردي الكبير شرفخان البدليسي(٩١٤ – ١٠١٢هـ/١٥٣٤ – ١٦٠٣م).

وتطرق إليها مؤرخ العراق المحامي عباس العزاوي (١٣٠٧ – ١٣٩١هـ/ ١٨٩٠- ١٩٧١م) في حديثه عن العشائر العراقية، وبالتحديد عشائر العمادية، بصورة مقتضبة، وجمع بينها وبين عشيرة النيروي، في ناحية تابعة للعمادية. ومما قاله: "... – نيروا- ريكان، وهذه

برياسة (كلحي آغا)، وكان قد حصل على وسام الرافدين من الدرجة الثانية. وتتكون منها ناحية من نواحي العمادية، وفيها ٧٩ قرية". (عباس العزاوي، موسوعة عشائر العراق، ج٤، ص٢٢٠). ويبدو أنه يتطرق إلى قرى عشيرتي الريكان والنيروه معاً. بعدها ذكر العزاوي معلومات أخرى عنهم، نقلاً عن كتاب الشرفنامه، بالقول: "ريكان: وجاء في الشرفنامة أنها (رادكان)، وينطق بها الأكراد ريكان- نيروا، والظاهر أن هذا اسم موطن عرفت به قبائله. والأخيرتان قد تكونت منهما مجموعة تدعى (نيروا – ريكان)، ومنها الناحية بهذا الاسم. ومركزها قرية (بيبو)".(المرجع نفسه، ج٤، ص٢٢١).

ولد الشيخ عبدالحميد بن الخليفة عبدالخالق بن الخليفة نبي بن ملا حجي بن ملا أبوبكر في قرية (بيزلي)، التابعة لعشيرة الريكان، والواقعة ضمن ناحية نيروه ريكان (= بيبو)، التابعة بدورها لقضاء العمادية في محافظة دهوك، في إقليم كوردستان العراق، في سنة ١٩٤٩م.

وجاء ذكر قرية (بيزلي) في المصادر الإسلامية المختلفة، فعند ذكر سيرة القاضي كمال الدين بن محمد بن داود البازلي الكوردي الحموي، الذي تولى نيابة دمشق ومشيخة المدرسة الشامية، يتطرق المصدر إلى التعريف بقرية البازلي بالقول: "نسبةً إلى قرية في منطقة العمادية التابعة لمحافظة دهوك في كوردستان العرق، وما زالت عوائل تلك القرية يعرفون بهذا الاسم، وهم من عشيرة الريكان المشهورة". وجاء التعريف به في مصادر أخرى: "محمد بن داود بن محمد البازلي، أبو عبد الله، شمس الدين: فاضل، من الشافعية. كوردي الأصل، من العماديّة. ولد في ضحوة يوم الجمعة سنة خمس وأربعين وثمانمائة في جزيرة ابن عمر (= جزيرة بوتان)، ونشأ بها، وانتقل إلى (تبريز) في إقليم أذربيجان، فحفظ كثيراً من الكتب في الفقه والنحو، ودرس المعقولات على: منلا ظهير، ومنلا محمد القنجفاني، وعثمان الباوي، والمنقولات على: والده نجم الدين الآَشلوبي. ثم قدم حلب والقصير، وقطن حماة، ودرّس بها وأفتى، وصار شيخها في المعقولات، وتعلم في أذربيجان، وأقام في حماة من سنة٨٩٥هـ/١٤٩٠م، فدرس بها، وأفتى، وصار شيخها في المعقولات، مع فضيلةٍ في الفقه، وترقّى بعد الفاقَة، وزوج بنته فِي بيت البَارِزِيّ، وهو الآن حيّ في سنة خمس وتسعين، ويُقال إنّه جازَ الخمسين (على حد تعبير السخاوي في كتابه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٧، ص٢٤٠ برقم ٥٨٧، وحفظ بها كثيراً من الكتب منها: الحاوي الصغير، وعقائد

النســـفي، وعروض الأنـدلســـــــــــي، والشمسية في المنطق، والكـافيـة في النحو لابــن الــحــاجــب، وتصــريف العزي، إلى أن توفي ســـنة خمس وعشـــرين وتسعمائة (٩٢٥هـــ/١٥١٩م) في مـدينـة حماه، قبـل وفاة والده بسنتين(٩٢١هـــ/١٥١٥م). من كتبه: غاية المرام في رجال البخاري إلى سيد الأنام، وتقدمة العاجل لذخيرة الآجل، وحاشية على شـــــرح جمع الجوامع للمحلي". ينظر: (ابن العماد الحنبلي، شـــذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص١٢٦، ١٣٨؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الفنون، ج١، ص٥٩٥؛ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج ١، ص ٤٧).

وللبازلي مخطوطة بعنوان (غاية المرام في رجال البخاري إلى ســـيد الأنام)، عدد أوراقها: ٢٧٤، المقاييس: ٢٨٢ × ١٨٥ ـــ ٢٢٠ × ١٢٥، عدد أسطرها: (٢٧). جاء في أولها: "بسم الله الرحمن الرحيم، رَبِّ يَسِّـر وأَعِنْ، واخْتم بِخَيْرٍ، يا خَبِيْر يا لَطِيْف. الحمد لله الذي رفع منار الحق ببعثة النبي، ورحم الخلق بإرسال الرسول الأميّ، وجعل أقواله حجّة، وأفعاله محجة، ففاز مَن تَبِعه واقتدى، ونجى مَن اقتفى أثره واهتدى... وبعد: فيقول العبد الفقير إلى الله الغني؛ محمد بن داود بن محمد البازلي؛ جعله الله ممّن ســـعدَ بإســـعادِها الأزليّ، ووالديه ومشـــائخه ومُحبيه، بحُرمة كل نبي لله وولي: كنت قدَماً مِمَّن شـــغفَ بخِدمةِ الحديث، فَبِهَا اشـتغلَ، فطافَ البلادَ، وجاب المَهامِهَ، فحصل منه ما حصَّـل، وصـــــرف فيه عُمرَه، فلله الْمِنَّة على ما منح به وتفضّـل. وليس بخاف أن معرفة رجال الحديث من أهمّ المهمات، وعند أرباب الحديث، من أعظم المرغوبات... فإني ما وضـــعت هذا الكتاب إلا ليغني عن كتب الغير... فحاولت أن أجمع كتاباً حافلاً في مشـائخ البخاري وشـيوخهم، إلى النبي صـــلى الله تعالى عليه وســـلم، وأذكر فيه وفياتهم، إلا نادراً جدّاً، وبعض أحوالهم ومناقبهم، فإنه بذِكرِهم تنزل الرحمة، وأُطوِّل الترجمة وأختصـــرُها على قدر شهرة الراوي وذِكره، ورتبت الأســـماء على حروف الهجاء في اســـم الراوي فقط... وأما الذي بيني وبين

البخـاري، فـأذكرهم أولاً عـلى تـرتـيـب الوفاة مختصـــــراً.

وَسَــمَّيْتُهُ: غاية المرام في رجال البخاري إلى سـيد الأنام، عليه من اللـه تعـالى أفضـــل الصـــلاة وأكـمـل الســـلام... فـأقـول وبالله التوفيق: أخبرني بجميع صحيح البخاري، إجازة الشيخ صالح الفقيه المحدّث، والدي داود بن محمد البازلي، والمسند المفســـر مظفر الدين بن عبد الله التبريزي، تغمدهم الله برحمته...".

وجاء في آخرها:..." عبد الله بن يوسف أبو محمد النيسـي، بكسر المثناة والنون المشددة المكسورة بعد المثناة التحتية مهملة: بلدة من بلاد مصـــــر، في وسط البحر، وهي من كور الخليج، منســـوب إلى نيس بن حام بن نوح، وهي في جزيرة من جزائر بحر الروم، قرب دمياط... فاتّضح أن المراد بالعجمة المانعة عن الصـرف؛ غير العجمة الممنوعة عن ورودها في القرآن، فإن المانعة هي التي اخترعها العجم أعلاماً، والممنوعة هي التي وضـعها واضـعُ لغة العجم، فتأمل؛ فإنه والله حقيق أن يكتب ببياض النهار على ســواد الليل، ولله الحمد على هـذه الفائدة العظمى التي ما خيب الله تعالى ســهري عليها ليالي وأياماً". ينظر: (محمد بن داود بن محمد الكوردي الحموي الشـافعي البازلي، شـمس الدين أبو عبد الله (المتوفى سنة ٩٢٥ هـــ/٩١٥١م)، مخطوطة - غاية المرام في رجال البخاري إلى سيد الأنام، الجزء الأول، عدد الأوراق: ٢٧٤، المقاييس: ٢٨٢ × ١٨٥ ـ ٢٢٠ × ١٢٥،عدد الأسطر(٢٧).

وهناك ملاحظات مدرجة عن المخطوطة، جاء فيها: "خطّ الثلث المضــبوط بالحركات، وأسماء الأعلام والعناوين مكتوبة باللون الأحمر، وتوجد تصحيحات على الهوامش، والغلاف جلد عثماني مغلف بالقماش، وعليه تملّك مشــوه، ثم تملّك علي القطان، وقف الصــدر الأعظم محمد راغب پاشا. رقم السي دي: ٤٩٠٩١".

وعلى أيّ حال، فيعتقد أن مدرسة قرية بيزل أسست في سنة ٩٢١هـــ/١٥١٦م، في عهد الأمير البهديناني ســليمان بن الأمير مبارك بن ســيف الدين أمير الإمارة البهدينانية، الذي

حكم لمدة أقل من سنة واحدة (٩٨٤هـ/١٥٧٦م)، بعد الأمير قباد الأول بن حسين بن حسن، الذي حكم بدوره في نفس السنة أيضاً ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦ – ١٥٧٧م.

وقرية بيزلي تعد إحدى المراكز الدينية في منطقة نيروه وريكان، لأنها كانت تعج بعدد من علماء الدين الإسلامي، من أُسر عديدة، كانت تمتهن التدريس والخطابة والإفتاء في المنطقة، ومن أبرز هذه الأسر: مالا عباسي، ومالا زاده، ومالا شيخي، وغيرها، ومن ضمن هذه الأُسر، أسرة مالا زاده أسرة فقيدنا (الشيخ عبدالحميد)، فضلاً أن مسجدها كان يلحق به مدرسة دينية، تخرج منها العديد من الملالي والفقهاء، بمختلف درجاتهم العلمية.

وكان نظام التعليم السائد في البلدان الإسلامية، في العهد العثماني، هو السائد في كوردستان أيضاً، بحكم وقوعها لحوالي أربعمائة سنة تحت الحكم العثماني(١٥١٤ – ١٩١٨م). وكان هذا النظام يفرض على الطالب أن يدرس في الكُتّاب أولاً، وكانت هذه الكتاتيب منتشرة لتحفيظ الأولاد الصغار مبادىء القرآن الكريم، يشرف عليها مدرّس للقرآن يسمى مُلّا (تحريفاً لكلمة مولى). ثم ينتقل الطالب بعد ذلك إلى المدارس الملحقة بالمساجد، وهذه المدارس هي التي قادت الحركة العلمية والأدبية، وكانت تخرّج أفواجاً من طلبة العلم، وتثقفهم بالثقافة العقلية والنقلية. ينظر: (عبدالرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العراق، ص٨٠ – ٩٣).

وكانت قرية بيزل تعد المركز الديني الرئيس في منطقة نيروه - ريكان، قبل أن تقوم الحكومة العراقية بنقل أهاليها، وغيرها من المناطق الكوردية الملاصقة للحدود التركية، إلى مجمعات سكنية، في سنة ١٩٧٨م، تقع أسفل المناطق المشارة إليها آنفاً؛ بسبب انطلاق الحركة الكوردية من جديد (القيادة المؤقتة للحزب الديمقراطي الكوردستاني في ٢٦ أيار عام١٩٧٦م)، ومحاولتها لمّ شتات الحركة الكوردية من جديد، التي تم إخمادها في أعقاب اتفاقية العراق والجزائر في ٦ آذار عام ١٩٧٥م.

وكانت القيادة العراقية تعتقد بأن انهيار الحركة الكوردية عام ١٩٧٥م قد قضى إلى الأبد على كل أمل لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، أي انطلاق الحركة الكوردية من جديد، ولكن يبدو أن تهجير المناضلين الكورد، الذين شاركوا في الحركة الكوردية التي انطلقت من عام ١٩٦١ لغاية ١٩٧٥م، إلى جنوب وغرب العراق، ومحاولات الأجهزة الأمنية للنظام العراقي السابق؛ من أمن واستخبارات، امتهان كرامة المواطنين الكورد، ربما عجل في انطلاق الحركة الكوردية، للوقوف في وجه هذه المخططات غير الإنسانية وغير المسؤولة تجاه مواطني البلد نفسه.

وكان ميشـــيل عفلق (١٩١٠ – ١٩٨٩م)، مؤســـس حزب البعث العربي الاشـــتراكي وأمينه العام، قد صـــرح لمجلة (المعلم الجديد) العراقية في عام١٩٧٦م، بأنه إذا تعاملنا مع الكورد بعدالة الخلفاء الراشـــدين، فإن العراق ســـوف ينعم بالأمن والاســـتقرار، ولن تقوم قائمة للحركة الكوردية!، وكان عفلق نفســه قد صـــــــرح، قبل ذلك بعدة ســنوات، وتحديداً في ١٩٦٩/٦/١٠م، بالقول ما نصـــه: " ...الأكراد هم مواطنون عرب مســـلمون، كغيرهم من العرب المســلمين، لا يوجد أي فرق بينهم، عندما كانت البلاد العربية تشـكل دولة أو دولاً عربية إسلامية. وفي العصـــر الحديث كانت الدول الغربية الاستعمارية هي البادئة بإيجاد الفروق وعوامل التمييز بين العرب والأكراد، سـواء باضـطلاعها بمهمة التنقيب عن المميزات التاريخية واللغوية والعرقية للأكراد، لتكوّن من ذلك منطلقاً للانقســـام في بلدان المنطقة، التي كانت هذه الدول تخطط لاسـتعمارها منذ القرن الماضي، وسـواء بتوجيهها للحكومات والقيادات العربية، بعد دخولها هـذه البلاد، كما فعلت في مناطق أخرى من العالم، وفي البلاد العربية بالذات، حيث حاولت نفس المحاولة مع البربر في شـــمال أفريقيا، وقبائل جنوب الســـودان. ولكن هذا لا يعني أن الاســـتعمار يســـتطيع أن يخلق ظاهرة تاريخية، فالظاهرة القومية هي من ظواهر العصـــور الحديثة، ودور الاســـتعمار يقتصـــــــر على استغلالها، ومحاولة الانحراف بها عن طريقها السوي، وتسخيرها لمصلحته". (ميشيل عفلق، في سبيل البعث – المسألة الكوردية والثورة العربية، ١٩٦٩م، ج٥، ص٣٧).

وعلى أي حال، فقد خططت الحكومة العراقية لإنشـاء مجمعات سـكنية، تمّ إنشـاؤها لاحقاً في مناطق عديدة؛ لتســـهيل مهمة الســـيطرة على الكورد عامة، والحركة الكوردية خاصـةً، ومنعهم من القيام بأي نشـاط قومي للحصـول على الحقوق السـياسـية للشـعب الكوردي في العراق. ومن جانب آخر، فإن القرى الكوردية الآنفة الذكر كانت دون شـــك مصـدراً لإسـناد واحتضـان الثوار الكورد، سـيما وأن قرية (بيزل)، والقرى المجاورة لها، كانت حاضـنة للأنشـطة المختلفة التي كانت تقوم بها الحركة الكوردية، كما أن موقع هذه القرية الحدودي كان يساعد الثوار الكورد في تنقلاتهم عبر الحدود العراقية – التركية.

وبخصوص موضوع بحثنا حول السيد عبدالحميد وعشيرته الريكان، فقد تم إسكانهم في عدة مجمعات سكنية، منها:

مجمع شيلادزي، الواقعة شـــرقيّ قضاء العمادية، والمطلة على نهر الزاب الكبير، ويحدها جبل لينكي من جهة الشمال، وهو امتداد لسلسلة جبل متينا باتجاه الشـرق.

مجمع سيريي، الذي بدوره يقع شـــرقي مجمع شيلادزي، في مدخل (كلي بالنده)، الذي كان يسمى في السابق (كلي أورمار).

مجمع ديرالوك، وهي ناحية تابعة لقضاء العمادية، وتقع إلى الشـــرق منها، في الطريق المؤدي إلى شيلادزي وسيريي وكلي بالنده.

مجمع باكيرات، وهذا المجمع يقع إلى الشـــمال من ناحية زاويتة، على الطريق الرئيس الذي يربط مدينة دهوك بمدينة العمادية، ضمن منطقة عشيرة الدوسكي.

ويبدو أن سكان قرية بيزلي قد انتشـروا في المجمعات الآنفة الذكر، ولكن صاحب السيرة بعد نقله من جامع الفضـل في بغداد إلى محافظة دهوك، اسـتقرت أســـــرته في مجمع باكيرات، مع أخوته، وأبناء عمومته.

وكان جد الســـيد عبدالحميد (الخليفة نبي) قد أخذ الطريقة القادرية من لدن شـــيوخ الطريقة القادرية في قرية (بريفكا)، ولا تسـعفنا المصادر في تحديد اسم الشيخ الذي سلم الطريقة إليه، ولكن والد الشـــيخ عبدالحميد: الخليفة عبد الخالق (١٩٠٥ – ١٩٨٢م)، كان قد أخذ الطريقة القادرية من يد الشـــيخ عبيدالله بن الشـــيخ نور محمد الدهوكي البريفكاني(١٨٨٥ – ١٩٥٤م)، وقد اختاره الشـــيخ عبيدالله خليفةً له في منطقة نيروه وريكان.

وكان لجد الشـــيخ عبدالحميد (الخليفة نبي)، وقريبه وزميله (الخليفة ســـعيد)، علاقات خاصة مع الشيخ أحمد البارزاني، شيخ بارزان وشيخ الطريقة النقشبندية في المنطقة، بحكم الانتماء إلى التصوف، كل حسب طريقته.

وتجدر الإشـارة إلى أن هناك علاقة قديمة بين والد عبدالحميد (الشـيخ عبد الخالق نبي) مع الأســـــرة البارزانية، وتحديداً شخص الزعيم الكوردي ملا مصطفى البارزاني (١٩٠٣ – ١٩٧٩م)، بحكم علاقات الجيرة والانتماء إلى التصـوف القادري والنقشـبندي. وكان الشـيخ عبدالخالق قد زار، بمعية قريبه (الخليفة نجم الدين)، الملا مصطفى البارزاني في بغداد، عام ١٩٥٨م، بعد عودته من الاتحاد السوفيتي.

عاش الســـيد عبد الحميد ســـنوات طفولته الأولى في قريته، وفي بداية مشـــواره، درس عبـدالحميـد القرآن الكريم والكتـب الأخرى التي اعتـاد طلاب العلم على دراســـتهـا في الحجرات العلمية (= المدارس المسـجدية)، مثل: فتح القريب في الفقه الشـافعي، والأربعين النووية في الحديث، ومتن الأجرومية في النحو، وكانت دراسته الأولية على يد كل من والده الشيخ عبد الخالق، وأخيه الأكبر الملا نوري (١٩٤٠ –٢٠٠٨م).

ومن جانب آخر، فإن الصـــــراع الذي عصف بالمنطقة إثر قيام الحركة الكوردية في شهر أيلول عام١٩٦١م، وما قبلها، جعل الكثير من أفراد عشـــيرة الريكان يدخلون إلى تركيا، بعد مهاجمة العديد من العشـــائر الكوردية الأخرى الموالية للحزب الديمقراطي الكوردســـتاني،

بقيادة الملا مصطفى البارزاني، لقراهم، بسبب خلافات عشائرية قديمة. وقد نشرت جريدة (ميلَيت Milliyet) التركية تقريراً للكاتب التركي (نجم الدين أونور / Nacmadin Onur)، حول تصـــريحات (كلحي آغا)، رئيس عشيرة الريكان، في ١٩٦١/٧/٢٧م، للصحافة التركية، جاء فيها: "أياً ما يقوله جمال باشـا، وما يقوله الشـعب، سـنفعله (= جمال جورسـل؛ قائد انقلاب ١٩٦٠م التركية، ورئيس الجمهورية التركية بعد ذلك)، السـبب الوحيد لهذا هو الحكومة العراقية. عشيرة البارزاني متحكمة في كل شيء بالمنطقة التي نتواجد فيها، وكل ما يريده ملا مصطفى (= البارزاني) يفعله. هاجمونا بقوة قوامها ٣ آلاف شخص. ضـربنا من أربعة جبهات. قتل منا ٦٠ شخص، وأُسـر ٢٠٠ شخص. وجدنا الحل في الهرب. إذا استمرت الحرب، فإن الجميع سـيهربون". ويسـتطرد قائلاً: "ما لم يتم القضـاء على عشـيرة البارزاني، ويموت الملا بـارزاني، لن يعود إلى العراق". ينظر: (دلشـاد م. صـالح بـابلا، موقف جريدةميلَيت Milliyet التركية من الحركة الكوردية وثورة أيلول في العراق(١٩٥٨-١٩٦٣)، ص١٠ -١١).

وينقل التقرير، على لسـان بعض اللاجئين من أفراد عشـيرة الريكان، أن الحرب بين العشائر قد اشتدت في العراق، وقتل في صفوفهم ١٨ شخصاً آخرون، ولم يبق من عشيرة كلحان (كلحي) آغا في العراق سـوى ١٠٠٠ شـخص، يقاتل منهم ١٥٠-٢٠٠ فقط قوات البارزانيين. كما أن هذه القوات أيضاً ستنسحب لنفاذ الذخيرة لديها. وأشار التقرير أيضاً إلى قرار كلحي آغا بأنه سيعود إلى العراق في حال عودة الاستقرار إليها، نظراً لوجود أموال وأراضي العشيرة فيها. ينظر: (دلشاد م. صالح بابلا، موقف جريدة ميلَيت Milliyet التركية من الحركة الكوردية وثورة أيلول في العراق ١٩٥٨-١٩٦٣، ص١٠ -١١).

واسـتناداً إلى ما تقدم، فقد دخل المئات من أفراد عشـيرة الريكان إلى الأراضي التركية، في شـهري حزيران وتموز عام١٩٦١م، بقيادة رئيس العشـيرة كلحي آغا الريكاني (المتوفى في ١٩٦١/١٢/٧م)، بعدها دخلوا إلى العراق من جديد، عن طريق قرية دشـتان الحدودية – كاني ماسي – جبل سـر العمادية – العمادية.

وبعد اشـتداد القتال بين الحركة الكوردية والجيش العراقي في سـنة ١٩٦٣م، والهجمات العنيفة التي شـنها الجيش العراقي، في أعقاب حكومة البعث الأولى في شـهر حزيران عام ١٩٦٣م، هاجر قسـم آخر من عشـيرة الريكان إلى تركيا، هرباً من جحيم القتال، في صـيف سنة ١٩٦٣م، وكان من ضمن اللاجئين: الملا نوري بن الخليفة عبدالخالق، مع أفراد أسـرته، فلحق به أخوه الأصـغر منه سـناً (عبدالحميد)، حيث دخلوا القرى الكوردية الملاصـقة للحدود التركية مقابل قرى عشـيرة الريكان، وبعد دخولهم إلى تركيا قامت الحكومة التركية

بإعادتهم إلى الأراضي العراقية من جديد، عن طريق المعبر الحدودي الواقع على نهر الهيزل، قبل إنشاء المعبر الحدودي في إبراهيم الخليل، حيث دخلوا منها إلى قرية بيدار المسيحية الكلدانية، التي كانت واقعة آنذاك على مسافة عدة كيلومترات غرب مدينة زاخو، والآن تقع ضمنها كإحدى محلاتها. وبعد عملية استقرار مؤقتة في بعض القرى الواقعة على طريق زاخو – الموصل، انتقلوا إلى الموصل، حيث استقروا هناك.

وفي الموصل كانت تنتظر السيد عبد الحميد مهام جديدة، وهي الدراسة لدى علماء الموصل، لتكملة دراسته التي بدأها - كما ذكرنا آنفاً - في مدرسة قريته بيزلي، الملحقة بمسجدها. وكما هو معروف، فإن مدينة الموصل مدينة عريقة، لها تاريخ حافل بكثرة مساجد وجوامعها ومدارسها العلمية، فضلاً عن العلماء والأدباء والكتاب الذين تخرجوا منها، فدرس على يد عدة علماء عرب وكورد، منهم: العالم الكبير الشيخ بشير الصقال(١٣٢٤-١٤٠٧هـ/ ١٩٠٦ – ١٩٨٦م)، والملا عثمان بن محمد الجبوري (١٣٢٧- ١٤٠٥هـ/ ١٩٠٩-١٩٨٤م)، والملا عيسى إسماعيل حسن الخوركي المزوري(١٣٢٢ -١٤٣٣هـ/ ١٩١٤ – ٢٠١٢م)، والشيخ حسن أحمد الآسيهي السليفاني، والملا نوري البيزلي الريكاني (١٣٥٢ـ١٤٢٨هـ/١٩٣٣-٢٠٠٨م)، علوم اللغة العربية والإسلام: النحو، والصرف، والعقائد، وأصول الفقه، والتفسير.

وكانت الإجازات العلمية تعطى للطلاب الذين يكملون المرحلة الدراسية، وتهيئهم عند ذلك كي يقوموا بالتدريس والخطابة والوعظ. فكان يجتمع لشهود تلك الإجازات علماء البلدة وأعيانها. وكانت الإجازات هذه تكتب بيد الشيخ أو الملا، يعترف فيها بتدريسه علوماً معينة للطالب المجاز على أساس الرواية التي أخذها عن أسلافه من العلماء. (محسن عبد الحميد، الآلوسي مفسراً، ص٣٦).

وبعد دراسة السيد عبد الحميد لعدة سنوات (دوازده عيلم - العلوم الاثنا عشر)، مُنح الإجازة العلمية من قبل الملا عثمان محمد الجبوري سنة١٩٦٨م، في حفل أقيم في مسجده الكائن في مدينة الموصل. وكان الشيخ عبدالحميد قد ألقى أول خطبة جمعة في مسجد (قضيب البان)، عام ١٩٦٦م، في الموصل، وبعدها تم تعيينه من قبل الشخصية الموصلية حجي سعدون في مسجده، الذي يحمل اسمه.

وفي السنوات ١٩٦٩- ١٩٧١م دخل المعهد الإسلامي في محلة (النبي شيث) في الموصل، تحت اسم المدرسة الأحمدية الدينية الوقفية، التابعة لرئاسة ديوان الأوقاف، وتخرج منها في الشهر الثامن من عام ١٩٧١م. بعدها انتقل إلى بغداد للدراسة في كلية الإمام الأعظم (= كلية الشريعة)، وبعد دراسة خمس سنوات (١٩٧١ – ١٩٧٢م/١٩٧٦- ١٩٧٧م)، حصل على شهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية. وكان من أقرانه في الكلية كل من: الشيخ

الدكتور علي محيي الدين القره داغي، الأمين العام الحالي للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والملا محمد بن الملا أحمد العقري، رئيس اتحاد علماء الدين الإسلامي السابق في كوردستان العراق، الملا مصطفى حسن الريكاني( المتوفى سنة ١٤٣٣هـ/٢٠٢٢م)، الملا مهدي الزيباري (المتوفى سنة١٤٢٣هـ/ ٢٠٢٠م)، وآخرون. وكان من أساتذته في الكلية كل من: الدكتور حمد عبيد الكبيسي، والدكتور أحمد ناجي القيسي، والدكتور أحمد عبيد الكبيسي، والدكتور هاشم جميل عبد الله القيسي، والدكتور عبد الله الجبوري، والدكتور حارث الضاري، والدكتور محمد رمضان عبد الله الكركوكي، والشيخ عبد اللطيف البرزنجي. ومن الأساتذة المصريين: الشيخ عبد الرحمن محمود، والدكتور عبد الفتاح بركة، والدكتور عبد المنعم الشافعي، والدكتور سيد ندا الأزهري.

وكان السيد عبدالحميد قد درس علوم اللغة العربية والفقه الشافعي على يد كل من العلامة عبدالكريم المدرس(١٩٠٥ –٢٠٠٥م)، في الحضرة الكيلانية في بغداد، ودرس العلوم الإسلامية على يد الملا عبدالمجيد ملا عبدالله ملا عبدالكريم (١٩٢٠ -١٩٩٤م)، وحاز منه على الإجازة العلمية الثانية، بعد إجازته الأولى في مدينة الموصل على يد الشيخ عثمان محمد الجبوري.

وتجدر الإشارة إلى أن السيد عبدالحميد درس علوم اللغة العربية من النحو والصرف والبلاغة، وغيرها، على يد العلامة الموصلي الشيخ بشير الصقال - رحمه الله -، وعلامة العراق عبدالكريم المدرس -رحمه الله- كما أسلفنا؛ وهذا ما جعله ملماً بعلوم اللغة العربية، ومتفوقاً على أقرانه في هذا المجال. وهذا لا يقلل من أستاذيته في المذهبين الفقهيين: الشافعي؛ بحكم دراسته في كوردستان والموصل وبغداد، والحنفي؛ بحكم عمله في الدراسة والوعظ والخطابة في كل من الموصل وبغداد، بحكم كون غالبية علمائها على المذهب الحنفي، الذي كان مذهب الدولة الرسمي أيام الدولة العثمانية حتى انتهاء حكمها على العراق عام١٩١٨م، وبداية الحكم الوطني من ١٩٢٠م لغاية سقوط بغداد بيد الاحتلال الأمريكي عام٢٠٠٣م.

وكان الشيخ عبدالحميد أثناء دراسته الجامعية، يلقي الخطب في (جامع الحيدرخانة) في بغداد. وبعد تخرجه تم نقله إلى (جامع الفضل) بصفة إمام وخطيب، وبقي فيه إلى عام ١٩٨٢م، حيث طلب نقله إلى مسقط رأسه في محافظة دهوك؛ إثر تعرّضه لضغوط عديدة من جانب وزارة الأوقاف العراقية آنذاك للإشادة بالرئيس العراقي السابق صدام حسين أثناء إلقاء خطب الجمعة، وخاصة والحرب العراقية – الإيرانية كانت في أوجها.

وفي سنة ١٩٧٨م قبل الشيخ عبد الحميد في قسم المخطوطات وتحقيق النصوص في كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية، وتخرج منها سنة ١٩٨٠م بحصوله على شهادة الدبلوم العالي، بإشـراف الأستاذ الدكتور صلاح الدين الناهي.

وكان نتاج ذلك هو تحقيقه لكتاب (أحكام الصـــغار)، للفقيه الحنفي محمد بن محمود بن حسين الأسـروشني (المتوفى سنة٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)، الذي يعد من أهم نتاجاته العلمية.

ومؤلف الكتاب هو محمد بن محمود بن حسين، مجد الدين الأســروشني: فقيه حنفي، نسبته إلى (أســروشنة) الواقعة شــرقي سمرقند. وأُسْــروشَنَة، أو أشــروسنة، أو ســروشنة، الاسم القديم لمنطقةٍ في ما وراء النهر، بين سمرقند ونهر سيحون، وقد تبقت الآن منها آثار بالقرب من (خجند) في (طاجيكستان). ويرى المستشـرق الروسي (فاسيلي بارتولد)(١٨٦٩ – ١٩٣٠م) أن الأطلال القائمة بالقرب من موضع يدعى (شهرستـان)، في الجنوب الغربـي من (أوراتبه)، تعـود إلى (أسـروشنـة).

وذكر اسم أســـــروشنة في القرون الماضية، وفي المصادر المختلفة، بأشكال مختلفة. وقد ذكرتها المصادر الفارسية القديمة بهذه الصورة، أو سـروشنة. ولكن أقدم مصدر عربي ذكرت فيه هذه المنطقة، استناداً إلى المصادر المتوفرة، هو كتاب (صورة الأرض) للخوارزمي، حيث ذكرها باسـم أُشـــــروسـنة. وبعد ذلك تكرر هذا الاسـم في المصـادر الجغرافية والتاريخية، وخاصـــة في القرون الأولى (البلاذري، ابن خرداذبه، ابن قدامة، الاصـــطخري، البتاني). وكان ياقوت الحموي قد أشـــار إلى موضـــعها في بلاد ما وراء النهر، دون أن يحدد موقعها، مثلما فعلت المصـادر التاريخية والجغرافية التي سـبقته، وكان القائد الإسـلامي المشـهور قتيبة بن مسلم الباهلي هو الذي فتحها سنة ٨٥هـ.

للأســـــروشني عدة مؤلفات منها: كتاب الفصول، وهو مخطوط في المعاملات، ضمّه ابن قاضي ســنماونة إلى كتاب(الفصـــول) للعمادي، وســـماهما (جامع الفصـــولين – مطبوع)، و(أحكام الصـــغار – مطبوع) في الفروع، و(الفتاوي – مخطوط) و(قرة العينين في إصـــلاح الدارين – مخطوط).

والكتاب يشمل كل ما يخص الصغار من أحكام؛ كالطهارة والعبادات، والأحوال الشخصية (النكاح، الرضاع، الميراث...)، والمعاملات والحدود وغيرها، وهو بهذا يعد موسوعة متكاملة تشمل الأحكام المتعلقة بالصغار. ولقد سبق المؤلف عصـره في تأليفه لهذه الموسوعة، التي سبقت القوانين والتشـريعات التي كتبت بعدها بقرون. ولقد أحسن الشيخ الاختيار عندما تولى تحقيق مخطوطة هذا الكتاب، ولإخراجه من رفوف المكتبات، ليقدمه كهدية ثمينة للعلماء والباحثين وطلبة العلم ورجال الشـريعة والقانون.

ونلخص هنا منهج الشـيخ، وجهوده، في تحقيق الكتاب، واعتمدنا في ذلك على ما كتبه الشيخ في مقدمة الكتاب:

١- جمع ست مخطوطات للكتاب، من مكتبات مختلفة.

٢- تحليل نصوص الكتاب، وبيان المسائل الغامضة فيه، وإضافة المصادر إلى المواضع التي لم يشر فيها المؤلف إلى المصدر.

٣- ترتيب النص، وتنقيطه بعلامات التنقيط.

٤- الفصل بين المسائل، ووضع عنوان لكل مسألة، لتسهيل الوصول إليها.

٥- المقابلة بين نسخ الكتاب، والإشارة إلى الاختلافات الموجودة بينها.

٦- تخريج الآيات القرآنية الواردة في الكتاب.

٧- تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب.

٨- تخريج النصوص المنقولة من المصادر، والتعريف بتلك المصادر.

٩- إضافة بعض المسائل المتعلقة بمواضيع الكتاب، وفات المؤلف ذكرها.

١٠- تعريف الأعلام الواردة في الكتاب.

ونظراً لقيمة الكتاب العلمية، وأهميته، فقد أوصت الجامعة المستنصـرية بطبعه على نفقتها. ولقد طبع بناءً على تلك التوصية في عام ١٩٨٢م، في أربعة مجلدات.

وبعد أن عانى الشـــيخ عبد الحميد من مضـــايقات قوى الأمن التابعة لحكومة حزب البعث، بسبب مواقفه المعارضة لسياساتهم، وعدم استجابته لطلباتهم بضـــرورة الدعاء للرئيس الأسبق صدام حسين، أثناء الحرب العراقية – الإيرانية؛ اضطر إلى مغادرة بغداد في عام ١٩٨٢م، وانتقل إلى محافظة دهوك، وبالتحديد أصـبح إماماً وخطيباً في جامع مصـيف (سوارتوكا)، الواقع شماليّ مدينة دهوك بحوالي ٢٥كم تقريباً

وفي عام ١٩٨٩م انتقل إلى مركز محافظة دهوك، وأصـــبح إماماً وخطيباً لجامع دهوك الكبير القديم، واستمر فيه لمدة ثلاثين سنة، أي حتى عام ٢٠١٩م.

يعد الشيخ عبدالحميد أحد مؤسسي كلية الشـــريعة والدراسات الإسلامية في دهوك سنة ١٩٩٢م، وابتدأ التدريس فيها، حيث نقل خدماته الوظيفية من وزارة الأوقاف والشـــؤون الإسلامية في إقليم كوردستان، إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. واستمر بالتدريس في قسم اللغة العربية في كلية التربية جامعة دهوك، فضلاً عن إشـــرافه على مكتبة الكلية. وبعد تأسـيس جامعة زاخو عام ٢٠١٠م، نقلت خدمات الشـيخ إلى قسـم اللغة العربية في كلية الآداب – جامعة زاخو. وبعد أن تأسـس قسـم الدراسـات الإسـلامية في فاكولتي العلوم الإنسانية – جامعة زاخو، نقل الشيخ إلى القسم المذكور، حسب تخصصه. إلى أن تقاعد من

الخدمة الجامعية في عام ٢٠١٤م، علماً بأنه كان مستمراً في الإمامة والخطابة تطوعاً، أثناء خدمته الجامعية.

ترأس لجنة الإفتاء في اتحاد علماء الدين الإسلامي - فرع دهوك لفترات طويلة، في أواخر التسعينيات من القرن العشرين وبداية الألفية الثانية. وكان سبق له أن شارك في المؤتمر الأول الذي عقده علماء الدين الإسلامي في كوردستان العراق في قصبة (كلاله)، مقر الزعيم الكوردي ملا مصطفى البارزاني في ٢١ شهر أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٠م، بمشاركة ٦٤٠ شخصية دينية علمية، والذي تمخض عنه تأسيس (اتحاد علماء الدين الإسلامي في كوردستان العراق).

لقد كان تأسيس اتحاد علماء الدين الإسلامي، كمؤسسة علمية ومهنية في كوردستان، خطوة مهمة في اتجاه ترسيخ دور علماء الإسلام في تعزيز مبادىء العقيدة والشريعة، ونشر ثقافة التعايش وحب الإنسانية، وفي توعية المواطنين في عموم مناطق ومدن وقرى كوردستان. وبموازاة ذلك أدى علماء الدين الإسلامي أدواراً مشهودة في مراحل النضال والثورة، وفي رفع مستوى الوعي الديني والوطني لدى الناس، والتعريف بالحقوق الشرعية، ورفض الظلم والاستبداد والطغيان.

وكان دوره يتلخص في الحفاظ على الهوية الإسلامية للشعب العراقي عامة، وللشعب الكوردي خاصةً، لأن الإسلام هو دين الغالبية العظمى لهذا الشعب، سيما وأن عدداً لا بأس به من كبار علماء الإسلام في بغداد كانوا من أصولٍ كورديةٍ، ولذا تبوأوا مناصب الإفتاء والقضاء فيها، أمثال: محمد فيضي الزهاوي(١٨٠٨-١٨٩٠م)، الذي استمرّ في منصب الإفتاء من سنة ١٨٥٦ لغاية وفاته سنة ١٨٩٠م، ونجله محمد سعيد الزهاوي (١٨٦٩-١٩٢١م)، الذي تولى منصب مفتي بغداد إلى وفاته، ونجله أمجد الزهاوي (١٨٨٢-١٩٦٧م)، الذي كان مفتي العراق حتى وفاته، ومحمد القزلجي (١٨٩٥-١٩٥٩م)، الذي كان المرجع الديني لعلماء أهل السنة والجماعة في بغداد، والمدرس الأول للمدرسة القادرية في الحضرة الكيلانية، وهو من المؤسسين لجمعية الهداية الإسلامية في بغداد، وكان عضواً في جمعية إنقاذ فلسطين ورئيساً لجمعية الهدي المحمدي بالأعظمية، وكان سبق له أن زار جامعة الازهر والتقى بالعلامة محمد رشيد رضا، صاحب تفسير المنار، والشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وغيرهم من كبار العلماء في مصر، الذين أشادوا بفضلهِ وعلمهِ، وأخيراً وليس آخراً العلامة عبدالكريم المدرس (١٩٠٥ - ٢٠٠٥م) مفتي العراق، وصاحب التصانيف الكثيرة في اللغات الكوردية والعربية والفارسية، ومدرس الحضرة الكيلانية، وغيرهم.

وغني عن القول أن الإسلام - طيلة العهد الملكي في العراق، بعد سقوط الدولة العثمانية - كان يشكل المرجعية العليا للشعبين العربي والكوردي في العراق على حدٍ سواء، ولكن قيام ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م، وبروز دور الحزب الشيوعي العراقي بشكل كبير، مع غيره من الأحزاب الاشتراكية والقومية العربية، وما رافق ذلك من تأسيس الأحزاب الكوردية المختلفة؛ من ماركسية وقومية وعلمانية، والخلاف الذي جرى بين حكومة الزعيم الركن عبدالكريم قاسم؛ رئيس الوزراء العراقي في حقبة ما بعد النظام الملكي، وقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني، بقيادة الزعيم الكوردي الملا مصطفى البارزاني، في سنوات ١٩٥٩ – ١٩٦١م، لأسباب كثيرة لا مجال لبحثها الآن، وانطلاق الحركة الكوردية في ١١ أيلول/سبتمبر عام ١٩٦١م، للمطالبة بالحقوق السياسية للكورد؛ أسهم كل ذلك في انحسار المرجعية الإسلامية، وبالتالي فإن الأحزاب القومية والعلمانية أصبحت بمثابة مرجعية للشعبين الكوردي والعربي في العراق، وإلى حد كتابة هذه الأسطر.

لذا، فإن العبء أصبح كبيراً على علماء الإسلام في التصدي للموجات الإلحادية والعلمانية التي غزت المجتمعات الإسلامية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن المهمات اليومية في إقامة الصلاة وإلقاء المواعظ المناسبة لكافة شؤون الحياة، وإلقاء خطب الجمعة، والدروس في المدارس المسجدية الملحقة بالجوامع، وإلقاء المحاضرات في كليات الشريعة والدراسات الإسلامية، والتصدّي للفكر التغريبي بنشر البحوث والمقالات المختلفة.

ومن هذا المنطلق، فقد كان للشيخ عبد الحميد العديد من الصولات والجولات في هذا المجال، فقد استغل وقته في بغداد، في إلقاء العديد من الخطب والمحاضرات والمواعظ في صوت الإذاعة الكوردية في بغداد في الحقبة ما بين ١٩٧٨ الى ١٩٨٥م، عندما كان متواجداً كإمام وخطيب في (جامع الفضل) في بغداد، وحتى بعد انتقاله كإمام وخطيب إلى محافظة دهوك، جنباً إلى جنب مع الشيخ عبدالحميد الأتروشي قاضي بغداد الأول (١٩٠٤ - ؟)، والشيخ عمر مولود الديبكي (١٩١٩ – ٢٠٠٢م)، والملا مصطفى حسن الريكاني، والأستاذ أبو زيد السندي، حيث خدم الشريعة الإسلامية باللغة الكوردية على أتم ما يكون. ومن ضمن تلك المواعظ عشرات الحلقات من تفسيره (الحياة مع القرآن). وسمى الشيخ تفسيره (**ژیانا دگەل قورئانا پیروز**) أي: الحياة مع القرآن الكريم، ويمكن تلخيص منهجه في تفسيره للقرآن الحكيم بالنقاط الآتية:

١- يبيّن الشـيخ في مقدمة التفسـير، سـبب قيامه بهذه المهمة الشـاقة، فيقول: أردت أنْ أقدم خدمة لبني جلدتي المحبين للإسـلام، وأن أكون عوناً لهم على فهم معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ.

٢- بدأ الشـيخ تفسـيره بذكر بعض التعاريف المهمة المتعلقة بالتفسـير، وبيان الفرق بين التفسير والتأويل، وشـروط المفسر، ومن ثَمَّ بيان فضل القرآن الكريم، وفضل تفسيره.

٣- يبدأ الشيخ تفسير السورة ببيان مكيتها أو مدنيتها، ثم يتطرّق إلى بيان فضل السورة، فمثلاً يشـير إلى مكية سـورة الفاتحة، ويتجنب الخوض في ذكر الآراء المرجوحة التي تقول بأنها مدنية، ثم يذكر بعض الأحاديث عن فضـلها، مثل حديث عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: [بينما جبريل -عليه السلام- قاعد عند النبي – صلى الله عليه وسلم – سـمع نَقِيضَـاً من فوقه، فرفع رأسـه، فقال: هذا باب من السـماء فُتِحَ اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم. فنزل منه مَلَكٌ، فقال: هـذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم. فسـلم وقال: أبشـر بنُورين أُوتِيْتَهُما لم يُؤتهما نَبِيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخَوَاتِيمُ سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أُعْطِيتَهُ]. رواه مسلم في صحيحه.

٤- يذكر الشيخ الأسماء الأخرى لسورة الفاتحة، وهي: أم الكتاب، أم القرآن، السبع المثاني، الصلاة، الشافية، الكافية، الواقية.

٥- يتطرق إلى ذكر المسائل الفقهية التي تشير إليها الآيات، ففي سورة الفاتحة يبين حكم قراءة سـورة الفاتحة في الصـلاة. وفي آيات الحج والصـوم في (سـورة البقرة) يذكر أحكام الحج والصوم بشيء من التفصيل.

٦- يذكر سبب نزول الآية أحياناً، ولا سيما إذا كان ذلك ضـرورياً، مثلاً في قوله تعالى: {إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَـعَائِرِ اللَّهِ...} البقرة: ١٥٨، ويذكر الشـيخ رواية عاصـم بن سـليمان، قال: سـألت أنسـاً عن الصـفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...}.

٧- القارئ لتفسـير الشـيخ يرى أنّه قد بذل جهداً كبيراً، ولا سـيما في زمن كانت القراءة والكتابة باللغة الكوردية والاهتمام بها ضعيفاً إلى أبعد الحدود.

٨- يركز الشيخ في تفسيره على الجانب الدعوي والتربوي، ويرد على المشككين والمغرضين من أعداء الدين.

٩- سألت الشيخ عن التفاسير التي اعتمد عليها في تفسيره، فكانت إجابته: استفدت من الكثير من التفاسـير، ولكن الاعتماد الأكبر كان على تفسـير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي (المتوفى سنة ٦٧١هـ)، وتفسير (القرآن العظيم) لابن كثير (المتوفى سنة٧٧٤هـ)،

و(التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي (المتوفى سنة٦٠٦هـ)، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب (المتوفى سنة١٩٦٦م).

١٠- هناك بعض الأخطاء الإملائية البسيطة، غير المؤثرة، في تفسير الشيخ، ومن السهل تصحيحها.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ للشيخ، فضلاً عن تفسيره، كتابات أخرى، منها تحقيقه لكتاب (أحكام الصغار) للأسروشني، كما أسلفنا القول، و(عناصر القوة في الإسلام) (= عبارة عن خطب منبرية).

**مواقف الشيخ عبد الحميد:**

للشيخ عبدالحميد مواقف كثيرة في الدفاع عن المظلومين ونصرة قضاياهم، فعلى سبيل المثال كانت له مواقف مشهودة في التصدّي لمخططات النظام العراقي السابق، في محاولته القضاء ليس على الحركة الكوردية فحسب، بل وأد كل تحرك أو صوت كوردي معارض لمخططاتهم الجهنمية في ترويض الكورد كشعب، بحجة تمرده وتصديه للسلطة العراقية، في المرحلة الأولى. وفي المرحلة الثانية، اتهامهم الحركة الكوردية بدعم الإيرانيين، وجيشهم، وميليشياتهم، في محاولة غزو الأراضي العراقية، أثناء سنوات الحرب العراقية – الإيرانية (١٩٨٠ – ١٩٨٨م).

كان للشيخ عبد الحميد مواقف واضحة وصريحة في عدم الاستجابة لمطالب الجهات الأمنية في محافظة بغداد، أثناء إمامته وخطابته في جامع الفضل في وسط بغداد، وتم استدعاؤه مرتين من قبل مديرية الأمن العامة بشأن الدعاء للرئيس العراقي آنذاك، وعلى أيّ حال فإن الشيخ لم يستجب لهذه المطالب.

وفي السياق نفسه، فقد تم استدعاء الشيخ إلى إحدى الجهات الأمنية في بغداد مرة ثالثة، بحجة أنه يحمل جريدة (طريق الشعب)، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي العراقي، وكان الشيخ في قرارة نفسه يغلف الكتب الإسلامية الممنوعة وغير المرغوبة عند البعثيين بالجرائد، إخفاءً لها، ولم ينتبه إلى كونها تمثل جهة معارضة للسلطة القائمة آنذاك؛ لذلك فبعد أن زادت الضغوط عليه، وهو في مكان بعيد في بغداد؛ لذا قرر في نهاية الأمر حسم الأمر بنقل خدماته إلى مسقط رأسه في محافظة دهوك، وبالتحديد إلى جامع مصيف سواره توكا (تبعد زهاء ٢٥ كم شمال مركز مدينة دهوك)؛ للتخفيف من وطأة تلك الضغوط، وتمت الإشارة إلى ذلك آنفاً.

وبعد الانتقال إلى محافظة دهوك، فإن مواقف الشيخ لم تتغير، وإنما زادت صلابةً، لأنه رأى بأمّ عينيه ما يعانيه أبناء قومه وعشيرته من تدمير القرى، وتهجير وإسكان أهاليها في

مجمعات قسـرية، وكان الشيخ قد استقر في إحداها مع أهله وأبناء عمومته، وهو مجمع (باكيرات)، الواقع على بعد ٢٠ كم شمالي مركز مدينة دهوك.

وقد تعرّض الشـيخ، وإخوانه وأبناء عمومته، إلى ضـغوط كبيرة من قبل منتسـبي الأجهزة الحزبية والأمنية، لثني مواقفهم في الدعاء للرئيس العراقي، وتلبية رغباتهم في الطلب من سـكنة مجمع باكيرات الالتحاق بمعسـكرات الجيش الشـعبي وألوية المهمات الخاصـة، أو الدخول إلى منازل المواطنين بدون اسـتئذان، بحجة المسـح الأمني والسـكاني، ولكن وقوف الشـيخ عبدالحميد، وأخيه العالم الرباني المشـهور ملا نوري (المتوفى سـنة ٢٠٠٨م)، أحبط هذه المخططات.

فعلى سـبيل المثال، عندما قتل وزير الدفاع العراقي: عدنان خيرالله طلفاح، في حادث طائرة الهيليكوبتر في١٩٨٩/٥/٤م، تفوه شخص من عشيرة الريكان بكلمات معبرة عن الظلم الواقع على الشـعب، في جامع باكيرات، يفهم منها أنه انتقاص من المقتول. ونقل أحد الوشـاة، من وعاظ السـلاطين، هذه المعلومة إلى منظمة حزب البعث في مجمع باكيرات، ونسـبها إلى الملا نوري (أخا الشـيخ)، ظلماً وزوراً، فتم اسـتدعاء ملا نوري على الفور إلى الفرقة الحزبية في ناحية مانكيش، الواقعة على بعد حوالي ٥٠ كم شـمال غرب مدينة دهوك، للتحقيق معه، دون النظر إلى مركزه الديني كإمام وخطيب جامع مجمع باكيرات، أو سنّه. لذلك رافق الشيخ عبد الحميد أخاه إلى المكان المطلوب، وبعد تحقيق قصير، تمكن الشيخ بأسلوبه الراقي، وهيبته، من إنقاذ أخيه من براثنهم.

وفي المرة الثانية، عندما مات الأمين العام ومؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي (ميشيل عفلق) في ١٩٨٩/٦/٢٣م، وكان مسـيحياً وفق مذهب الروم الأرثوذوكس، ومن أهالي مدينة دمشـق، تم الإعلان في الإذاعة العراقية رسـمياً بأنه قد أسـلم!، وتم إجراء مراسـيم صـلاة الجنازة الإسـلامية عليه من قبل أحد أزلام السـلطة البعثية آنذاك (وعاظ السـلاطين). وكان عبدالحميد الملا نوري، قد تفوه للمرة الثانية بكلمات أمام بعض الناس، مضـمونها بأن عفلق قد مات على نصـرانيته ولم يسـلم، ونقل بعض عملاء حزب البعث من وعاظ السـلاطين هذه المعلومات إلى الأجهزة الحزبية والأمنية، فتم اسـتدعاء الملا نوري، والشـيخ عبد الحميد، ونجله الكبير (عبدالمنعم)، الطالب في المرحلة الإعدادية، بواسـطة المنظمة الحزبية في مجمع باكيرات، إلى الفرقة الحزبية في ناحية مانكيش، التابعة لقضـاء مركز دهوك، للتحقيق معه.

كما لا يمكن نسـيان موقف عقيلته (والدة عبدالمنعم)، في منع أزلام البعث من الدخول إلى منزلهم، أثناء عدم تواجد الشـيخ في البيت. ولكن هيبة الشـيخ، ووقاره، وإلمامه الكامل

باللغة العربية الفصـــحى، وقدرته على الإقناع، مكنته من التخلص من هذه المكيدة، وتم الاعتذار له من قبل أمين سـر الفرقة الحزبية.

وعندما جرت عمليات ما يسمى بالأنفال في كوردستان العراق، وكان آخرها أنفال منطقة بهدينان، في محافظة دهوك، في ١٩٨٨/٨/٢٥، واســتمرت إلى ١٩٨٨/٩/٦، وكان يطلق عليها الأنفال الثامنة، وهي خاتمتها، حيث تم سوق الآلاف إلى حتفهم في صحارى جنوب العراق، ظلماً وزوراً، وبدون وجه حق، مثلهم في ذلك كمثل أصــحاب الأخدود، {قُتِلَ أَصْــحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)} سورة البروج.

وبخصـــوص منطقة بهدينان، فقد تم نقل الآلاف من الأبرياء؛ من النســـاء والشـــيوخ والأطفال، إلى منطقة بحركي، الواقعة شمال غرب مدينة أربيل، حيث وضع آلاف من الناس في منطقة سهلية مملوءة بالأشواك والأحجار، لا تتوفر فيها وسائل العيش (صحراء قاحلة)، ولا حتى ظلٍ يقيهم حر الشـمس اللاهبة، فضـلاً عن عدم توفر المياه والخيم وما إلى ذلك؛ حيث تم وضعهم في معسكرات مسيجة بالأسلاك الشائكة حتى ينتظروا مصيرهم المعروف، دون أي وازع من دين أو إنسانية أو ضمير. ولكن وقوف أهالي أربيل الأوفياء بكل شهامة وكرامة، من خلال دعمهم اللامحدود لكل متطلبات الحياة التي لا تخطر على البال؛ حال دون وقوع الكارثة، وتم إنقاذ حياة هؤلاء البؤساء، مع ما رافق ذلك من تفشـــي الأوبئة والأمراض المعدية الســـارية، التي قضـــت على حياة المئات من الأطفال والرضـــع وحتى الشـيوخ. لذلك هبّ علماء الدين الإسـلامي في منطقة دهوك، ومن ضـمنهم، وعلى رأسـهم: الشيخ عبدالحميد، وإخوانه: الملا محمد شـــريف محمد طاهر البانصوري الدوسكي إمام وخطيب جامع صـدام حسـين (= آزادي حالياً)، والملا رشـيد عثمان سـكيري إمام وخطيب الجامع الكبير في العمادية، والملا مصطفى حسن الريكاني خطيب جامع الإمام حمزة، والملا علي نبي كرمافي الدوســكي إمام وخطيب جامع كريباصي، والملا زاهد عابد الكوهرزي إمام وخطيب جامع الشــهداء، مع زملائهم الآخرين من العلماء، وغيرهم من الشــخصــيات في مختلف طبقات المجتمع، لنصـــرة هؤلاء المظلومين من بني دينهم وقومهم، والطلب من الناس بمساعدتهم بكل ما يتوفر لديهم من متطلبات الحياة المختلفة؛ من غذاء وماء ودواء وخيم وغيرها من وســائل الســكن، حتى يمكن إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح قبل كل شيء.

ومن جهة أخرى، فقد زار الشـيخ - برفقة الملا محمد شـــريف الدوسـكي، والملا رشـيد الســـكيري - قيادة مكتب تنظيم الشـــمال، العائد لحزب البعث في كركوك، للطلب من

مسؤوله (حسن العامري) بجمع شمل العوائل التي تفرق أفرادها ما بين معسكر بحركي، ومعسكرات الاعتقال الأخرى في قلعة مفرق دهوك، والقلاع الأخرى الواقعة في مدن وقصبات منطقة بهدينان. ويبدو أن النجاح كان مصير خطوة علماء الدين الإسلامي المذكورين، رغم ما رافق هذا الاقتراح أو الالتماس من خطورة على حياتهم، بسبب اتهامهم بدعم الاتجاهات المعارضة للسلطة آنذاك، في إشارة إلى ثوار ومؤازري الحركة الكوردية.

ومن مواقف الشيخ الجديرة بالذكر، عدم رغبته في الانتماء إلى الأحزاب، ولا سيما حزب البعث، وكان يتعاون ويتعامل مع جميع الأحزاب في سبيل المصلحة العامة. وانتمى الشيخ لمدة سنتين إلى (الحركة الإسلامية في كوردستان العراق)، في نهاية سنة ١٩٩١م، وكان هذا الانتماء عائداً إلى العلاقة القوية التي كانت تجمع بينه وبين بعض العلماء من قادة الحركة، أمثال: الشيخ عثمان بن عبدالعزيز، مرشد الحركة، وشقيقه: علي بن عبدالعزيز، نائب المرشد. ودفعت هذه العلاقات قيادة الحركة لترشيحه لمجلس شورى قيادة الحركة، رغم عدم تواجده في كوردستان آنذاك (بسبب انشغاله في رحلة الحج، في شهري أيار وحزيران عام١٩٩١م)، وعمل مع الحركة الإسلامية إلى أن حدثت بعض المشاكل بين الحركة الإسلامية والاتحاد الوطني الكوردستاني، تطور إلى قتال بين الجانبين في ١٩٩٣/١٢/٣م؛ ولكن هذا القتال المؤسف بين أبناء الشعب الواحد، كان له تأثير سلبي في وجدان الشيخ، الذي كان لا يتصور حدوث هذا الأمر الجلل، وسقوط العشرات من الضحايا بين الجانبين، وحدوث تجاوزات خطيرة على حرمات بعض الضحايا.

ودفعت هذه الأحداث المؤسفة في منطقة (بيتواتة)، التابعة لمحافظة السليمانية (مقر قيادة الحركة الإسلامية، آنذاك)، ولكي لا تنتقل هذه الأحداث إلى منطقة دهوك، ذات الصبغة المحافظة، دفعت الشيخ إلى الابتعاد عن العمل التنظيمي، وركَّز أكثر على العمل العلمي والدعوي، من خلال التدريس في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، التي تأسست في هذه الحقبة، عام ١٩٩٢م، فضلاً عن خطب الجمعة والمحاضرات والمواعظ المختلفة بعد الصلوات. وكان لهذه الأحداث المؤسفة، التي لم يكن لها أي مبرر معقول يستحق كل هذه التضحيات، تأثير على مواقف الشيخ، لا سيما وأن الكورد قد خرجوا للتو من مآسي حلبجة والأنفال وغيرها؛ كل هذه التداعيات والنتائج أوصلت الشيخ عبدالحميد إلى قناعة أن الموقف الأمثل هو استقلال عالم الدين، مما يجعله مقبولاً من قبل الجميع، وأكثر تأثيراً في الآخرين.

وكان صاحب هذا البحث قد زار بمعية الشيخ عبدالحميد الديار المقدسة، حيث وجه الديوان الملكي السعودي الدعوة إلى (الحركة الإسلامية في كوردستان)، وبعض رؤساء

العشائر الكوردية، برئاسة الشيخ حسين آغا السورجي، وشخصيات مستقلة (الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد صديق البارزاني)، ابن عم السيد مسعود البارزاني، لزيارة المملكة العربية السعودية بقصد الحج. وفعلاً ففي حوالي الثلاثين من شهر أيار/ مايس عام ١٩٩٢م، زار حوالي (٥٠) شخصاً من كوردستان العراق تركيا، ومن هناك أقلّت أعضاء الوفد طائرة سعودية خاصة إلى مطار جدة الدولي، بعدها انتقل أعضاء الوفد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

وفي الأيام التي سبقت شعائر الحج، زرت برفقة الشيخ عبد الحميد، وأعضاء الوفد، سماحة المفتي العام للمملكة العربية السعودية الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز في مقر إقامته في مسجده في منطقة العزيزية في مكة المكرمة، بعدها زرنا سماحة العلامة الشيخ محمد صالح العثيمين، وبعد تبادل كلمات المجاملة، سأل الشيخ عن الكورد وكوردستان وأحوالهم، فرد الشيخ عبدالحميد، نيابة عن أعضاء الوفد الكوردي، وتطرق إلى بيان أحوال الشعب الكوردي، وما كان يعانيه من ظلم وإجحاف بحقه من قبل حكومة صدام حسين، وغيرها من الحكومات، وأن الكورد يطالبون بحقوقهم الطبيعية التي أقرها لهم الإسلام لا غير. وعندما سأل الشيخ ابن عثيمين عن اللغة الكوردية وأصلها، قام صاحب هذه الأسطر بالإجابة على سؤاله، بالتطرق إلى بيان الفرق بين اللغة العربية،؛ لغة القرآن الكريم، التي هي من فصيلة اللغات السامية، وأن اللغة الكوردية هي من قسم اللغات الهندو – إيرانية التي تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندو - الأوروبية، وأن القاسم المشترك الذي يجمع بين الشعبين العربي والكوردي هو الإسلام والتاريخ المشترك والجيرة، وأن الكورد – بحمد الله – شعب مسلم يفتخر بانتمائه الإسلامي؛ وأنه طالما دافع ونافح عن الإسلام في وجه مخططات أعدائه من الغزاة والمارقين.

وكان أعضاء الوفد برئاسة الشيخ علي بن عبدالعزيز، قد زاروا عدداً من الشخصيات السعودية وغير السعودية المتواجدين في المملكة، لبيان أحوال الشعب الكوردي وما يلاقيه من شظف العيش، وأن على المسلمين مساندته للوقوف على قدميه. وتطرق الشيوخ: علي بن عبدالعزيز، وعبداللطيف البرزنجي، والشيخ عبدالحميد الريكاني، إلى عدم التفرقة بين الشعوب الإسلامية من ناحية الدعم والإسناد، ففي حين تتم الإشارة إلى الشعوب الإسلامية المضطهدة في كل من كشمير، والفليبين، والشيشان، وغيرها، لا يتطرق الإعلام الإسلامي، ولا المؤتمرات الإسلامية الرسمية، ولا الشعبية، البتة إلى الشعب الكوردي.

وفي اليوم الأول من عيد الأضحى المبارك، استقبل الملك فهد بن عبدالعزيز رئيس الوفد الكوردي الشيخ علي بن عبدالعزيز، مع غيره من رؤساء الوفود الإسلامية، في حين زارنا في

مقر إقامتنا في مشعر مِنى صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز لتهنئتنا بمناسبة العيد.

وبعد انتهاء شعائر الحج زار أعضاء الوفد المدينة المنورة للصلاة في المسجد النبوي وزيارة قبر الرسول محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام -، وبعد انتهاء الزيارة في حوالي السابع عشـــر من شهر حزيران عام ١٩٩٢م، أقلت الوفد طائرة خاصة من مطار المدينة المنورة إلى مطار أنقرة الدولي، تمهيداً للعودة إلى كوردســـتان، في حين تخلف من أعضـــاء الوفد ثلاث شخصيات، وهم كل من: الشيخ علي بن عبدالعزيز، والشيخ عبداللطيف البرزنجي، والشيخ عبدالحميد البيزلي الريكاني، حيث تم نقلهم إلى الرياض لإلقاء الخطب والمواعظ في مساجد وجوامع مدينة الرياض حول معاناة الشـعب الكوردي وظروفه المعيشـية الصـعبة، تمهيداً لدعمه.

وبعد تقاعد الشيخ عبدالحميد عن التدريس في (جامعة زاخو)، سنة ٢٠١٤م، استمر في إلقاء الخطب وإمامة المسلمين في الصلاة في جامع دهوك الكبير حتى سنة ٢٠١٩م، ولكن الشيخوخة والمرض جعلتاه لا يستطيع المضي في ذلك، إذ لم يلبث أن أصيب في بداية شهر تموز عام ٢٠٢١م بجلطة دماغية، ورغم جهد الأطباء وإجراء عملية جراحية عاجلة له، فإن القدر لم يمهله طويلاً، حيث فارق الحياة على إثرها في ٢٠٢١/٧/٢٧. وهكذا رحل الشيخ بعد حياة حافلة بالعطاء والتقوى والنشاط الإسلامي العلمي والدعوي والإرشادي.. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه راجعون❐

# قراءة في كتاب

| | |
|---|---|
| - قراءات في كتب إسلامية | د. عماد الدين خليل |

# قراءات في كتب إسلامية

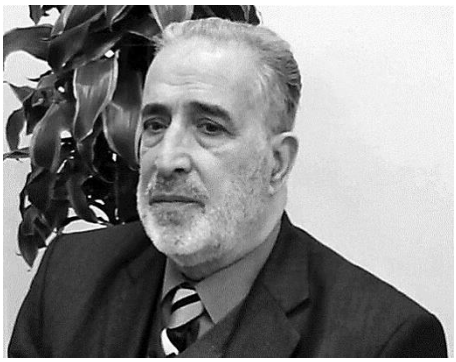

**أ.د. عماد الدين خليل**

**✍زاد الذاكرين والذاكرات، للأستاذ نكتل يونس كشمولة:**

يعرّف المؤلف (ذِكْر الله) بأنه "ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان، بل هو ذكر بالجنان"، وأنه "إن لم يرتعش له الوجدان، وتهتز له أوتار القلب، وتعش به النفس... إن لم يكن مقروناً بالخشوع والخضوع والتقوى... فلن يكون إلاّ أصواتاً لا معنى لها، وحركات لا فائدة منها. إنما الذكر هو التوجّه إلى الله بكنه الهمة والانقطاع عمن سواه، كي يحضر القلب حيّاً مع الربّ، خالصاً من كل شاغل... ولا يتم إلاّ باستحضار جلال الله، وعظمته، والحياء منه، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه... حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان، ويتصل بمصدره الأصيل".

وهو تعريف دقيق، مرسوم بعناية تغني عن كل لجاجة أو جدل. ولسوف يجد القارئ نفسه - وهو يتعامل مع الكتاب - إزاء منظومة من الضوابط المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، تجعل النشاط الروحي للمسلم يتدفق في قنواته الصحيحة بعيداً عن الشطط والانحراف.

وبالتالي، فإن معطيات الكتاب ستصبّ - بشكل من الأشكال - في سياق التراث الروحي ـ الوجداني للإسلام، وستلتقي مع النشاط (الصوفي)، ليس على سبيل الاتّباع الذي يتمرد على

الضوابط والمعايير، وإنما على سبيل الدعوة لجعل النشاط الصوفي نفسه يأتمر بكتاب الله وسنة رسوله - عليه أفضل الصلاة والسلام -، ويتحقّق بالانسجام والتوافق مع مطالبهما، ويتأبّى - بالتالي - على أية محاولة تسعى لأن تندفع به ذات اليمين أو ذات الشمال.

وقد يفسّر هذا لجوء المؤلف حتى إلى (ابن القيّم الجوزية) يستمدّ منه التعاليم، تماماً كما فعل الأخ الشيخ (فيضي الفيضي) في بحثٍ له عن ابن تيمية وتوجّهاته الصوفية (!!)، فيما قد يدهش له من يرى في الرجلين - رحمهما الله- أعمدة ما اصطلح عليه بالفكر السلفي الذي يرفض التصوّف ويدينه.

والحقّ أنه ليس ثمة خط فاصل بين السلفية والتصوّف الحق المنضبط بمعايير الكتاب والسنّة.. ها هنا حيث يصير قطبان كابن تيمية وابن القيّم معلّمَيْن للزهد والتصوّف والإيغال في مراقي الروح، وحيث يصير إمام كالغزالي، ومتصوّف أستاذ كالكيلاني، سلفيين من طراز أوّل، يعلّمان الناس كيف يكون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا شيء قبلهما، ومعهما، وبعدهما - الهادي والدليل في رحلة الحياة الدنيا ودروبها المتشعبّة، وفي التعامل مع مفرداتها وتفاصيلها التي ما لها من نفاد.. وكيف تكون (لا إله إلا الله) خفقة للفؤاد، وحياة الروح!

لقد آن الأوان، كرة أخرى، لتحقيق الوئام في سياقات الأنشطة الإسلامية المخلصة التي تبتغي وجه الله وحده، فلا يميل بها هوى أو جوْر.. تتجاوز الجدل العقيم.. تهدم الجدران الفاصلة بين الأصوات التي تنبض بالتوحيد المطلق، وتمضي قدماً لتحقيق كلمة الله في القلب والعقل والوجدان.

إنها - كلّها - إذا أردنا الحق، روافد من الماء الفرات، تفترق هنا وهناك.. تتدفق تياراتها بإيقاع خاص، كلّ يحمل طعمه وعذوبته المتميزة، لكنها جميعاً تصبّ في البحر الواحد.. تؤول إلى الهدف الواحد.. وتصير ممرّاً إلى قاعدة هذا الدين ومرتكزه: شهادة (لا إله إلا الله)، هذه التي يسميها (غارودي) التأسيس الأكبر والأخطر لهذا الدين.. هذه الشهادة التي تستطيع - إذا أحسن التحقّق بها - أن تنقل الجبال عن مواضعها!

والكتاب ينتمي - بشكل من الأشكال - إلى ما اصطلح عليه بأدب الرقائق، الذي يمثل نمطاً من الإبداع الأدبي يستهدف ترقيق الإحساس الإيماني، وجعله ينبض بالوجد والمحبة الإلهية لكل الخلائق والظواهر والموجودات والأشياء، متوسّلاً إلى ذلك بالتعابير والمفردات العذبة، مستخدماً تقنيّات البلاغة العربية الخصبة، محاولاً اعتماد: القصة القصيرة، والموعظة الحسنة، والحدث المؤثّر، والخبرة الحيوية، والواقعة التاريخية المركّزة، والحكمة المأثورة، لإغناء نسيجه، وجعل كلماته قديرة - فعلاً - على تحقيق هدفها المنشود: شفافية

الروح، ووهج الوجدان الإيماني، قبالة كثافة المادة، والتكاثر بالأشـياء التي تحاصر الإنسـان، وظلمات الليل البهيم الذي يفترس عالماً لا إيمان فيه!

المنهج الذي يعتمده الكتاب يغطي مفردات الذكر كافة، ويتابعها في كل مكان: في الكتاب والسـنة وكتب القدماء ومعاجم اللغويين، وهو يخصّص مقاطع لأثر الذكر في حياة المؤمن، وشفاء النفس، وإصلاح القلب، ويتحدث عن أساليب الذكر في تفاصيله الإجرائية، ودور المرشـد ، أو (المعلّم)، في توجيه أنشـطته.. موثقاً ذلك كله بمعطيات القرآن والسـنة وكتب القدماء ومعاجمهم..

والعنوان يحمل دلالته ولا ريب.. إنه زادٌ للذاكرين والذاكرات.. فهو خطاب للمرأة، كما هو للرجل.. سـواء بسـواء.. فليس ثمة في ثوابت التصوّر الإسـلامي فئة أعلى، وفئة أدنى.. في الخطاب الإلهي الموجّه لبني آدم، يصير الكل سواء..

وحجم الكتاب مناسب.. وضروري.. إنهم في الغرب يسمّونه (كتاب الجيب).. يضعه المرء في جيبه حيثما سـار.. لكي يقرأ فيه كلّما أتيحت له فرصـة للقراءة، في زمن الضـــرورات الضـــاغطة، والوقت الشـــحيح.. من ثم، فإن كتباً كهذه ســـتكون أكثر رواجاً.. ولقد جرّبها المؤلف مع كتابه السابق (دعاء المضطرين) فنفذ من السوق في أسابيع قلائل، وأعيد طبعه مرة ومرتين وثلاثاً..

ويزيد الكتاب قيمة أن يلحق الأخ المؤلف به، لأوّل مرة، مخطوطة موجزة بعنوان (بشائر الخيرات)، منسوبة للشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله - تتضّمن منظومة من الصلوات والأذكار، يبدأ كل مقطع منها بالصـلاة والسـلام على سـيدنا محمد - عليه أفضـل الصـلاة والسلام -، الذي جاء يحمل (البشـــرى) للمؤمنين، الأوّابين، المخلصين، الخاشعين، الصابرين، المتقّين، المخبتين، الكاظمين، المحســـنين، الشـــاكرين.. إلى آخر الصـــفات التي تجعل من (المؤمن)، في هذا العالم، منار هدى للمدلجين في رحلة الحياة الدنيا.. يضـــيء الدرب، ويدلّ الحيارى على الطريق.. ليس بكلمات تقال، وعبارات تزجى، ولكن بالفعل، والمجاهدة، والتحقّق، والبذل والعطاء، والأسوة الحسنة.. إنه فعل متواصل في صميم الصيرورة الخلقية والروحية والوجدانية، تلك التي اتهمنا العقل الغربي النصـراني بتضّحلنا، وفقرنا فيها، والتي قال - على لسان عدد من أصحابه - إن عطاءها لا يكاد يقارن بما تقدّمه النصرانية لأتباعها!

لقد كذبوا.. فها هي ذي كتب الرقائق تملأ رفوف مكتباتنا.. وها هو الشـيخ الكيلاني، من بين عشـرات ومئات وألوف من أساتذة الخبرة الروحية الذين تحدّثتْ عنهم كتب التراجم، يردّ ، بدعائه العذب في (بشـائره)، محاولاً أن يضـع نفسـه، وأتباعه، ومريديه، والمؤمنين في العالم: قبالة الرســـول المعلّم الذي انطوت خبرته الروحية والوجدانية على أسرار الكون،

واجتازت مغاليق الملكوت، وصـعّدت في المراقي صـوب سـدرة المنتهى.. وهو القائل: (لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً)..

اقرأوا هـذا النشـيد العـذب للكيلاني، مرة ومرتين وثلاثاً، تمعّنوا في كلماتـه، فإنكم غير واجدين فيها شـطحة أو انحرافاً مما جاءتنا عدواه من إشراقيات الغنّوصـيين ووصـفات الأفلاطونيـة المحـدثـة، التي يختلط فيهـا فكر اليونـان الوثني، بتحريفـات القـدّيس بولس، بهوس بعض المحسوبين على هذا الدين.

إننا ها هنا في قلب التوحيد.. قبالة اثنتين لا ثالث لهما: كلمات الله سـبحانه، وهدْي رسوله الأمين ﷺ ، الذي يستمد بشرياته من الله وحده -جلّ في علاه-.

إن (زاد الذاكرين والذاكرات) لهو - بحقّ - محاولة مخلصـة على طريق اللقاء الموعود.. اللقاء الذي لا خيار فيه بين أبناء هذا الدين وفئاته جميعاً. فما داموا يبتغون وجه الله وحده.. ويرجون إليه الوسـيلة أيّهم أقرب.. ويحرصـون على رضـاه.. ما داموا يتوسّـمون، أو يحاولون في الأقلّ، أن يسلكوا الدروب والمعارج التي مضـى رسولهم المعلّم ﷺ مصعّداً في مراقيها.. ما داموا - جميعاً - يعرفون جيداً أن شـهادة (لا إله إلا الله) هي الأمانة الكبرى في أعناقهم، وأن أي انحراف عن مطالبها، بأيّ قدرٍ كان، مهما ضؤل وتخفّى، يقودهم إلى البور والخسرـان.. فإنهم في عباداتهم.. في أذكارهم.. في خفقان قلوبهم.. في توهّج أرواحهم، وهي تخفق وتضـطرب مسـبّحة بحمد الله، شـاكرة نعماءه، منزّهة توحّده المطلق.. أخوة على طريق واحد.. بعضهم يسلك هذا الدرب، وبعضهم يسلك ذاك.. لكن الدروب جميعاً تؤول في نهاية الأمر، إلى الهدف الواحد، وتتمحور عند النقطة المركزية التي يقوم عليها الكون والوجود، وتدور بها الأفلاك والمقادير.

(لا إله إلا الله) مرّة أخرى وثانية وثالثة، حيث تصير الكلمة فعلاً روحياً قديراً - كما يقول غارودي - على تحويل الجبال عن مواضعها!

ألم يأن الأوان بعد لتجاوز الجدل العقيم، والتحوّل بدلاً عنه، إلى حالة من الحوار الفعّال الذي يتأسّى بأدب الخلاف العفّ الذي علمنا إياه الأجداد، ويمضـي للتحقّق بالتصـالح والوفاق بين أبناء هذا الدين قبالة كل قوى العالم المضـادة التي تحدّ أنيابها لتمزيقهم والإتيان عليهم؟

ألم يأن الأوان بعد؟

## كلمات في التصوّف، للشيخ فيضي الفيضي

على صغر حجم الكتاب، فإن المرء يتبيّن فيه أكثر من قيمة إسلامية يؤكدها المؤلف حيناً، ويكشـــفها للناس حيناً آخر، بعد إذ كادت أن تطمس عليها الجهالة والأهواء والضلالات.

فثمة، من جهة، تأكيد على رؤية الإسلام الشمولية التي حققت ذلك الوفاق المدهش بين سائر الثنائيات التي تمزّق الحياة البشـــرية، والتي ما قدر دين أو مذهب، غير الإسلام، أن يلّمها في سياق ويمنحها التوحد واللقاء.

فإن الســـماء والأرض، الآخرة والدنيا، الروح والجســـد، الباطن والظاهر، الإيمان والعقل، الفرد والجماعة، الحرية والعدل، وســـائر الثنائيات الأخرى، تجد في هذا الدين فرصـــتها لتجاوز الصـراع والاقتتال.

إننا نتذكر هنا عبارات، سيلتقي بها القارئ، للشيخ أحمد الرفاعي؛ المتصوّف المعروف: "لا تقولوا كما يقول بعض المتصـوّفة: نحن أهل الباطن، وهم أهل الظاهر. هذا الدين الجامع باطنه لبّ ظاهره، وظاهره ظرف باطنه. لولا الظاهر لما بطن، ولولا الظاهر لما كان ولما صحّ. القلب لا يقوم بلا جسد، بل لولا الجسد لفسد، والقلب نور الجسد!"

وهو يتســاءل بكلمات تحمل دلالتها فيما نحن بصـــدده : "أي حالة باطنة للقوم لم يأمر ظاهر الشـــرع بعملها؟ واي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشـــرع بإصلاح الباطن لها؟". ثم يخلص إلى القول الفصـــل: "لا تعملوا بالفرق والتفريق بين الظاهر والباطن، فإن ذلك زيغ وبدعة".

كما أننا نتذكر هنا استنتاجاً للمستشـــرق البريطاني المعروف السير (هاملتون كب ورد)، في كتابه (دراسـات في حضـارة الإسـلام)، يرى فيه أن التصـوّف الإسـلامي تأسّـس بقوة على الاستبصارات الحدسية في القرآن، وأنه تحرك داخل مواقف الإسلام الدينية الأساسية، وهو بهذا العمل كان يكمل التوحيد.

وعلى هذا، فإن الإسـلام فتح الطريق لسـائر الصـيغ والممارسـات التي تعين المؤمن على التحقّق، والانسجام، والتعبير عن توقه للالتزام بالشـــريعة، والصعود إلى سماوات الروح والإيمان العليا.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالنشـاط التعبّدي والأخلاقي الذي يشـكل محور الكتاب، فإن المرء يلحظ كيف يضمّ الإسلام جناحيه على حشود لا تحصـى من النماذج البشـرية التي يكتفي بعضـــها بالوقوف، وفقاً لطاقاته ومطامحه، عند حدود الشـــعائر والالتزامات الأخلاقية المحدّدة، لا يزيد ولا ينقص، بينما يمضـــــي الآخر صـعداً، بقوة الروح وطموحها، مجتازاً

محطات الإيمان، والتقوى، وصولاً إلى الإحسان الذي هو الهدف - القمة ، هنالك حيث يجد الإنسان نفسه قبالة المشيئة الإلهية التي لا يخفى عليها شيء في الأرض ولا في السماء..

فما يسمى بالسلفي، وما يدعى بالصوفي، وهي مسميات جاءت متأخرة بعض الشـــيء، إنما هما - في ضـوء هذه الحقيقة - أبناء هذا الدين وأصـحابه، ولا يخرج منهم عن الجادة، أو يحكم عليه بالخروج، إلاّ من وسوس الشيطان فارتضـــى لنفسه أن يخالف عن أمر الله بالقول أو الفعل.

أن أبا يزيد البسـطامي (المتصـوّف)، والشـافعي (الفقيه)، رحمهما الله ، يحسـمان الأمر بهـذه الكلمات التي قـالاهـا، كما لو أنهما يلتقيـان على ميعـاد: "لو رأيتم الرجـل يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغترّوا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي "!

كما أن متصوفاً معروفاً، كالشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله -، يعلن بوضوح وحسم أن "ترك العبادات المفروضـة زندقة، وارتكاب المحظورات معصـية. لا تسـقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال ".

هـذا مـا أراد المؤلف أن يقوله وهو يتعامـل مع موقف ابن تيمية - رحمه الله - من التصوّف، أو بعبارة أدق، هذا ما أراد ابن تيمية نفسه أن يقوله.

والكتاب، بتوجّهه هذا، إنما يكشـــف بالمنهج الســـليم عن واحدة من الحقائق المهمة المتعلقة بشـــخصـــية هذا الإمام الكبير وفكره، والتي كاد أن يضـــيعّها غبار الخلافات على الجزئيات والفروع. ويقيناً فإن الكثيرين لم يكونوا على معرفة واضـحة، حتى لحظة صـدور الكتاب، بموقف ابن تيمية من التصوّف، ورأيه فيه!

والكتاب، بعد هذا وذاك، محاولة جادة لإعادة الوفاق بين تيارين من تيارات هذا الدين، اصـطرعا طويلاً - للأسـف - متشـبثين برؤية أحادية الجانب تعمل بمبدأ (إما هذا، أو ذاك)، ولم يقل أحد منهما: (هذا وذاك).. الالتزام والتصوّف.. الأسـلاف والتابعون لهم بإحسـان، ما داموا جميعاً يمضـــون على الجادة ملبّين أمر الله وحده، عاملين بتعاليم رســـوله الكريم - عليه أفضل الصلاة والسلام-.

إنها بادرة طيبة لتصـفية حسـاب قديم، عانت ديار الإسـلام من وطأته منذ زمن بعيد، ولا تزال..

وإذا كان ابن تيمية نفسـه، هذا المعلم الكبير، يقول عن الصـوفية ما تجدونه أمامكم في هـذا الكتاب، فهل يبقى ثمة مبّر للخلاف الذي يتجاوز دائرته المباحة، صـــوب الكراهية والخصام؟

ولعلّ الفرصة أمام القارئ تكون أكثر غنى وخصباً بصدور الكتاب الذي وعد به المؤلف عن الإمام، والذي لا يعدو هذا الكتيب أن يكون فصلاً من فصوله. وحينذاك سنجد أنفسنا إزاء واحد من النماذج البشرية الفذة التي صاغها هذا الدين، وهو قادر على أن يصوغها في كل زمن ومكان.

وإنها - والحق يقال - لفرصة جيدة لتصفية حسابات قديمة في هذه المدينة، وكل المدن الإسلامية الأخرى، من أجل العودة إلى الوفاق.. والأسباب قائمة، والهدف واحد.. خطوة من هنا، وخطوة من هناك، يمكن أن تقودنا إلى ما نتمناه جميعاً: التوحّد في دائرة عقيدة كبيرة شاملة، عرفت كيف تضمّ جناحيها على النظام والحرية.. الشريعة والحقيقة.. الالتزام والانطلاق.. والصرامة والمرونة..

ذلك بعض ما نتلقاه من هذا المعلم الكبير.. رحمه الله..

## حول النظام الإسلامي، للشيخ محمود الآلوسي

يعالج الكتاب، كما يدل عليه عنوانه، جوانب من النظام الإسلامي المتجذر في العقيدة، بدءاً بتوحيد الله سبحانه وعبادته، وانعكاس ذلك على نظام الإسلام والحياة الإسلامية، مروراً بقضية المرأة، والقيم الخلقية، والموقف من ثنائيتي العلم والجهل، والعمل والكسل، وانتهاء بالتشريع في مصادره، وبعض معالجاته للممارسات الخاطئة، المنحرفة، ذات التأثير المدمر للحياة البشرية، كالزنا وشرب الخمر والسرقة..

وهكذا، فإن الكتاب لا يستهدف الاستفاضة في دراسة النظام الإسلامي دراسة مستقصية شاملة، وإنما هو - كما يدل عليه العنوان كذلك - عرض لبعض جوانب هذا النظام، قد تتبعه محاولات أخرى لمعالجة الجوانب المتشعبة الخصبة لهذا النظام الإلهي المدهش، الذي لم يكد يترك صغيرة ولا كبيرة في مجرى الحياة البشرية إلاّ أحصاها.

يعتمد الباحث على جملة طيبة من المصادر والمراجع أعانته على متابعة الجوانب التي عالجها بقدر ملحوظ من الاستقصاء والتنويع. وهو لا يكتفي بالاعتماد على النصّ وحده، وإنما يدخل بين الحين والحين لكي يقارن ويحلّل ويستنتج، أو ينتقد ويقوّم، وإن كان المرء يتمنى أن لو كان حضوره داخل البحث أوسع مساحة وأكثر اتساعاً، ولعلّ ذلك يتحقق بالمران الدائب على البحث، في محاولات أخرى قادمة يعد بها هذا الشيخ الشاب الذي يتميز بعشق ملحوظ للبحث، وإقبال نهم على القراءة والاستيعاب.

والحق أن الموضوعات التي اختارها في كتابه هذا تنطوي على أهميتها البالغة، وتأخذ في سلّم الأولويات مكاناً متقدماً، ليس فقط في دائرة النظام الإسلامي، وإنما في النظم

والممارسات البشـــرية كافة. فمن منا اليوم ينكر الأهمية البالغة لقضية المرأة التي ضلّت بها سبل الوضعيين المعوجة، وفاءت بها الهندسة الإسلامية إلى الصـــراط ؟ أو مسألة القيم الخلقية التي انهارت في الحياة الغربية، وأخذت تنذر بالويل، بينما قدر هذا الدين على حمايتها وديمومتها من خلال تجذرها في العقيدة؟ ومن ينكر - كذلك - أهمية العلم الذي يمسك الغربيون اليوم برقابنا بواسطة أعّنته المحكمة، والذي كان كتاب الله وسنة رسوله - صـلى الله عليه وسـلم - قد أكدا عليه تأكيداً يوحي بأن أي تهاون معه سـيقود الأمة إلى الدمار.. والأمر نفسه بالنسبة للعمل الذي هو أساس الفعل الحضاري، وبغيابه أو تباطئه تنهار الحضارات وتنسحب من التاريخ.

وفق الله الأخ الباحث للمزيد من العطاء، وتنفيذ طموحه بتقديم حلقات أخرى، يستكمل فيها الجوانب العديدة الأخرى لنظام الإسلام الفريد..

ومن الله وحده التوفيق..

## تقريظ لكتاب (النقد بين البناء والهدم: رؤية إسلامية)،للدكتور رائد أمير الراشد

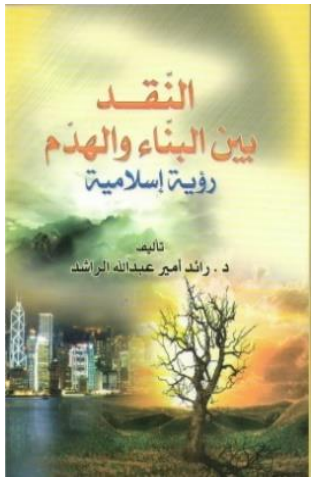


يأتي هذا الكتاب في سياق (أدب الخلاف) الذي أسَّس له الأجداد، ثم جاء المعاصـــرون لكي يضيفوا إليه تقعيداً وتأصيلاً..

وعنوان الكتاب نفســه يســلّم قرّاءه المفتاح الذي به يدخلون، فهو عرض للنقد بين البناء والهدم من زاوية الرؤيـة الإســلاميـة، حيـث ينطلق من تحـديـد مفهوم (الخطأ)، الـذي هو منـاط الأمر كلّه، ثم ينتقـل لتحليـل النقد البّناء؛ مصـطلحاً وتعريفاً ومشـــــروعية وأنواعاً وضـرورة وشـروطاً وآداباً، لكي ما يلبث - بعد أن يشبعها بحثاً - أن يتحوّل إلى (النقد الهدّام)؛ في أعراضـه وأسـبابه وأضـراره ووسائل علاجه.

وبهذا يستقصـــي جوانب الموضوع بمفرداته وحيثياته كافة، كطبيب متمكن يعرف جيداً كيف يشخص الحالة التي بين يديه، ويحدّد لها أسباب العلاج.

والمؤلف يملك نفساً طويلاً في متابعة كل مفردة من مفردات موضوعه هذا، فلا يكاد يدع جانباً، أو حلقة منه، إلاّ وضعها تحت الأنظار، معتمداً في ذلك صيغة فنية في العرض تقوم على الترقيم، لكي يضبط المعالجة فلا تفلت منها شاردة ولا واردة.

فهو في حديثه عن مفهوم الخطأ، يلفت الانتباه إلى حقائق ينبغي الوقوف عندها، ويعدّد أربعاً منها، وهو في استقصائه لشـــروط النقد، يقف عند ستة منها، وهو في متابعته لآداب النقد يضع يديه على ثمانية منها.

ونحن اليوم – وبخاصة في مدينة الموصل – بأمّس الحاجة إلى تحديد ضوابط النقد، كي لا يشط بنا النوى، ونمارس هدماً، ونحن نريد بناءً.. وما أكثر الذين انجرفوا، وهم ينقدون، في الاتجاه الأوّل، فآذوا أنفســـهم من حيث إنهم أرادوا إيذاء الآخرين، وآذوا – قبل هذا وذاك – الحقيقة الموضوعية التي تعاملوا معها، فشوّهوها وانحرفوا بمعطياتها عن مسارها الصحيح.

ها هو ذا المؤلف يبذل جهده الملحوظ، ومن خلال رؤية إسلامية أصيلة، لتحديد ملامح ومســـارات العملية النقدية في اتجاهيها، من أجل أن يضـــع بين أيدينا جميعاً، المعايير السليمة والعادلة، التي يتحتم أن نتعامل بها مع الآخرين، وإزاء الظواهر والأشياء.

ويظل الطريق مفتوحاً لقول المزيد، ما دام أن هذا الدين لا يبخل علينا بتقديمه معايير النقد الهادف الأصيل.

وما هذا الكتاب الذي يجده القارئ بين يديه، وكما يقول مؤلفه في المقدمة، سوى محاولة "لتحديد صورة ملامح النقد في الإسلام، في ضوء المبادئ والقواعد الأساسية في عملية التغيير والإصلاح، في سبيل توحيد وتقريب المبادئ والمفاهيم، والانطلاق بها إلى جادة الصواب وبرّ الأمان ".

وإنه – والحق يقال – هدف عزيز، يســـتحق أن يبذل من أجله الكثير.. وإلى الله وحده نتوجّه بالكلمات والأعمال❐

# لهاث وراء السراب!

**محمد واني**

لم يكن الشيخ سعيد النورسي مجانباً الحقيقة عندما تعوذ من الشيطان والسياسة، لأن السياسة بمعناها الميكافيللي التي تمارس الآن على النطاق الدولي، ذي الدهاليز الملتوية والألاعيب غير الأخلاقية، تدمر البلاد والعباد، وتجرد السياسة من كل القيم والمبادئ الإنسانية والدينية، وقد طغت هذه السياسة المجردة، ذات الطابع العسكري، على كل مناحي حياة الإنسان، وهي التي تقوده وتنظم أموره، وتحدد مصيره، إلى درجة أنها تحولت إلى إله يعبد من دون الله إن صح التعبير، وقد حشرت أنفها في كل شيء؛ من التجارة إلى الثقافة إلى السياحة، وتدخلت حتى في الرياضة، من خلال مصطلحات سياسية وعسكرية (استراتيجية كرة القدم، وتكتيك كرة السلة، وهكذا).

والعلاقات السياسية بين الدول والمجتمعات المعاصرة، ومنظماتها الأممية، قائمة على المصالح والمنافع، يقول الكاتب الجزائري عبدالإله بلقزير: "المادية البحتة"! "فما من سياسةٍ إلاّ ومَبْناها على المصالح؛ فالمصلحة مبدأُ السياسة ووقودها الذي به تشتغل آلتُها.. لا شيء يطلب في السياسة غير تحقيق مصلحة، أو الدفاع عن مصلحة متحققة، ولا غاية أخرى لها غير هذه الغاية". وفق هذه القاعدة اللاأخلاقية التي ترسخت في السياسة المعاصرة، ساند المجتمع الدولي ودعم بعض الشعوب والمكونات العرقية والإثنية، وساعدها على الاستقلال، مثل: جنوب السودان، والبوسنة والهرسك، وتيمور الشرقية، بينما تخلى عن الكورد عام ١٩٧٥، وكذلك في ٢٠١٧، عندما أعلنوا عن استفتاء للانفصال عن العراق، صوّت عليه أكثر من ٩٣٪ من الشعب الكوردي، ولكن كفة ميزان المصلحة (الدولية) رجحت لصالح العراق، وبلع الكورد – كعادتهم - مرارة الغدر والهزيمة!

مهما أجدت لعبة السياسة المعاصرة (الميكافيلية)، فإنها بضاعة غربية خالصة، ككثير من البضائع التي استوردت من المجتمعات الإسلامية، كالديمقراطية مثلاً، التي مهما أجدت استعمالها فإنك لن تستطيع مجاراة هذه الدول (الاستعمارية)، ووكلائها في المنطقة. وقد دخلت جماعات وتنظيمات إسلامية في منافسة (خاطئة)، وغير متكافئة معها، وخاضت غمار العملية الديمقراطية، ودخلت البرلمان، وشكلت الحكومة، ولكن في النهاية خرجت من المولد بلا حمص! لا طالت بلح الشام، ولا عنب اليمن! ولم ينلها إلا التعب والحسرة وانقطاع النفس، كجماعة الإخوان المسلمين! وربما أدرك حزب كالاتحاد الإسلامي الكوردستاني هذه الحقيقة، فانسحب من المشاركة في الحكومة بهدوء، وفضل ممارسة دور المعارضة السياسية في إقليم كوردستان، والتصدي للإصلاح من أبواب أخرى سوى باب السياسة!❐